سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٤)



تفسير القرآن الكريم

سورة الشعراء

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

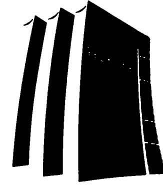
من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

تفسير
القرآن الكريم
سورة الشعراء

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة الشعراء. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٦هـ
٣٤٢ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٣٤)
ردمك: ٢ ـ ٥٤ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة الشعراء ـ تفسير.
أ ـ العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٧٨٣٦

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٣٦
ردمك: ٢ ـ ٥٤ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ



يُطلب الكتاب من:
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٤)

تفسير القرآن الكريم

سورة الشعراء

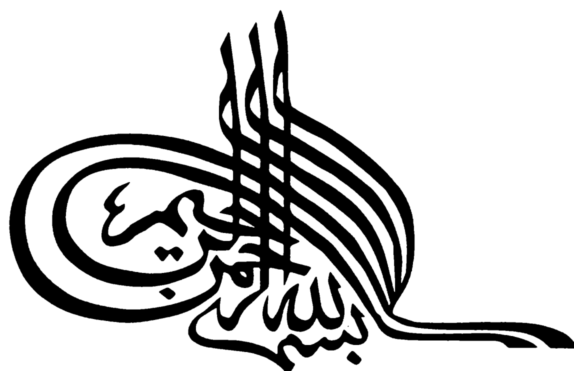
لفضيلة الشيخ العلامة

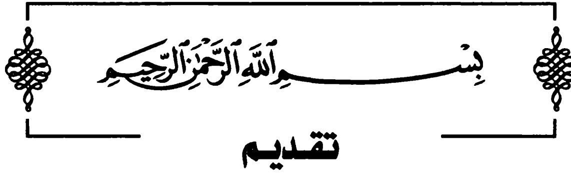
محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية


بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحِ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفسيرِه لِتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَي الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمدَ بن محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[1]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِقِ الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[١]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ الله تَعالَى- لِتَعمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤَسَّسةِ الشَّيخ مُحمَّد بنِ صالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراجِ ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فِي هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَريمِ؛ نافِعًا لِعبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلِمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأوَّلِينَ والآخِرينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لَهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

٢٠ جُمَادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ



(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

سُورة الشُّعَراء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا مُحمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ. وبَعد:

قال المُفَسِّر[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [سُورَة الشُّعَرَاء [مَكِّيَّة إِلَّا آيَة ١٩٧ و٢٢٤ إِلَى آخِر السُّورَة فَمَدَنِيَّة وَآيَاتهَا ٢٢٧ آيَة نَزَلَتْ بَعْد الْوَاقِعَة].

الشُّعَرَاء: جمع شاعرٍ، وسُمِّيَتْ به لِأَنَّهُ ذُكِرَ فِي آخِرِها، والتَّسميةُ للسُّوَرِ منها شيْءٌ تَوْقِيفِيٌّ منَ النبيّ ﷺ ومنهـا شيْء اجتهـادِيٌّ، فالنبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أحيانًا يذكرُ السُّورَةَ بعينها، مثلما قَالَ: «اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ؛ الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ»[2]، وأحيانًا لا يَذْكُرُهَا ولا يُبَيِّنُ اسْمها، ولكن يَجْتَهِدُ الصَّحابةُ فِي تَسْمِيَتِها.

وتَسميةُ السُّور أيضًا قد تكون واحدة، بمَعْنى: أن تُسَمَّى السورةُ باسْمٍ واحِدٍ، وقد يكونُ للسورةِ عِدَّةُ أسماء.

ومن السُّور ذوات الأسماء العدة سُورَةُ الإسراء، فهي تُسَمَّى أيضًا سُـورةَ بني إِسْرَائِيلَ، لكـنَّ بعض القَوْمِيِّينَ أنكـروا ذلك، وحجتُّهم في هذا الإنكـار: أنَّه

---

(١) المقصود بـ(المُفَسِّر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رحمه الله تعالى، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، رقم (٨٠٤).

لا يمكنُ أن تكونَ سُورَةٌ باسْم بني إِسْرَائِيل، يعني سُورة اليَهود، فأنكروا هَذَا الشَّيْء.

وقلنا: إن القومِيِّين أثبتوا أن اليَهودَ قتَلُوا عيسى بنَ مَرْيَمَ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ [النِّساء:١٥٧].

يقول المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [مَكِّيَّة]، والمكيُّ هُوَ الَّذِي نزلَ قبلَ الهجرةِ عَلَى القولِ الصَّحيحِ، يعني: فالمُعْتَبَر الزمنُ لا المكانُ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [إلا ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ إِلَى آخِرِها]، وهي أربع آيات: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٤-٢٢٧]، وهذا الاستثناء لَيْسَ بمقبولٍ إِلَّا إذا دلّ الدَّليلُ عليه، والدَّليل عليه تارةً يكون بالنقلِ، وتارةً يكون بالمَعْنى، والمَعْنى قد يكون واضحًا وقد يُنازَع فيه.

فهنا المُفسِّرُ استثنى هَذِهِ الآياتِ الأربعَ بقرينةِ السياقِ؛ لِأَنَّ قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧]، قيل: لَمَّا نزلت ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٤]، تأثر لها حسَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٧][1]، والانْتِصار بعد الظُّلم كَانَ فِي المدينةِ وليسَ بمكَّةَ، ومِن ثَمَّ قالوا: إن هَذِهِ الآيات مَدَنِيَّة.

---

(١) تفسير الطبري (١٩/ ٤١٨).

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهي مائتانِ وسبعٌ وعشرونَ آيةً]، وتقسيم الآيات أيضًا توقيفيٌّ، حَتَّى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَيْسَ له شأنٌ فِي تقسيمِ الآياتِ، فتنزل الآيات من عند الله مُقَسَّمةً، وأيضًا الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يأمر بوضعها فِي مكانها من السورة، فهي توقيفيَّة أيضًا فِي الترتيبِ.

قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ والبَسْملَة متعلِّقة بفعل محذوف متأخِّر مناسِب لما يُسَمَّى عليه، فمثلًا: عِندَما تريد أن تقرأ تقول: بسم الله الرَّحْمن الرحيم، فالتَّقدير: «بسْم الله الرَّحْمن الرحيم أقرأُ».

وقُدِّر فعلًا لِأَنَّهُ الأَصْل فِي العمل.

وقدِّر متأخرًا لإِفادة الحصر والتبركِ بتقديم اسْم الله.

وقُدِّر مناسبًا لِأَنَّهُ أخفُّ، وإلا فيجوزُ أن تقدِّر: باسْم الله أبتدئُ، ولكنّه إذا قُدِّر خاصًّا فهو أخصُّ وأدلُّ عَلَى المقصود.



الآية (١)

• ● ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿طسٓمٓ﴾ [الشعراء:١].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿طسٓمٓ﴾ اللهُ أعلمُ بمُراده بذلك]، ويَحتمِل قوله: [بمرادِهِ بذلكَ] أَنَّهُ يَقصد أن لهذه الكلمةِ أو لهذه الحروف معانيَ واللهُ أعلمُ بها، ويَحتمِل أن مراده (الله أعلم بذلك) أي: بالغَرَضِ الَّذِي من أجلِهِ أَتى بهذه الحروف الهِجائيَّة، وبين المعنيينِ فرقٌ، يعني: عَلَى التَّقديرِ الأوَّل تكون هَذِهِ الكَلِمَةُ لها معنًى لكن لَيْسَ معروفًا، وعلى التَّقديرِ الثَّاني يكونُ لا معنًى لها، ولكن الحِكمة فِي الإتيان غير معروفة.

أمَّا احتمال أن يكون لها معنًى فهذا بعيدٌ، ووجهُ البُعْدِ أنَّ القُرآن أَتى بلِسانٍ عربيٍّ، وأن هَذِهِ الحروف الهجائيَّة لمجرَّد كونها حروفًا لَيْسَ لها معنًى، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُنْزِل لنا حروفًا هجائيَّةً ويَقصِد بِهَا المَعْنى؛ لِأَنَّ هَذَا خِلاف أن يكون القُرآن بيانًا وخُروجًا عن مُقْتَضَى اللُّغة العربيَّة.

وأمَّا الاحتمال الثَّاني فَهُوَ أن يُقالَ: اللهُ أعلمُ بما أرادَ؛ بالغرضِ الَّذِي من أجلِهِ أتى بهذه الحروف الهجائيَّة؛ فهذا حقٌّ؛ فإذا قال الإِنْسَانُ: أنا لا أعلم واللهُ أعلمُ فهذا حقٌّ، ولكن بعض أهل العلم أَبْدَى مناسبةً، وقال: إن منَ المناسباتِ أن القُرآنَ الكريمَ المعجِزَ للناسِ أجمعينَ أَنَّهُ لن يأتيَ بأمرٍ غريبٍ، وإنَّما أَتى بكلماتٍ من

هَذِهِ الحروف، الَّتِي يتكوَّن منها كَلام النَّاس، ومع ذلك أَعْجَزَهُمْ؛ لِأَنَّهُ لو أَتَى بحروفٍ جديدةٍ غيرِ معلومةٍ للناسِ لقِيلَ: إن إعجازَه ظاهرٌ، ولا أحدَ يَقدِر، لكن وجه الإعْجاز وتمام الإعْجاز أن يأتِيَ بحروفٍ هِيَ من حروفِ الكَلامِ الَّذِي يتكلَّم بِهِ النَّاس، ومع ذلك يُعجِزهم، واستأنسوا لإِثْبات هَذِهِ المناسبةِ بأَنَّكَ لو تَدَبَّرْتَ هَذِهِ السُّوَرَ الَّتِي ابتُدِئت بالحروف الهجائيّة لوجدتَ أَنَّهُ يذكر بعد الحروفِ ما يَتَّصِل بالقُرآنِ:

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ﴾ [البقرة:١-٢].

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [آل عمران:١-٣].

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١-٢].

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس:١].

﴿الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١].

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف:١].

﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد:١].

﴿الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم:١].

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر:١].

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم:١-٢].

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه:١-٢].

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الشعراء:١-٢].

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ [النمل:١].

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [القصص:١-٢].

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت:١-٣].

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الروم:١-٣].

﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [لقمان:١-٢].

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة:١-٢].

وسِيروا عَلَى هَذا.

بَقِيَ أَنَّهُ يجب أن يُرَدَّ بأنَّ الآياتِ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١-٢]، و﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الروم:١-٣]، و﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم:١-٢]، لَيْسَ فيها ذِكْرٌ للقرآنِ؟

فيُقال: فيها ذِكْر للقرآن: فـ ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ هَذَا وَحْيٌ، و﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ فإنَّ قصصَ وأخبار الأوَّلين إنَّما كانتْ بالوحيِ، و ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ إخبارٌ أيضًا عن أمرٍ مُسْتَقْبَلٍ من أمور الغيبِ لا يُعْلَم إلا بالوحيِ.

ثم لو فُرِضَ أن هَذَا لَيْسَ بواضحٍ؛ فإن النادرَ لا حُكْمَ له، وهذا المَعْنى -الذي أَشرنا إليه- ذَكَرَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ، وأيّده شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ[1].

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٢) ط دار الفكر.

الآيـة (٢)

• • ෆ • •

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الشعراء:٢].

• • ෆ • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تِلْكَ﴾ أي: هَذِهِ الآيات ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾]، وتعبيرُ القُرآن: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾ وهناك فرق بين التعبير القُرآنيّ وتعبير المفسِّر؛ الفرقُ بينهما أن التعبيرَ القُرآنيَّ أَتَى بالإشارةِ للبَعيد، والمُفَسِّر أتى بالإشارة للقريبِ.

ثم قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: هَذِهِ الآيات ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾]، أيضًا لِيُبيِّن أن آيات الكِتاب هِيَ الخبرُ.

والصَّوابُ أن نقولَ: لو قال المُفسِّر: (تلك الآياتُ آيات) لكَانَ أحسنَ؛ لِأَنَّ كونه يعدِل عن الإشارةِ بالبعيدِ إِلَى الإشارةِ بالقريبِ، معَ أن الله تعالى أثبتَ الإشارةَ للبعيدِ، فهذا لَيْسَ تفسيرًا، والصَّواب بلا شكٍّ: القُرآن هُوَ الصَّوابُ، والإشارة بالبعيدِ هنا مع قُربِ القُرآنِ الكريمِ وكَوْنه بينَ أيدينا إشارةٌ إِلَى عُلُوِّ مَرْتَبَتِه، فهو للتَّعْظيمِ، وإذا صِرنا عَلَى ما قال المُفسِّر فاتنا هَذَا المَعْنى الَّذِي أُرِيدَ بالإشارة للبَعيد.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ القُرآن، والإضافة بمَعْنى (مِن)]، يعني: آيات من الكِتابِ.

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ بمَعْنى: المكتوب، كاللِّبَاسِ بمعنَى: المَلْبُوس، والغِرَاس:

بمَعْنى المَغْرُوس، والبِنَاء بمَعْنى: المَبْنِيّ، والفِرَاش: بمَعْنى المَفْرُوش. وسُمِّيَ كِتابًا لِأَنَّهُ كُتِبَ فِي اللَّوْح المَحْفُوظ، وكُتِب بالصُّحُف الَّتِي بأيدي الملائكة، وكُتِبَ فِي الأرض بين النَّاس، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١١-١٦]

وقوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآيات جمع آيةٍ، وهي فِي اللُّغة: العَلامَة، والمُراد بِهَا هنا العَلامَةُ الدالَّةُ عَلَى منزِّل هَذَا القُرآنِ، وَهُوَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذن كلُّ آيةٍ منْ هَذِهِ الآياتِ فيها إعجازٌ؛ لِأَنَّهُ لو لم يكنْ فيها إعجازٌ لم تكنْ آيةً؛ لِأَنَّ الآيةَ العَلامَةُ الفارقةُ، ولا يكون القُرآن عَلامَةً فارقةً بينه وبين كَلامِ الآدميِّين إلا إذا كَانَ مُعْجِزًا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْمُبِينِ﴾ المُظْهِر الحقّ من الباطِل]، وأحيانًا يفسِّرون المُبِينَ بالبيِّن، قال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل:٧٩]، يعني: البيِّن الواضِح؛ وذلك لِأَنَّ أَبَانَ تُستعمل قاصرةً ومُتَعَدِّيَةً، يعني: فتستعمل قاصرةً: بَانَ الشَّيْءُ وأبانَ الشَّيْءُ، وتُسْتَعْمَل مُتَعَدِّيَةً، فيُقَال: أبنتُ الحقَّ، يعني: أظهرته، فالمبين إذا فُسِّرَتْ بالبيِّن فمعناه أن السِّياق لا يَقتضِي سوى ذلك، فتكون منَ اللازم، فإذا كَانَ المعنى يَحتمِل أن تكونَ من المتعدِّي -يعني: بمَعْنى مُظْهِر- وجبَ أنْ تُفَسَّرَ به؛ لِأَنَّ تفسيرها بالمُظْهِر يَشْمَل أو يَتَضَمَّن تَفسيرها بالبيِّن؛ إذِ المُبِين معناه: بيِّنٌ بنفسِهِ، مُبِينٌ لِغَيْرِهِ، خلاف البيِّن بنفسه فقد لا يُبين غيرَه.

إذن كلَّما جاءتْ (مُبين) فِي القُرآنِ إنْ أمكنَ أنْ تُفَسَّرَ بالإبانةِ، الَّتِي هِيَ الإظهارُ وَجَبَ؛ لِأَنَّ ذلكَ أشملُ، وإذا لم يمكنْ فُسِّرت بالبيِّن الَّذِي هُوَ اللازمُ دونَ المتعدِّي؛ كقولِهِ: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢]، فهِي بمَعْنى (بيّن)

منَ اللازمِ، ويمكن عَلَى بُعدٍ أن تكونَ بمَعْنى (المُبِين)، يعني: المُظهر لِضَلَالِهِم، ولكن المعْنَى الأوَّل أَبينُ.

على كلِّ حالٍ نقول: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ هنا بمَعْنى: المظهِر للحقِّ، ولا يكون مُظهرًا للحقِّ إلَّا وَهُوَ بيّن بنفسه.

وترك المفعول فِي قوله: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ لإفادة الْعُموم والشُّمولِ، فهو مُبينٌ لكلِّ شيْءٍ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، وهذا يدلُّ عَلَى أنَّ القُرآن شاملٌ لكلِّ شيْءٍ، وأمّا: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]، فليسَ المُراد بِهِ القُرآن، وإنْ كَانَ كثيرٌ منَ النَّاس تَسمعهم يَستدِلّون بهذه الآيةِ عَلَى أن القُرآن شاملٌ لكلِّ شيْءٍ، ولكن المُراد ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾: اللوح المحفوظ.

و﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أبلغ، فهو مذكور فيه بيانُ كلِّ شيْءٍ، فالقُرآن تِبيان لكل شيْءٍ، ولا يَخفَى عَلَى أحدٍ تبيان القُرآنِ إلا لعلَّةٍ فيه ليستْ فِي القُرآن، لعلة فِي نفس الَّذِي خفِيَ عليه؛ لأنّا نَجزِم بصِدْقِ هَذِهِ القضيّة ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾، وما خفي عَلَى أحدٍ منَ النَّاسِ ما خفِيَ من الأحكامِ، إلا لِقُصُورٍ فِي فَهمهم، أو فِي عِلمهم، أو فِي إرادتهم، فهو إمّا قاصرٌ فِي الفهم لا يفهم، وهذا لا يَتبيَّن له الشَّيْء، وإما قاصِر فِي العلم لَيْسَ لديه معلوماتٌ، وإما قاصر فِي قصده، أي نِيَّته.

ولهذا قال شيخ الإسلامِ: «مَن تَدَبَّرَ القُرآنَ طالبًا الهُدَى منه تَبَيَّنَ له طريقُ الحقِّ». ذَكَره فِي (العقيدة الواسطية)[1]، حينما تكلَّم عن الآيَاتِ القُرآنيَّة الدالَّة عَلَى

---

(١) العقيدة الواسطية: اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة، لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص:٧٤) ط. أضواء السلف.

الصِّفات، وهي كلمة لها معناها.

إذن فقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: المُبين لكلِّ شيْءٍ، وخَفاء بعضِ الأمورِ عَلَى النَّاس منَ القُرآن لَيْسَ من قصورِ القُرآنِ، ولكن من قصورهم؛ إما لقصور فِي الفهم، أو العلم، أو القصد.

قد يقول قائل: إننا لا نجد كل شيْء فِي القُرآن؟ وأوّل ما يُعترض علينا أنَّنا لا نجد كمّ عددِ الرَّكَعات فِي الصلاةِ، فأينَ البيانُ؟

فيُرَدُّ عليه بأنَّ القُرآنَ أتَى بتِبيانِ كلِّ شيْءٍ عَلَى الْعُمومِ، والسنَّة أنزلها اللهُ عليه ﷺ لِتُبيِّنَ للناس موضوعَه، والرسول ﷺ قد فسَّر القُرآن، ولكن عَلَى الصِّيَغ العامَّةِ والإشارات العامَّة بالقُرآن، وأمَّا التفريعات فبينها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فنقول: بيان القُرآنِ نوعانِ:

أحدهما: أنْ يُبيِّنَ الشَّيْءَ بِعَيْنِه.

والثَّاني: أن يُبيِّنَه بِوَسِيلَتِهِ وطَريقته. يعني: يقول: الطَّريق إِلَى مَعْرِفَةِ هَذَا كذا.

فتَارَةً يُبيِّن الشَّيْء بعينِه، والغالب أن ذلك فيما لا يُمْكِن إدراكُه، وتارَةً يبيِّن الشَّيْءَ بطريقته ووسيلتِهِ، يعني: يقول الطَّريقة إِلَى كَذَا هِيَ كذا، فمثلًا: بيَّنَ لنا الطَّريق إِلَى معرفةِ عددِ الصلاةِ بقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر:٧]، وبقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النِّساء:١١٣]، وبقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النِّساء:٨٠]، وبقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، وغير ذلك.

وقد نُقلت قصةٌ عن الشيخِ مُحَمَّد عَبْدُه معَ رجلٍ نَصرانيّ اعترَض عليه،

حيث قَالَ النصرانيّ: إنَّنا لا نجد فِي القُرآنِ كيف نصنعُ هَذَا الطعام؟ فدعا الشيخُ محمَّد عبده بصاحبِ المطعمِ وقال له: كيف صنعتَ هَذَا الطعامَ؟ فقال صاحبُ المطعم: فعلت كَذَا وكذا. فقال الشيخ محمد عبده: هكذا علَّمَنا القُرآن. فقال النصرانيُّ: كيف عَلَّمَكُم القُرآن؟ قَالَ: لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

فالتِّبيان فِي القُرآنِ تارَةً يُبيِّن الشَّيْءَ بِعَيْنِهِ، وتارَةً يُبين وسيلتَه الَّتِي تُظْهِرُه وتُبَيِّنه.

ومن فوائدِ الآيةِ الكريمةِ:

بيانُ عُلُوّ شأنِ القُرآنِ؛ للإشارةِ بقوله: ﴿تِلْكَ﴾، وأنه آياتٌ، والآيةُ هِيَ العَلامَةُ الخاصَّة أو المُعْجِزَة مثلًا؛ لِأَنَّ عَلامَة الشَّيْء معناها: ما يَخْتَصّ به، ولو كَانَ هَذَا الشَّيْءُ لا يختصُّ باللهِ ما صارَ آيةً له، فالآية هِيَ العَلامَةُ الخاصَّةُ الَّتِي لا تكونُ لغيرِ مَن كانتْ له، فالشَّمْسُ والقمرُ لا يمكِن لأحدٍ أنْ يأتِيَ بِمِثْلِهِمَا، والقُرآن لا يمكن لأحدٍ أنْ يأتِيَ بمثلِه.

فالعَلامَة الخاصَّة لمن كانتْ له، بحيثُ لا يستطيعُ أحدٌ أن يأتِيَ بمثلِه، سواء كانت كونيَّة أو شرعيَّة، وفِي هَذِهِ الآيةِ أن جميعَ آياتِ القُرآنِ معجِزات، ولو كانتْ آيةً واحدةً فإنها مُعْجِزةٌ، وقد تكون معجزةً بذاتها وقد تكون معجزةً بسياقِها؛ لِأَنَّ مثلًا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ [المدثر:٢١]، قد لا يستطيع أحدٌ أن يقولَ: إنها معجزةٌ، وإن كل إِنْسان ممكِن أن يأتِيَ بكلمة (ثُمَّ نَظَرَ)، لكنها مُعجزةٌ فِي سياقها وفي مَوْضِعها، فالآيَات حَقيقةً قلنا: إنها حروفٌ، ومن كلماتِ النَّاسِ، وهذه الحروفُ ليستْ معجزةً؛ لأنها من كَلامهم ويستطيعونها، لكن مكانها وسياقها وما تدلُّ عليه هَذَا هُوَ المعجز.

ومنَ المذاهب الباطلةِ: (مَذْهَب أهل الصرفة) وَهُوَ مذهب لَيْسَ بصحيحٍ؛ ومعناه أن باستطاعةِ الْإِنْسَان أن يفعلَ لولا المانعُ، يقولون: إن النَّاس مَصْرُوفون عن معارضةِ القُرآنِ، لا عاجزون، وفَرْق بين مَن يكون باستطاعته أن يفعلَ لولا المانعُ، ومن يقول: لَيْسَ باستطاعته أن يفعله، فالأخير أبلغ. ولهذا (مذهب أهل الصرفة) يقولُ العلماء: مذهبٌ باطلٌ، وإنه لَيْسَ باستطاعةِ أحدٍ أن يفعلَ أبدًا.

فَإِنْ قِيلَ: يأتي بكَلامٍ رَكيكٍ.

قلنا: بل أتى بكَلامٍ يَضْحَك منه النَّاسُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَلام بعضِ البشرِ، هل يُنقَل فِي القُرآنِ عَلَى حقيقتهِ أم حكايةً؟

فالجَواب: لَيْسَ هُوَ لفظه الحقيقيّ، ولهذا مثلًا: كَلام مُوسَى باللُّغة العِبْرِيَّة، وكَلام فِرْعَوْن باللُّغة القِبْطِيَّة، وما أشبهَ ذلك، ثم إن الكَلِمات أيضًا تختلف، يعني: نفس الآيَات تُنْقَل مرةً كَذَا ومرةً كذا، فالله يعبّر، ويكون السياق هُوَ الَّذِي يقتضي هَذَا التعبيرَ دون ذاك.



الآيــة (٣)

• ••

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣].

• ••

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَعَلَّكَ﴾ يا محمدُ ﴿بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ قاتِلُها غَمًّا من أجلِ ﴿أَلَّا يَكُونُواْ﴾ أي: أهل مكة ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ و(لعلَّ) هنا للإشفاقِ، أي: أَشْفِقْ عليها بتخفيفِ هَذَا الغَمِّ].

(لعل) للإشفاق، وتكون للتعليلِ وتكون للتَّرجِّي. فإذا تعلقتْ بمكروهٍ فهي للإشفاقِ، وإذا تعلَّقت بمحبوبٍ تكونُ للترجِّي، وإذا تعلقتْ بعلَّةٍ مِنَ العِلَلِ فهي للتعليلِ، وهي هنا للإشفاقِ، مثل أن تقول: (لعلَّ الحبيبَ هالِكٌ) فلا يمكن أن يكون قَصْدُك ترجِّيَ أنْ يَهْلَكَ حَبِيبُك، لكنَّك تُشفِق.

والله تعالى أشفقَ عَلَى نبيِّه ﷺ من أن يُهلِك نفسَه -يَقْتُلها منَ الغمِّ- بسببِ عدمِ إيمانهم، والرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يعاني من عدمِ إيمانهم، ومنَ المشقَّة الشديدةِ، ويحزن، ويضيق صدرُه ولكن الله تعالى يُسَلِّيهِ بمثل هَذِهِ الآية: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ [النمل:٧٠]، وهنا يقول: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ مهلكها ﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ ففي هَذَا دَليل عَلَى أن الْإِنْسَان الداعيَة لا ينبغي أنْ يُهْلِكَ نفسَه فِي الهَمِّ والغَمِّ لعدم قَبُولِ النَّاسِ للحقِّ؛ لِأَنَّهُ إذا أَتى بما يَجِبُ عليه انشرحَ صدرُه، وكفى. فأنت أتيت بما يجب عليك من الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكَرِ، ثم إنِ

امتثلَ النَّاس فهو نِعمةٌ عَلَى الجميعِ، وإنْ لم يَمتثِلوا فلا تَغْتَمَّ؛ لأنك إذا اغتممتَ اشتغلتَ بغيرِكَ عن نفسِكَ، وصار هَمُّكَ وَلاءِ النَّاس، وهذا يُفسِد عليك أنت عباداتِكَ الخاصَّةَ، فاشتغِلْ بنفسِكَ، وغيرك أدِّ ما أوجبَ اللهُ عليك لهم، ثم إنِ اهتدوا، وإلَّا لستَ عليهم بِمُسَيْطِر. وبهذا يَستريح الْإِنْسَان راحةً عظيمةً ويكون مُقْبِلًا عَلَى عبادتِهِ، مُحْسِنًا لها.

فإن قالَ قائلٌ: بعض النَّاس الَّذين لا يَدْعـون النَّاس لـهم حُجَّةٌ فِي ذلك، ويقولون حديثًا عن الرسول ﷺ: «إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعِ العَوَامَّ»(١).

فالجَواب: قال «عَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ» فمِن خاصَّةِ نفسِكَ أن تأمرَ بالمعروفِ وتَنهَى عنِ المنكَر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة:١٠٥]. فلا تَدَعْ نفسَكَ فِي ملاحقةِ النَّاسِ والاشتغال بهم عن دِينك.

ويُستفاد من الآية الكريمة: تَسلِيَة الرسول ﷺ لعدم إيمان قومه.



(١) أخرجه أبو داود: كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم (٤٣٤١)، والترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم (٣٠٥٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾ [المائدة:١٠٥]، رقم (٤٠١٤).

الآيــة (٤)

• ● ● •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء:٤].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ﴾ بمَعْنى المضارعِ، أي: تَظَلّ، أي: تَدُوم ﴿أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ فيؤمنون].

قوله: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ﴾ جملة شَرطيَّة، فِعل الشَّرط: (نَشَأْ) وجَوابه: (نُنَزِّلْ)، وفي الإتيانِ بهذه الصيغةِ: ﴿نَّشَأْ نُنَزِّلْ﴾ من تعظيمِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِنَفْسِهِ ما لا يَخْفَى؛ لِأَنَّهُ جعلَ الأمرَ هنا يَسيرًا عليه إذا شاءه، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بإرادته لم يفعلْ، ثم الإتيان بنونِ العظمةِ هُوَ تَعظيمٌ آخرُ أيضًا، فالله تعالى ما قَالَ: إذا شِئنا نَزَّلْنا، قَالَ: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ﴾.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ﴾ أي: عَلامَة، وهذه العَلامَة لا شكَّ أَنَّهُ لا يمكنُ لأحدٍ أنْ يأتيَ بمثلها -كما أشرنا إليه قريبًا- ثم إنها عَلامَة أيضًا ليستْ عَلَى قُدرة مَن هِيَ له، أو عَلَى انفرادِهِ بالخلقِ، ولكنها آيةٌ أيضًا عَلَى أَنَّهُم لم يُؤمِنوا، وعلى تهديدهم بالوعيدِ، ولهذا قَالَ: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ فلا تستطيع أن تمثّل هَذِهِ الآية لِأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نكّرها، فهي آيةٌ ليستْ معلومةً لنا؛ لِأَنَّ الله لم يُنْزِلْها، لكنها آيةٌ تُخْضِعُهم، ولهذا قَالَ: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ هل المُراد بِهَا السَّقْف أم المُراد بِهَا العُلُوّ؟ مُحْتَمَلٌ هَذَا وهذا، يَحتمِل أَنَّهَا بمَعْنى العلوِّ، ويَحتمِل أن المُرادَ بِها السَّقف الَّذِي هُوَ عَلَى الأرضِ. وأَيًّا كَانَ فإن إتيانَ الشَّيْءِ من فوق أبلغُ فِي التهديدِ؛ لِأَنَّ مَن فوقَكَ فقد علاكَ، ومَن علاكَ فلا طاقةَ لك به، بخِلاف مَن كَانَ بحذائِكَ فقد تفرّ وقد تناضِل، ولكن المشكِل إذا جاء الأمر من فوق.

وقوله: ﴿فَظَلَّتْ﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: (بمَعْنى المضارع، أي: تَظَلّ)، وإنَّما قال المُفسِّر: (بمَعْنى المضارع) لِأَنَّ قوله: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ﴾ مضارع، فناسبَ أن يكون ﴿فَظَلَّتْ﴾ مضارعًا، لكنه عدلَ عنه لبيانِ أَنَّهُ كالأمرِ الواقعِ، مثل قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، مع أَنَّهُ سيأتي، فالمَعْنى: فإذا نزلتْ بهم ظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ.

وقوله: ﴿أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا﴾ أي: لهذه الآية، فيَحتمِل أن تكونَ اللامُ هنا للتعدِّيَةِ، أي: خاضعينَ لها، أو للتعريف، أي: من أجلها. وقوله: ﴿خَٰضِعِينَ﴾: أي ذَلِيلِينَ. قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ولَـمَّا وُصِفَتِ الأعناقُ بالخضوعِ الَّذِي هُوَ لأربابها، جُمعتِ الصِّفَةُ منه جمعَ العُقَلَاء]، المُراد بـ(الصِّفَة منه) هنا الخبر ﴿خَٰضِعِينَ﴾، والخبر صفة فِي المَعْنى، وإن كَانَ فِي الإعرابِ لا يُسَمَّى صفةً، لكنَّه فِي المَعْنى صفةٌ. وهنا ﴿أَعْنَٰقُهُمْ﴾ المعروف الكثير فِي اللُّغة العربيَّة أن تكون (خاضعة): (أعناقهم لها خاضعة)، مثل: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ [القلم:٤٣]، لكنَّه لما كَانَ الخُضُوع من أوصافِ العُقَلاء لا من أوصافِ غيرِ العاقلِ جُمع جَمعَ عاقلٍ؛ لِأَنَّ جمع المذكر السالم يَختَصّ بالعقلاء، فجمعت جمع العاقلِ لهذا السَّببِ.

ولا يُمكِن أن نقولَ: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا﴾ (لَهَا) هِيَ الخبر، وتكون (خَاضِعِينَ)

حالًا من الضَّميرِ المُسْتَتِرِ فِي الخبر، نقول: هَذَا بعيد، لِأَنَّهُ لا مَعْنى لـ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا﴾، فإذا قال إِنْسان: ربما يكون التَّقديرُ: ناظرةً لها؛ أي: ظلتْ أعناقهم ناظرةً لها، فرَدُّ هَذَا بأنْ يُقالَ: إن المتعلّق إذا كَانَ خاصًّا فَإِنَّهُ لا يُحذَف، وإنَّما يُحذَف إذا كَانَ عامًّا، يعني: تقديره كائن أو مستقِرّ، هَذَا الَّذِي يُحذَف، أمّا إذا كَانَ خاصًّا كراكبٍ وجالسٍ، وما أشبهَ ذلك؛ فَإِنَّهُ لا يُحذَف.

فَوائِدُ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: إِثْباتُ المشيئةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿إِن نَّشَأْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إِثْباتُ القُدْرَة؛ لِقوله: ﴿نُنَزِّلْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: التهديد لِهَؤُلَاءِ المكذِّبين؛ لقوله: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فيها دليلٌ عَلَى أن الأسْبابَ مؤثِّرة؛ لِأَنَّهُ إذا نزلتِ الآيةُ خَضَعوا، وهذا دليلٌ عَلَى ثُبُوت الأسْباب، وأنها مؤثِّرةٌ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فيها دَليل عَلَى إِثْبات الحكمةِ؛ لِأَنَّ الله لم ينزلْ هَذِهِ الآيَةَ؛ لِأَنَّهُ لو أَنزَلَها لكانَ الإيمان اضطراريًّا، والإيمانُ الاضطراريُّ لا مَدْحَ فيه ولا ثناء، بل لا يَنفَع صاحبَه، فلهذا إذا آمنَ الْإِنْسَان عند ملاقاةِ الموتِ ما نَفَعَهُ، وبعد طلوعِ الشَّمْسِ من مَغْرِبها ما نَفَعَه، نعم، لا ينفع إلا إذا كَانَ الإيمانُ اختياريًّا، ولَمّا نَتَقَ اللهُ الجبلَ فوق بني إِسْرَائِيل آمنوا، ولكن هَذَا الإيمان لا شكّ أَنَّهُ ضعيفٌ؛ لِأَنَّهُ إيمان اضطراريٌّ، فمِن حِكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ لم يُنزِّل هَذِهِ الآية ليكونَ الإيمانُ عنِ اختيارٍ، لا عن اضطرارٍ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هل تَدُلُّ الآيةُ عَلَى أنَّ اللهَ فِي السَّمَاءِ؟

فالجَواب: لا، فنزول الآيةِ منَ السَّمَاءِ لا يُستدَلّ بِهِ عَلَى أن الله فوقُ.

وإن قيل: هل يدل تنكيرُ الآيةِ عَلَى عَظَمَتِها؟

قلنا: نعم، يدلُّ عَلَى عظمةِ مَن هِيَ له، وعلى تعظيمِ الآيةِ نفسِها، ولهذا تظلُّ أعناقهم لها خاضعينَ.



الآيــة (٥)

• ● ◦ ● •

﴿ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء:٥].

• ● ◦ ● •

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ قرآنٍ ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ صِفَة كاشِفَة ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾]، (ما): نافية؛ بدليل قوله: ﴿إِلَّا كَانُوا۟﴾، وهذا الاستثناء مفرّق من عُمومِ الأحوالِ، يعني: لا يكونُ لهم من أيِّ حالةٍ منَ الأحوالِ سِوَى الإِعْراضِ.

وقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾، (مِنْ) زائدةٌ إعرابًا للتَّوكيدِ، والتَّقدير: ذِكْرٌ، وقوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿مِّن ذِكْرٍ﴾ قال المُفسِّر: (قرآن)، وسُمِّيَ القُرآنُ ذِكرًا لِأَنَّ بِهِ التذكُّرَ والتَّذكير أيضًا، فهو تذكيرٌ منَ اللهِ وتذكُّر من سامِعِهِ، ولهذا سُمِّي ذِكرًا، ووُصِف القُرآنُ مرَّةً ثانيةً بأنه ذو الذِّكْر، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٩]، والقُرآن للذكرِ؛ فمرةً جعله ذِكرًا، ومرةً جعله ذا ذَكرٍ، ولا فرقَ بينهما فِي الواقع؛ لِأَنَّهُ ذِكْرٌ بِنَفْسِهِ وتذكيرٌ، ولأنه ذو ذِكرٍ، أي: ذو تذكُّر، فمَن قرأهُ وحفِظه وتدبَّره تذكّر به، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: ألا يكون كذلك القُرآنُ مُشْتَمِلًا عَلَى الذِّكر؟ أي فيه آياتٌ فيها أذكارٌ.

فالإجابة: لا، فحتى الأذكارُ المقصودُ بِهَا تذكيرُ النَّاسِ. فالمقصود بكونه ذِكرًا أَنَّهُ مُذكِّر، ويتذكر بِهِ مَن تَذَكَّرَ.

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، وفي آية أخرى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم﴾ [الأنبياء:٢]، فذِكْر الرَّحْمن هنا إشارة إِلَى أن نزولَ هَذَا القُرآنِ وإتيانه من مقتضى رحمةِ اللهِ، وأن الله تعالى سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ رَحِمَ العبادَ بهذا القُرآنِ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، أي ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ﴾ مِنَّا ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، وليس المَعْنى -كما يَفهم كثيرٌ منَ العوامّ- ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ﴾ يعني: أنك أنت الرحمة، لا، يعني: وما أرسلناك إلا لِنَرْحَمَ العِبَادَ، هَذَا هُوَ المَعْنى، وليس هُوَ نفسه رحمةً كما يقول أهل الغُلُوِّ فِي النبي ﷺ والجاهلون أيضًا.

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [صفة كاشفة]، والصِّفَة الكاشفةُ هِيَ الَّتِي تُبيِّن الواقِعَ، ولا تُقَيِّد الموصولَ؛ لِأَنَّ الصِّفات منها صفةٌ مقيِّدة تُخرِج ما سواه، ومنها صفة كاشفة تبيِّن حقيقةَ أمرِهِ.

فهنا يقول المُفسِّر: إن كلمة (مُحْدَث) صفة كاشفة؛ فكلمة: (مَا يَأْتِيهِمْ) تدل عَلَى (مُحْدَثٍ)، فلا مفهوم لها؛ لِأَنَّهُ إذا كَانَ يأتيهم وجبَ أن يكونَ محدَثًا؛ لِأَنَّ بإتيانِهِ إيَّاه صار مُحْدَثًا، ووجه ذلك ظاهرٌ أَنَّهَا صفةٌ كاشفة؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ غيرَ مُحْدَثٍ ما صحَّ أن يقول: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم﴾، إذ هُوَ آتٍ من الأَصْل.

وقوله: ﴿مُّحۡدَثٍ﴾ ظاهرُ الآيةِ الكريمةِ أن المحدَثَ هُوَ الذِّكر نفسُه، فيكون فِي الآيةِ دَلالة عَلَى أَنَّ الله تعالى يَتكَلَّم بالقُرآنِ حينَ إنزالِهِ، وأنه لَيْسَ -كما رُوي عنِ ابنِ عبَّاس- أَنَّهُ نـزل إِلَى بيتِ العِزَّة منَ اللَّوْح المحفـوظ[1]، وإِنَّما يَتكلَّمُ

(١) أخرج النسائي فِي السنن الكبرى (٧/ ٢٤٧، رقم ٧٩٣٧) عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: «فُصِلَ

الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهِ حينَ إنزالِه.

وقيل: ﴿مُّحۡدَثٍ﴾ إنزالُه، ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ﴾ إنزالُه، فلا تكون الصِّفَة هنا حقيقيةً، وإنَّما هِيَ صفةٌ سببيَّة؛ لِأَنَّ الموصوفَ فيها حقيقةً لَيْسَ الذِّكر، بل هُوَ الإنزالُ، هَذَا إذا قلنا: ﴿مُّحۡدَثٍ﴾ إنزالُه، كما إذا قلتَ: مَرَرْتُ برجلٍ قائمٌ أبوه، فـ(قائم) هَذِهِ الصِّفَة من حيثُ الإعرابُ لـ(رجل)، لكن من حيثُ المَعْنى صفةٌ لـ(أبوه)، وهذا الوصف عَلَى هَذَا الوجه يُسمّى بالنَّعْت السَّبَبِيّ.

فعلى هَذَا عَلَى القول بأن المُراد: ﴿مُّحۡدَثٍ﴾ إنزالُه يكون النَّعْت هنا سَبَبِيًّا لا حقيقيًّا، ولكن إذا دار الأمرُ بين أن يكون النَّعْتُ صفةً حقيقيَّة أو صفة سببيَّة؛ فالواجب أن يكون صفة حقيقيةً؛ لِأَنَّ الصِّفَة السَّبَبِيَّة تحتاج إِلَى تقديرٍ، وكلُّ ما يحتاج إِلَى تقديرٍ يَحتاج إِلَى دليلٍ، فهنا نقول: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ﴾ ظاهر اللفظ أن القُرآنَ نفسَه مُحْدَث، ثم إن ﴿مُّحۡدَثٍ﴾ إنزالُه لا مَعْنى لها فِي الواقعِ بعد قوله: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم﴾؛ لِأَنَّهُ لا يمكن أن يَأْتِيَهُمْ إلا وإنزالُه مُحْدَث؛ لِأَنَّ (أَتى) معناه (حدث). فعلى هَذَا نقول: الصَّوابُ أنّ المُرادَ بالمُحْدَث نفسُ الذِّكر، وليس إنزاله.

قالَ تعالى: ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ﴾، (عَنْهُ) جارٌّ ومجرورٌ متعلِّق بـ(مُعْرِضِينَ)، و(مُعْرِضِينَ) خبر (كان)، وفائدة تقديمه عليه هنا لفظيَّة ومعنويَّة؛ أمَّا اللفظيَّة فمراعاة الفواصلِ -فواصل الآيات- وأمَّا المعنويَّة فلإفادة الحَصر، كأنه يقول: ما تكون حالهم إلا الإِعْراض عنه دون غيرِه، يعني: عنه فقط وحدَهُ مُعْرِضِينَ، وهذا

= الْقُرْآنُ مِنَ الذِّكْرِ فَوُضِعَ فِي بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَجَعَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَنْزِلُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يُرَتِّلُهُ تَرْتِيلًا».

أبلغُ فِي الذمِّ ممَّا لو قَالَ: إلا كانوا مُعرِضين عنه؛ لِأَنَّهُ يَحتمِل أن يُعْرِضوا عنه وغيره، ولكنه لما قَالَ: ﴿عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ كأنَّهم لا يَتَّصِفُون بالإِعْراض إلا عنْ هَذَا الذِّكر.

وهذا الإِعْراضُ معنويٌّ وحِسِّيٌّ، يَشمَل الأمرين؛ فهم مُعْرِضون وإنْ حَضَروا بأبدانهم، ومُعْرِضون أيضًا بأبدانهم يقومون عنه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦]، فهم مُعْرِضون -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- فِي قُلُوبِهِم وأبدانهم.



الآيــة (٦)

• قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الشعراء:٦].

• • • •

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ به]، أي: بهذا الذكرِ، والجُملة مُحَقَّقَة بـ(قد)، والمَعْنى أَنَّهُ معَ وُضُوح كون هَذَا الذِّكر منَ الرَّحْمٰنِ ما انتَفَعوا به، بل كَذَّبُوا به، والتَّكذيبُ بِهِ يَعُمُّ التَّكذيبَ بِهِ رأسًا، بأنْ يقولوا: إن هَذَا القُرآنَ لَيْسَ منَ اللهِ، كما قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣]، أو التَّكذيب ببعض الآيَاتِ منه، كما لو كذّبوا بقصَّة أَحَد الرُّسُل، أو بقصةٍ قَصَّها الله تعالى عَن أحدٍ؛ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ، أو ما أشبه ذلك.

فهو إما أن يكون التَّكذيب بِهِ رأسًا فيُقال: أنت لا يُوحى إليك، وهذا القُرآن لَيْسَ بوحيٍ، أو التَّكذيب ببعضِ الآيَات الَّتِي جاءتْ بهذا، فكله تكذيبٌ، والتَّكذيبُ أبلغُ منَ الإِعْراضِ؛ لِأَنَّ الإِنْسَان قد يُعْرِض تهاونًا وتكاسلًا ولسببٍ منَ الأسْبابِ ولا يكذِّب، لكن المكذِّب أشدُّ؛ لِأَنَّ المكذِّبَ لا يُمْكِن أن يُقبِل، وكيف يُقبل عَلَى أمرٍ يَعْتَقِده كَذِبًا؟! ولهذا قَالَ: ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ ما قَالَ: فقد أعرضوا، قَالَ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ وهذا شاملٌ للإعراض والتَّكذيب.

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ بِهِ ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟﴾ عواقب ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾]، الفاء عاطفةٌ، وتفيد الترتيبَ، والسين تفيدُ التقريبَ أيضًا، والمَعْنى:

فبسببِ تكذِيبِهم فَسَيَأْتِيهِمْ عن قُرْبٍ، و﴿أَنبَٰٓؤُاْ﴾ بمَعْنى: أخبار، والأنباء: جمعُ نبَأٍ، وَهُوَ الخبرُ مِنَ الأمورِ الهامَّة، والمُراد بالخبرِ هنا العواقبُ، كما قال المُفسِّر؛ لِأَنَّ العواقبَ أخبارٌ فِي الحَقِيقَةِ، فمثلًا: فِي القُرآنِ أنَّ الله تعالى يَنْصُر رسوله ويُهْلِك المكذِّبين، هَذِهِ أنباء هِيَ فِي الحَقِيقَة ستكونُ عواقبَ: سَينتصِر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وسيُهزَم أعداؤُه، وهذه هِيَ الحَقِيقَة، وهي العاقبة.

وقوله: ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي يَسْخَرون، وتقديمُ المعمولِ فِي قوله: ﴿بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ للفائدتينِ السابقتينِ: اللفظيَّةِ والمعنويَّةِ. وقوله: ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ﴾ يَحتمل أن تكون مجرَّدة عنِ الزَّمان، أي: ما يستَهْزِئُون به، ويحتمل أن تكونَ للزَّمانِ، أي: ما كانوا فِي الماضي يستَهْزِئُون بِهِ عند وقوعِ العاقبةِ، فإنَّ استهزاءَهم بِهِ سابقٌ لهذه العاقبةِ، ولكن الظَّاهر أَنَّهَا مجرَّدة عن الزَّمانِ، وَهُوَ غالبُ ما تأتِي (كان)، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الحجر:١١]، أي: يَسْخَرون ويضْحَكون منه.

والتَّكذيب بالشَّيْءِ الحَقّ نوعٌ منْ الاستهزاء به؛ لِأَنَّهُ مثلًا إذا كَانَ مع الرسول وعدٌ ووعيد، وأمرٌ ونهيٌ، وخبر واستخبار، وإرشاد وتوبيخ، ثم كُذِّب بِهِ فمعناه أَنَّهُ يُستهزأ به، وبأحكامِه، وبأخباره، وبما تَضَمَّنَهُ مِن هَذِهِ الأمور.

فائدة: يقولون: إن زيادةَ المَبْنَى تدلُّ عَلَى زيادةِ المَعْنى، فإذا وجدتَ بالكلمةِ حروفًا زائدةً فمَعْنى ذلكَ أن هناك معانيَ زائدةً، والزيادةُ هنا لِلْمُبالَغةِ، مثل: (استكبَرَ وتكبّر)، (استكبر) أبلغ من (تكبّر)، وهنا: (استهزأ به) أبلغ من (هزئ به)، فلذلك نقول: السين والتاء هنا لِلْمُبالَغة.



الآيــة (٧)

• • ✿ • •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:٧].

• • ✿ • •

قال اللهُ تعالَى مُبيِّنًا دليلًا واضحًا علَى آياتِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾، يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ينظروا ﴿إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ أي: كثيرًا ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ نَوْعٍ حَسَنٍ]. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني: هَؤُلَاءِ المكذِّبُون. و﴿يَرَوْا﴾ يقول المُفسِّر: (ينظروا)، فجعلها من الرُّؤْيَة الحِسِّيَّة، لا من الرؤية العِلمية، ولكن نقول: إنها تَحتمِل المعنيينِ؛ الرؤية الحِسِّيَّة: إذا نظر بعينه هو، والعلميَّة: إذا علِم بذلك من غَيْرِهِ؛ لِأَنَّ هناك أشياءَ لا نَعْلَمُها مِمَّا يَنْبُتُ فِي الأرضِ، يعني: لا نراها ولكنَّنا نُخبَر بها، فالأَوْلَى أن يُقالَ: إنه شاملٌ للنظرِ بالعَيْنِ، والنظرِ بالقلبِ الَّذِي هُوَ العِلْمُ.

قال تعالى: ﴿إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا﴾ يقول المُفسِّر: (أي كثيرًا)، و(كثيرًا) هَذِهِ تفسيرٌ لـ(كم)، يعني أن (كم) هنا تكثيريَّة، المَعْنى: كثيرًا أنبتنا فيها، مثل قوله تعالَى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩]، أي: كثيرًا تَغْلِب الفئةُ القليلةُ الفئةَ الكثيرةَ.

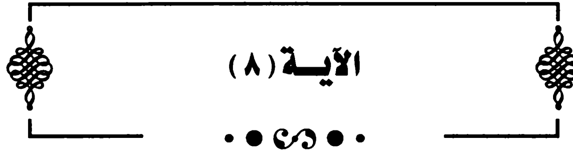
وقوله: ﴿كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أضافَ الإنباتَ إليه تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَنَّهُ هُوَ الفاعل حقيقةً، وإذا أُضيفَ الإنباتُ إِلَى المطرِ فإنَّما ذلك لِأَنَّهُ سببٌ.

وقوله: ﴿مِن كُلِّ زَوۡجٍ كَرِيمٍ﴾ أي: صِنف، والكريمُ فِي الأَصْلِ: كثيرُ البَذْل، ولكنَّه يُطلَق أحيانًا عَلَى الحسنِ، ومنه قوله ﷺ لِمُعَاذٍ: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»[1] أي: حَسَنَها، وليسَ مَعْنى كرائمها الَّتِي تُعْطي كثيرًا؛ لأنها لا تعطي البهائم، ولكن المُراد بِهَا الحسنة. فهنا الكريم نقول: الحَسَن، والزوج بمَعْنى: الصنف والنوع.

وهذه الأصنافُ والأنواعُ الحسنةُ البهيجةُ تدلُّ عَلَى قُدْرَةِ خالقها تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وعلى فَضْلِهِ وإحسانه، وعلى حِكْمَته، فانظرْ إِلَى الأرضِ وفيها هَذَا النباتُ تجده مختلفًا فِي حَجْمِه، ومختلفًا فِي لونه، ومختلفًا فِي نفعِه، ومختلفًا من جميعِ الوُجُوهِ، والأرضُ واحدةٌ والماءُ واحدٌ، بل أحيانًا تجد النوعَ الواحدَ من هَذَا النباتِ يَختلِفُ، كما إذا نظرنا إِلَى البُرِّ، فالبُرُّ نوعٌ واحدٌ بالنِّسبة للحُبُوبِ، ومعَ ذلكَ يَختلِف، وإذا نظرنا أيضًا إِلَى النخلِ وَجدناه يَختلفُ، وإذا نظرنا إِلَى البِطِّيخِ وغيرِه نجدُه مختلِفًا، ممَّا يدلُّ عَلَى كمالِ قُدرةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، كما قال الله تعالى: ﴿يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الرعد:٤]، فالماء واحدٌ، والأرضُ واحدةٌ، فتأخذ من هَذَا شيئًا تَذُوقه وإذا هُوَ مُرٌّ، وتأخذُ من هَذَا تَذُوقه وإذا هُوَ حُلوٌ، معَ أن الأرضَ واحدةٌ والماءَ واحدٌ، ولكن هَذِهِ هِيَ قُدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الَّتِي يَسْتَدِلُّ بِهَا الموفَّقون عَلَى كمال قدرته.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد فِي الفقراء حيث كانوا، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إِلَى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩).



الآيـة (٨)

• ●•● •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٨].

• ●•● •

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ دلالةً عَلَى كمالِ قُدرته تعالى ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي: فِي ذلك المَذْكُور منَ الإنباتِ، ومنَ الأنواعِ، ومن الحُسن، فتكون (آية) هنا بمَعْنى (آيات)، و(آية) يقول المُفسِّر: (دلالة عَلَى كمال قُدْرَتِهِ تعالى)، هَذَا صحيحٌ، فأبرزُ ما فيها القُدرة، لكن فِي الآيات أيضًا الدَّلَالَةُ عَلَى الحِكْمَةِ البالغةِ فِي تَنويعِ هَذِهِ الأشياءِ واختلافها؛ فَإِنَّها لحكمةٍ أرادها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فالقُدرة -مِثلما قال المُفسِّر- هِيَ أبينُ ما يكونُ فِي هَذَا النباتِ من آياتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكنَّها أيضًا آية عَلَى أُمور أُخْرَى.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قال المُفسِّر: [في عِلْمِ اللهِ]، يَقصِد (كان)، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لأنَّهم إِلَى الآن ما آمَنُوا، وليسَ معناه أَنَّهُم لم يَكُونوا مُؤمِنينَ فيما سبقَ والآن هم مؤمنونَ. فيقول المُفسِّر: [في علم الله]، ما كانوا فِي علمِ اللهِ [و(كان) قال سِيبَوَيْهِ: زائدةٌ].

وهذا إدخالٌ مِنَ المُفسِّرِ لقولٍ فِي قولٍ؛ لِأَنَّ الَّذِي يقول فِي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾: إنَّ (كان) زائدةٌ لا يقولُ: (في علمِ اللهِ)، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾

يعني: حَسَبَ الواقعِ والحالِ، أمّا الَّذِي يقولُ: (فِي علمِ اللهِ) فلا يحتاج إِلَى كونها زائدةً، ومن يقول: إن (كان) فعل ماضٍ عَلَى حقيقتها، يَحتاجُ إِلَى أنْ يقولَ: «في علم الله».

ولكنَّنا نَتَخَلَّص من هَذَا كلِّه بأن نقولَ: إن الُمراد بـ(كان) هنا مجرَّد الحَدَث، أي الدلالة عَلَى الحدثِ فقطْ، فهي مجرَّدة عنِ الزَّمانِ، وإذا كانت مجردةً عن الزَّمانِ فلا نَحْتاج إلى أنْ نقولَ: إنها زائدةٌ، ولا نَحْتاج إلى أنْ نقولَ: فِي علمِ اللهِ، نقول: إن الواقعَ أَكْثَرُهم لَيْسَ بمؤمنٍ ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ لا يَتَوَجَّه عَلَى كَلامِ الشارحِ، إلَّا أن يكون قولًا آخرَ؛ لأنك إذا قلتَ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فِي علمِ اللهِ، لا يصلح أنْ تقولَ: (كان) زائدةٌ.

ومَعْنى قوله: [و(كان) قال سِيبَوَيْهِ: زائدةٌ]، أنَّ سِيبويهِ يَرى أَنَّهَا زائدةٌ، والُمفسِّر يرى أَنَّهَا أصليَّة لكنْ باعتبارِ علمِ اللهِ، ونحن نقول: إنها أصليَّة مجرَّدة عنِ الزَّمانِ، بل للدلالةِ عَلَى الحدثِ فقطْ.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فيه دليلٌ عَلَى أنَّ بعضَهم مؤمنٌ، وَهُوَ كذلكَ؛ فإن بعضهم مؤمنٌ وآمَنَ بالفعلِ.

قال: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فلا يَنتفعُ بالآيةِ إلَّا المؤمنُ، فإذا لم ينتفعْ بِهَا أحدٌ ما صارتْ بالنِّسبةِ إليه آيةً، ولهذا قيَّدها بقوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: لا يَنتفعون بها.



الآيــة (٩)

••○••

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:٩].

••○••

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ الربوبيَّة هنا خاصَّة؛ لِأَنَّ الله تعالى ربُّ النبيِّ ﷺ وغيرِه، لكنَّه للعناية بِهِ ﷺ وبيان أَنَّهُ لن يَخْذُلَهُ معَ هَذَا التَّكذيبِ، بل لا بدَّ أَنْ يَتَوَلَّاه بربوبيَّته وعنايته الخاصَّة.

وقوله: ﴿لَهُوَ﴾ اللام للتَّوكيدِ، قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ [﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: ذو العِزَّةِ يَنْتَقِمُ مِنَ الكافرينَ، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ يَرْحَم المُؤْمِنينَ]، والعِزَّة: بمَعْنى الغَلَبَةِ، ويُقال: عزَّ بِمَعْنَى: غَلَبَ وقَهَرَ، وقد قالوا: إنَّ العِزَّةَ تَنقَسِم إِلَى ثلاثةِ أقسامٍ: عِزة القَدْر، وعِزة القَهْر، وعِزَّة الامتناعِ.

فمَعْنى عِزَّة القَدْر: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عزيزٌ لا يَبْلُغُ أحدٌ قَدْرَهُ.

وعزَّة القهر: عزيزٌ لا يُقهَر، بل هُوَ الغالبُ.

وعزَّة الامتناع أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُمْتَنِعٌ عليه النقصُ فِي أيِّ وجهٍ مِنَ الوُجُوهِ، يعني: عبارة عن القوَّة، ومنه: الأرض العَزاز، يعني الصُّلبة القويَّة.

على كلِّ حالٍ، العِزَّة بجميعِ أنواعها هَذِهِ الثلاثة كاملةٌ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ومن عِزَّتِهِ أَخْذُ المكذبينَ، ولهذا قال المُفسِّر: [يَنتقم من الكافرينَ]، وهذا يعود -من الأنواع الثلاثة- إِلَى عِزَّة القَهر.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ يَرْحَم المُؤْمنينَ]، ولو أنّ المُفسِّرَ أبقاها عَلَى عُمُومِها لكان أَولى، لكنه لما قالَ الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]، أخذ المُفسِّر يُقيِّد كلمةَ الرَّحيمِ بالمُؤمنينَ، ولكنَّه يَنبغي أنْ يكونَ عامًّا؛ لِأَنَّ عِزَّته لا تَقتضي انتقامَه، بل قدْ يَمنع الانتقامُ هَذِهِ الرحمةَ الَّتِي تخصّص بها.

فالجمعُ هنا بين هاتينِ الصفتينِ العِزَّة والرحمةِ للتناسُب البالغِ؛ لِأَنَّ مِنِ اجتماعهما يحصُل الكمالُ، فهو بعِزَّتِهِ ذو رحمةٍ؛ فلو قارنّا بين العزّةِ والرحمةِ فِي صفاتِ المخلوقينَ، لوجدنا أنَّهما لا يجتمعانِ فِي الغالبِ، وأن العزيزَ الَّذِي يَرى نفسَه قاهرًا فِي الغالبِ لا تكونُ فيه رحمةٌ، فاجتماعُ الصفتينِ يَحْصُلُ بهما كمالٌ عَلَى الكمالِ: عِزَّة ورحمة، ثم اجتماعهما كمالٌ، فيكون معَ العِزَّة رحيمًا لا يؤاخِذ ولا يَنتقم، ولهذا لم يُعَجِّلِ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العُقوبةَ للظالمِ، ولكنَّه بحِكْمَتِه يُمْلِي له حَتَّى إذا أخذَه لم يُفْلِتْهُ.

وفي هَذِهِ الآيةِ خَتَمَ اللهُ تعالى بِعِزَّتِهِ ورحمته؛ لِيَجْمَعَ بينَ الترغيبِ والترهيبِ؛ الترهيب بالعِزَّة، والترغيب بالرحمةِ.



الآيتان (١٠، ١١)

• • ۞ • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:١٠-١١].

• • ۞ • •

يُكْثِرُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي القُرآنِ الكريمِ مِن ذِكْرِ قِصَّة مُوسَى، وما جَرَى له معَ فِرْعَوْن ومعَ بني إِسْرَائِيلَ؛ وذلك ليستعدَّ النبيُّ ﷺ لليَهُودِ الَّذين فِي المدينةِ؛ حَتَّى يَعرِفَ مِن أَمْرِهِم ما لم يكنْ معروفًا عندَه، ولهذا كَانَ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا بَعَثَ أحدًا أَخبره بكَلامِ اليَهودِ له، ثم قال لمعاذٍ: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ»(١)؛ لِيَسْتَعِدَّ لهم، وقد كرَّر الله تعالى قِصّة مُوسَى مختصرةً ومبسوطةً لهذا الغرضِ؛ لِيُبَيِّنَ حالَ هَؤُلَاءِ اليَهودِ الَّذين هم من سكَّان دار الهِجرة.

وقد بدأ الله تعالى بِذِكر قصصِ الأَنْبياءِ مقدِّمًا ذِكْرَ قصة مُوسَى؛ لِطُولها ولأهميتها بالنِّسبةِ لنبيِّه ﷺ فقال: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ (إذ) هَذِهِ ظرفٌ، عاملُها محذوفٌ تقديرُه ما قَدَّرَهُ المُفسِّر: [﴿وَ﴾ اذْكُرْ يا محمدُ لقومِكَ ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ ليلةَ رَأَى النارَ والشَّجرةَ...]، إِلَى آخِرِهِ.

قال: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ ناداه: أي: دعاهُ بصوتٍ مرتفِعٍ؛ لِأَنَّ النداءَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد فِي الفقراء حيث كانوا، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إِلَى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩).

لا يكونُ إلّا بصوتٍ عالٍ، قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم:٥٢]، فالنداءُ يكونُ للبعيدِ، ويَلْزَم أن يكونَ بصوتٍ عالٍ، وأمّا المناجاةُ فهي للقريبِ.

قال: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ هُوَ ابنُ عِمران عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقوله: ﴿رَبُّكَ﴾ الإضافةُ هنا للتخصيصِ، فهي ربوبيَّة خاصَّة؛ لِأَنَّ ربوبيَّةَ اللهِ نوعانِ، كما أنَّ عُبُودِيَّته نوعانِ.

قال: ﴿أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، (أن) تفسيريَّة؛ لأنها سُبقت بمَعْنى القولِ دونَ حُروفه، و(أنْ) إذا سُبقت بمَعْنى القولِ دونَ حروفِه تُسَمَّى تفسيريَّة، ومثلها ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ [المؤمنون:٢٧]؛ لِأَنَّ الوحيَ فيه مَعْنى القولِ دونَ حروفِه، فيُعْرِبُونَ مثلَ هَذِهِ بأنها تفسيريَّة. ولهذا قال المفسِّر: [أي بأنِ ﴿ٱئۡتِ﴾].

وقول المُفسِّر: [ليلة رأى النارَ والشَّجرةَ]، فكونه (ليلة رأى النارَ) صحيحٌ، قال تعالى: ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ [طه:١٠]، وكذلك الشَّجرةُ، ولكن التزام أَنَّهُ رآها فيه نظرٌ؛ لِأَنَّ سُورَة القَصص لا تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ رآها، قال تعالى: ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [القَصص:٢٩-٣٠]، فلا يَتبَيَّن منَ القُرآن أَنَّهُ رأى الشَّجرةَ، إنَّما يَتبيَّن أن الصوتَ سَمِعَهُ مِن قِبَل الشَّجرةِ.

قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ رسولًا]؛ لِأَنَّهُ لَيسَ المُراد أَنَّهُ يأتيهم فقطْ، بل يأتيهم بالرِّسالَة، و(القَوْم): الجماعة، و(الظَّالِمِينَ) سيأتي ذِكر المُفسِّر لمَعْنى الظُّلم.

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ معه، ظَلَمُوا أنفسهم بالكفرِ باللهِ وبني إِسْرَائِيل باستعبادهم]، فهم منَ الظالمينَ المعتدِين الناقصينَ حق الله وحق العباد، أما حقُّ الله فإنهم كَفَروا بِهِ وأشركوا به، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وأمَّا حَقُّ الْإِنْسَان فقدِ استعبدوا بني إِسْرَائِيلَ، وصاروا يذبّحون أبناءَهُمْ، ويَسْتَحْيُونَ نِساءَهم.

وفي قوله: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ تخصيص بعد تعميمٍ، أو بيانٌ بعد إجمالٍ؛ لِأَنَّ ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مُبْهَم، لكن: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ مُبيَّن.

وفائدة الإبهام ثم البيان بعده التَّأكيدُ من وجهٍ، وبيانُ الاهتمامِ بِهِ من وجهٍ آخَرَ، وتلقّي السمعِ له بالقَبولِ من وجهٍ ثالثٍ.

أما التَّأكيد فلأنه كُرر مرتينِ: مرَّةً مُجْمَلًا، ومرَّةً مُبيَّنًا، وهذا التَّأكيد، وأما الاهتمام بِهِ فلأنَّ ذِكْرَه مؤكدًا دليلٌ عَلَى أَنَّهُ مهتمٌّ به، وأمَّا تلقِّي السمع له بالقبولِ فلأنه إذا جاء اللفظُ له مُجْمَلًا بَقِيَ الذهنُ يدورُ: ما هذا؟ ومَن هَؤُلَاءِ مثلًا؟ فإذا أتى البيانُ إليه بعد ذلك أَتَى إِلَى ذِهْن مُتَشَوِّق حَرِيص عَلَى معرفةِ هَذَا المبهَم، فيَتَلَقَّاه بالقَبول أكثر؛ لِأَنَّهُ مُتَشَوِّقٌ إليه، ومُتَطَلِّعٌ إليه، فهذه فوائدُ البيانِ بعدَ الإجمالِ.

وفي وَصْفِهِمْ بالظُّلمِ قبلَ بيانهم -أي فِي هَذِهِ الآية- إشارة إِلَى عِظَم أَمْرِهم، حيث قدّم الوصفَ عَلَى الموصوفِ فِي الحَقِيقَة؛ لِأَنَّهُ عِندَما يُقال: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يَتَصَوَّر الْإِنْسَان ويَعْرِف أَنَّهُم ظَلَمَةٌ، فإذا جاء بيانُهم جاء بعدَ الحُكْمِ عليهم بهذا الوصفِ، مِمَّا يدلُّ عَلَى قُبح ما هم عليه من هَذَا الأمرِ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَلَا﴾ الهمزة للاستفهامِ الإنكاريِّ ﴿يَتَّقُونَ﴾ اللهَ بِطَاعَتِهِ فيوحّدونه]. قوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ يَحتمل أَنَّهُ من المرسَل به، يعني: يقول لهم ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾، ويَحْتَمِل أَنَّهُ من كَلامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لِمُوسَى، لِيُبَيِّنَ له حالهم، وأَنَّهم يَتَجَنَّبُون التَّقْوَى، وأن الأليقَ بهم أن يَتَّقُوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: [﴿أَلَا﴾ الهمزة للاستفهامِ الإنكاريِّ]، مُقْتَضَى كَلامه أن يقولَ: الهمزةُ للاستفهامِ، و(لا) نافية، يعني: أَهُم لا يَتَّقُون، وأنه لا يَصِحّ أَنْ يَجْعَلَها للعرْض، نحو (ألا تَنْزِل عندنا فتُصِيبَ خيرًا)، ويكون المقصود بقوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ عرَض التَّقْوى عليهم.

فعلى كَلام المُفسِّر تُعْرَب الهمزةُ وَحْدَها، و(لا) وحدها، فتكون الهمزةُ للاستفهامِ، و(لا) نافيةً.

وعلى الاحتمال الَّذِي ذَكَرنا أن تكون للعرض، يعني: اعْرِضْ عليهم التَّقْوى مُلْزِمًا لهم بها، وسبقَ أن المُرادَ بالتَّقْوَى اتِّخاذ الوقايةِ مِن عذابِ اللهِ.

فوائد الآيتينِ الكريمتينِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: إِثْبات النداء لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ﴾، فيكون كَلامه بصوتٍ عَلَى هذا، وأنه بحرفٍ؛ قال تعالى: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ كلها حروف.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفي هَذَا دليلٌ عَلَى فضلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى الخَلْق؛ لإرسالِهِ الرُّسُلَ، فإرسال الرُّسُلِ دليلٌ عَلَى فضلِ اللهِ عَلَى الخلقِ، وعنايته بهم؛ لِأَنَّ الخلقَ مَهما أُوتوا من ذَكاءٍ لا يُمْكِنُهُم أَنْ يُدْرِكوا ما يجبُ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى التفصيلِ.

والعاقلُ يُدْرِكُ ما يجبُ لله عَلَى وجهِ الإتمامِ، فإدراكه أن له الكمالَ المطلَق، وأنه المستحِقّ العبادةِ، لكن عَلَى وجهِ التفصيلِ، لا يمكن إلا عن طريق الرُّسُل، ولهذا قَالَ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النِّساء:١٦٥].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفي هَذَا دليلٌ عَلَى سُوء حالِ فِرْعَوْن وقومِه؛ لقوله: ﴿أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وفيه دليلٌ عَلَى أَنَّهُ لا بأسَ فِي الإجمالِ فِي الكَلامِ، بشرطِ أن يأتيَ التفصيلُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾. وفائدةُ الإجمالِ ثم التفصيل بعده الاهتمامُ، فيكون مُتَشَوِّقًا ومُتَطَلِّعًا إذا كَانَ هَذَا الْمُجْمَل سيأتيهم وَهُوَ عَلَى شَفَقَةٍ.



الآية (١٢)

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [الشعراء:١٢].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ مُوسَى ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾]، هَذَا جَوابُ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ للهِ مُبَيِّنًا له حالَه حَتَّى يكون الأمرُ لَدَى مُوسَى واضحًا، فينشط ويقوَى، وليس المُراد بهذا معارضة أَمْرِ اللهِ؛ فإن مُوسَى لن يعارضَ أمرَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ولكن يريدُ أنْ يَستبينَ الأمرَ؛ ماذا تكون حالُهُ مع فِرْعَوْن وقدِ اتَّصف بهذه الصِّفة، وهي الخوفُ، قَالَ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، و(أن) هَذِهِ مصدريَّة، يعني: أخاف تَكْذِيبَهم إِيَّايَ، والمُراد بالخوفِ هنا أَنَّهُ يَتَوَقَّع ذلك: ﴿أَن يُكَذِّبُونِ﴾؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَعْلَم منهم هَذَا الأمرَ، وعُتُوَّهُم، واستكبارَهم، والتزامَهُمْ بعبادةِ فِرْعَوْن.

الآيـة (١٣)

• • ● • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ [الشعراء:١٣].

• • ● • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ مِن تَكْذِيبِهِم لي]، قوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ فيه إشكالٌ، حيث رُفع معَ أَنَّهُ يلي المنصوب: ﴿أَن يُكَذِّبُونِ﴾؛ لِأَنَّ (أَنْ) هَذِهِ مصدريَّة، و(يُكَذِّبُونِ) منصوبة بِهَا بحذفِ النونِ، والنونُ المَوْجودةُ للوقايةِ، وأصلها: يكذبونني، ثم حُذِفت النون الأُولى للناصبِ، وحُذفت الياء للتخفيفِ، لكن قَالَ: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ ولم يقلْ: «ويضيقَ صدري».

والجَواب أنّ (الواوَ) عاطفةٌ عَلَى قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، يقول: أنا أخاف أن يُكذِّبوني وأخافُ أن يضيقَ صدري ولا يَنطلِق لِساني بتكذيبهم.

و﴿أَن يُكَذِّبُونِ﴾ لا تعدو أن تكونَ مفعولًا به، مثل: ضربتُ زيدًا وأكرمتُه.

قال تعالى: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾، وضِيق الصَّدرِ: عدمُ انشِرَاحِهِ وانبساطِهِ، وهذا أمرٌ فِطريٌّ أن الْإِنْسَان إذا خُولِفَ فسوف يَضيق صدرُه، كما كَانَ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَضيق صدرُه، ولكن الله تعالى يُسَلّي رُسُلَه؛ لِئَلَّا تَضيقَ صُدُورُهم، ولا يَحْزَنُوا عَلَى هَؤُلَاءِ المكذِّبين؛ لِأَنَّ لهم يومًا يحاسبهم الله تعالى فيه والرُّسُل يُبَلِّغون فقطْ.

ويقولون: إنَّ ضِيق الصَّدرِ من أسْبابِ حدوثِ الضغطِ، ولهذا يَنصحون المصابينَ بالضغطِ بأن يَتجَنَّبُوا الغضبَ، وما يحزنهم ويضيق صُدُورهم، فهذا فِي الحَقِيقَةِ هُوَ الواقعُ؛ لِأَنَّ الضغطَ يَستلزمُ ضِيقَ الصَّدرِ، وضيق التنفُّس، وضيق الأرض عَلَى الْإِنْسَانِ، فإذا عرّض نفسَه لِـمَا يفعل بِهِ ذلك ازدادَ عليه الضغطُ، فإذا عوّد نفسَه الانبساطَ والانشراحَ وعدمَ الاكتراثِ فِي النوازلِ؛ فَإِنَّهُ يحصلُ خيرٌ كثيرٌ، ويبقى دائمًا فِي سرورٍ، لا سيَّما إذا كَانَ مُحْتَسِبًا ومؤمنًا بالقَدَرِ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ بأداء الرِّسالَةِ للعُقدةِ الَّتِي فيه]، وهذه العقدة معنويَّة وليستْ حِسِّيَّة.

فَإِنْ قِيلَ: هَذِهِ العقدة لِأَنَّهُ أخذَ الجمرةَ وَهُوَ صغيرٌ.

قلنا: لا، قِصَّة أَخْذ الجَمرة باطلةٌ، فقصة إِسْرَائِيلَ ليستْ مقبولةً، لكن يَحتمِل أنَّ العُقْدَةَ مَعنويَّة، بمَعْنى أَنَّهُ لا يَستطيعُ التَّعبير بانطلاقٍ وفصاحةٍ. وقوله: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [طه:٢٧-٢٨]، وقول فِرْعَوْن فِي وصفه ﴿ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥٢]، يَحتمل -وهو الأقرب- أن تكونَ فيه لُثْغَة؛ إمَّا سُرعة القول بِنُطْق الحروفِ، بحيث تُتابع الحروف حَتَّى لا تَفْهَم؛ لِأَنَّ منَ النَّاس من يكونُ كذلك، لَيْسَ فِي لِسانِهِ عُقْدَة حِسِّيَّة، لكن تَتَرَادَف الحروفُ فِي كَلامِهِ بحيثُ لا تدري ما يقول.

أو لِأَنَّهُ فيه لُثْغَة لا تَتبَيَّن الحروف من كَلامِه، وكلُّ هَذَا مُحْتَمَل، وهذه العُقْدَة ليستْ كما ذكر من الجمرةِ، وأن لها أثرًا حِسِّيًّا يَمْنَعُه منَ الكَلامِ، بل هِيَ أثرٌ خَلْقِيّ، يعني بأصلِ الخِلقة.

ويَحتمِل أَنَّهَا جَهْلُ البَيَانِ، يعني: لَيْسَ فصيحًا فِي خِطابه وبيانِه وإقناعِه، لكن الأَوَّل أَولى، وأنها عُقدة معنويَّة، وذلك بصفةِ الكَلامِ، بحيثُ لا تَتبَيَّن الحروفُ فِي كَلامِهِ؛ إما لِعَجلَتِهِ، وإما لِلُثْغَتِهِ، أو غير ذلك.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ﴾ أخي ﴿هَٰرُونَ﴾ معي]، أرسل إليه يعني: ابعثْ له بالرِّسالَةِ؛ حَتَّى يكونَ مُعِينًا ووزيرًا له، وقد قيلَ: إنه لا يوجدُ أحدٌ أشدّ مِنّةً عَلَى أخيه من مُوسَى عَلَى أخيه هارونَ؛ لِأَنَّهُ طلبَ أَن يكونَ أخوه فِي المقامِ الأعلى من مَقاماتِ بني آدمَ الَّذين أنعمَ اللهُ عليهم، وهي الرِّسالَةُ.

فَوَائِدُ الآيَةِ الكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فِي الآيةِ دليلٌ عَلَى جوازِ بيانِ الْإِنْسَانِ حالَه إذا لم يَقْصِدْ بِهِ الشكوَى؛ لقولِهِ: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾، فإنَّ هَذَا وصفٌ له فِي الضعفِ، وعدم التحمُّل نفسيًّا بضِيق الصَّدرِ، وعدم الكَلام المتقَن؛ لكونِهِ لا يَنطلِق لِسانُه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِي الآيةِ دليلٌ عَلَى جوازِ ذِكْر الوسائلِ الَّتِي تَسْتَوْجِب القَبولَ فِي الدُّعاء؛ حيث ذكر معلوماتٍ كثيرةً بكونِه يَضيق صدرُه ولا يَنطلِق لسانُه، وهذا من باب التوسُّل الزائد، فذِكر حالِه من الوسائلِ الَّتِي تَستوجِب قَبُولَ دُعائِهِ.



الآية (١٤)

• • ❊ • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء:١٤].

• • ❊ • •

ذكر الرِّسالَة حيث قَالَ: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾ ثمّ بَيَّن مانعًا آخرَ غيرَ التَّكذيبِ، فقال: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ﴾، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بقتلِ القِبْطِيِّ منهم ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾]، هَذَا خوفٌ آخرُ ناتجٌ عن معاملتِه معهم، والأَوَّل خوفٌ يَتَعَلَّق بالرِّسالَةِ، فهذا خوفٌ متعلِّق بالمعاملةِ معهم، ولهذا فِي الأول قَالَ: ﴿أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، ما قَالَ: أن يقتلونِ، ولا كَانَ يتصوَّر أن يُقتل إذا جاء بالرِّسالَة، ولهذا قال فِي الثَّاني: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ بأيِّ شيْءٍ؟ مثلما قال المُفسِّر: [بقتل القِبطيِّ منهم]، وقصتُه مشهورةٌ فِي سُورَة القَصَص.

حيث إنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كَانَ رجلًا قويًّا وشديدًا، فخرج باكرًا فوجدَ فِي المدينة رجلينِ يَقتتلانِ؛ أحدهما من شِيعته من بني إِسْرَائِيلَ، والثَّاني من عدوِّه: الأقباط، فاستنجدَ بِهِ الإِسْرَائِيليُّ، فوكزَ مُوسَى القبطيَّ حَتَّى ماتَ، وفِي اليوم الثَّاني خرج فوجد صاحبَه الإِسْرَائِيليّ معَ رجلٍ آخرَ، وقال له مُوسَى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القَصَص:١٨]، وأراد أن يَبْطِشَ بالعدوِّ، فظنَّ الإِسْرَائِيليُّ أَنَّهُ يريدُ أنْ يَبْطِشَ به؛ لِأَنَّهُ وَبَّخَهُ وقال: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، فلمَّا تهيَّأَ للبَطْشِ ظنَّ أَنَّهُ سَيَبْطِش به، فقال الإِسْرَائِيليُّ: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ [القَصَص:١٨-١٩]، -اللهُ يَكْفِيكَ شرَّ مَن تُحْسِن

إليه!- فلمّا قال هكذا انتبهَ له القِبْطِيُّ، فدلّ عَلَى مُوسَى بهذا السَّبَبِ، فخرج مُوسَى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خائفًا يَتَرَقَّب ولجَأَ إِلَى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القَصَص:٢١]، فنجّاه الله ومَنَّ عليه بالرِّسالَةِ.

قال تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ أي: يقتلوني به، وحُذِفت الياء للتخفيفِ، والنون من الفعلِ حُذفت للنصبِ.

وفي الآيةِ دليلٌ عَلَى جوازِ الخوفِ الطبيعيّ، وأنه لَيْسَ بشِرْكٍ، وقد ذكر الخوف مرتينِ؛ قال: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، وقال: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾، والمقصود الخوفُ الثَّاني، والمُراد بالأوَّل مُلازِمُه وَهُوَ التوقُّع، يعني يتوقع هذا، فقوله: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ لَيْسَ معناه أَنَّهُ يخافُ خوفَ الذُّعْر الَّذِي يقع فِي النَّفسِ، بل المَعْنى التوقُّع.



الآية (١٥)

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:١٥].

• • • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ تعالى: ﴿كَلَّا﴾ لا يَقْتُلُونَكَ ﴿فَاذْهَبَا﴾ أي: أنت وأخوك، ففيه تغليبُ الحاضرِ عَلَى الغائبِ]، وفيه أيضًا أن الله تعالى أجابَ دعاءَ مُوسَى، كما قال فِي سُورة طه: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:٣٦]، أجابه وأرسلَ إِلَى هارونَ بالرِّسالَةِ.

قال: ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ الباء للمصاحبةِ، أي مصاحبيْن بآياتِ اللهِ، أي: العلامات الخاصَّة به، الَّتِي تدل عليه وحدَه دون غيره، والآيات الَّتِي ذهب بِهَا هِيَ الوحيُ، والثَّانيةُ قَلْبُ العصا، والثالثة اليَدُ.

هَذِهِ الآيَاتُ الَّتِي كانتْ عندَ الوحيِ إليه ثم تلاها بعدَ ذلكَ تسعُ آياتٍ كما هُوَ واضحٌ. وهذه الآيات ثلاثٌ: منها آيةٌ مَعنويَّة، وآيتانِ حِسِّيَّتَانِ مناسبتانِ للسحرةِ؛ لِأَنَّ انقلابَ العصا حَيَّةً يُشْبِه السِّحرَ وليسَ بسِحر، لِأَنَّ هَذَا حقيقة، والسِّحر خيالٌ، وأيضًا كون اليد إذا أَدخلها فِي جَيْبِهِ تَخْرُج بيضاءَ من غير سُوء، يعني: من غير ضررٍ ونقصٍ، هَذَا أيضًا يشبه السِّحرَ، ولكنه لَيْسَ بسحرٍ، ففيه آيةٌ من آياتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المعجِزة لهَؤُلَاءِ أنْ يأتوا بِمِثْلِها.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ ما تقولونَ وما يُقال لكم، أُجْرِيَ

مجرَى الجماعةِ]. قَالَ: إنّ الضَّمير لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بلفظ الغلبةِ، مع أَنَّهُ فِي سُورَة طه قَالَ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، لكن هنا ذكر ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾، وكانت المُبالَغة حصلتْ بانضمامِ الأمرينِ: السمع والرُّؤية، وهنا ما ذكر إلا الاستماع فقطْ، ولهذا جاء فِي صورةِ العَظَمَةِ بالنِّسبةِ للمبتدأ، فقال: ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ ولم يقلْ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ كما قال فِي سُورَة طه، يقول المُفسِّر: [أجري مجرى الجماعة].

فالجَواب عن هَذَا ما قال المُفسِّر: [أجري الاثنان مجرى الجماعة]، وإذا قلنا: إن أقلَّ الجمعِ اثنانِ نقول: هَذَا وإن كَانَ بلفظِ الجمعِ لكنَّه دالٌّ عَلَى الاثنينِ باعتبارِ الوضعِ اللُّغويّ، فلا حاجةَ إِلَى التعيينِ.

وقيل: الجمعُ باعتبارِ ما مع مُوسَى وهارونَ من الآياتِ؛ كأنَّهم ثلاثٌ، وإن كانت الآيَات ليست آدميّة، ولكنها مؤيِّدة؛ لِأَنَّ التأييدَ يكون بالأدلَّة وبقوَّة الداعي والمستدلّ.

ويحتمل أيضًا أَنَّهُ جمع باعتبار أن مُوسَى وهارونَ سيكون لهما قومٌ وسيكونُ اجتماع مُوسَى وهارون بِقَوْمِهما.

فَوائِدُ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: إِثْبات المَعِيَّة للهِ عَزَّوَجَلَّ، والمعيَّة فِي الحَقِيقَة معناها: المصاحَبَةُ المُطْلَقَة، ولكنها فِي كلِّ شيْءٍ بِحَسَبِهِ، فنقول مثلًا: سَقَاني لبنًا معَه ماءٌ، فهذه تَقتضي الامتزاجَ والاختلاطَ.

فتفسيرُ مَعِيَّة الله عَزَّوَجَلَّ بالإحاطةِ عِلمًا وقدرةً وسلطانًا وبصرًا وسمعًا، وغير ذلك من معاني الربوبيَّة، لَيْسَ تفسيرها بذلك من بابِ التأويلِ، بل من بابِ ذِكر الحَقِيقَةِ؛ لأنها حَسَب ما تُضاف إليه.

إذن إذا كانت من بابِ ذكر الحَقِيقَةِ فيَمتنِع أنْ تكونَ مَعِيَّة الله مشاركةً فِي المكانِ؛ لِأَنَّهُ لو أَثبتنا أَنَّهَا مشاركة فِي المكانِ، لَأَبْطَلْنَا أَنَّهُ عالٍ فِي السَّمَاءِ؛ لِأَنَّهُ لا يمكنُ أن يشاركَ فِي المكان فِي الأرضِ وَهُوَ عالٍ فِي السَّمَاءِ، لهذا مَن زَعَمَ أن الإمامَ أحمدَ تأوّل وأثبت عنه رواية بجوازِ التأويلِ فِي الصِّفاتِ استنادًا إِلَى تفسيره المعيَّة بالعلم، فقد أخطأ خطأً بيّنًا؛ لِأَنَّ تفسيرَ الإمامِ أحمدَ للمعيَّة فِي العلمِ أراد بِهِ الردَّ عَلَى الجَهْمِيَّة، الَّذين يقولون: إنه معنا بذاك، فيقول: إن دخلت الحُشّ فالله فِي الحُشّ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- وإن دخلت المسجدَ فالله فِي المسجدِ، وإن دخلت البيتَ فاللهُ فِي البيتِ.

وهكذا يَصِفون الله تعالى بما لا يَلِيق أن يُوصَف بِهِ بناءً عَلَى ظاهرِ الآيةِ الَّتِي لم يَفْهَمُوا حقيقةَ معناها، فهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسَّرها بالعلمِ؛ ردًّا عَلَى هَؤُلَاءِ، وتفسيرُه لها بالعلمِ لَيْسَ إخراجًا لها عن معناها، لكنَّه تفسيرٌ لها ببعضِ لَوَازِمِها؛ لِأَنَّ من لازِمِ المعيَّة أن يكون عالمًا بالأمرِ.

ولا تَقْتَرِنُ المعيَّة بالمشاركةِ بالمكانِ؛ لِأَنَّ اللهَ مُحيطٌ بكلِّ شيْءٍ سمعًا وبصرًا، ولهذا سَمِعَ قولَ المُجَادِلَة الَّتِي تُجادِلُ الرسولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فِي زوجها، وتقول عائشة: «لقد جاءت المجادلة إِلَى النبي ﷺ، وأنا فِي ناحيةِ البيتِ، تشكو زوجها، وما أسمعُ ما تقولُ»[1].

وفرقٌ بينَ قولنا: إنَّ المعيَّة (تَقتضي) المشاركة فِي المكانِ أو (تَستلزِم)، فإذا قلنا: تقتضي، فمعناه أن هَذَا من معانيها، وإذا قلنا: تَستلزم، فمعناه أَنَّهُ لازِم، فهذا هُوَ الفرق.

---

(١) أخرجه النسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٣٤٦٠)، وابن ماجه: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٢٠٦٣).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفي هَذِهِ الآيةِ دليلٌ عَلَى مبدأ تشجيعِ الْإِنْسَانِ فِي مهمتِه؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ فهنا التشجيعُ من دون ثلاثةٍ: إبطال الخوف بقوله: ﴿كَلَّا﴾، واستصحاب الدَّليلِ بقوله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾، والعلم بالمدافع وَهُوَ قوله: ﴿مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾، فكلُّ شيْءٍ يحتاج إِلَى تشجيعٍ، فينبغي للإِنْسانِ أن يظهرَ تشجيعَ صاحبِه؛ حَتَّى يَنْشَطَ، ويؤديَ الرِّسالَةَ عَلَى الوجهِ الأكملِ.



الآية (١٦)

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٦].

قال: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾، وقال قبلها: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء:١٠-١١]، فدلَّ ذلك عَلَى أنَّ القومَ والآلَ إذا أُضيفت إِلَى الشخصِ فإِنَّهُ يدخلُ معَ مَن أُضِيفَ لهم، فقوله: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]، لا يدلُّ عَلَى نجاةِ فِرْعَوْن؛ لقولِه: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود:٩٨]، فهو أَوَّلُهم، وهنا أيضًا ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ثم قَالَ: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾ ممَّا يدلُّ عَلَى أن القومَ إذا أُضيفت فأوَّل ما يدخل فيها مَن أُضيفت له، ما لم يَمْنَعْ مِن ذلك مانعٌ حِسّيّ كمَوْتِهِ مثلًا، فإذا مات لم تَعُدْ توجد فائدة، لكن إذا كَانَ موْجودًا فهو أوَّل مَن يدخل فِي قومه.

قال تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ولم يُبيِّنِ اللهُ تعالى صفةَ القولِ، بل بَيَّنَ هنا المَقُولَ، لكنَّه بيَّن فِي آية فِي سُورَة طه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤]، فأمر مُوسَى وهارون بأنْ يقولا: إنهما رسول من اللهِ، وذلك بلهجةٍ ليِّنةٍ لا بِلهجةٍ قاسيةٍ؛ لِأَنَّ القاسيَ إذا قُوبِلَ بلهجةٍ قاسيةٍ قَسَا أكثرَ، فإذا قُوبلَ بلهجةٍ ليِّنةٍ اجتمع ليّن وقاسٍ، فلا يحصل الصدامُ والاصطدامُ بينهما، وهذا منَ الحكمةِ فِي الدعوةِ، أمَّا الْإِنْسَان إذا كَانَ عاتيًا جبارًا فلا ينبغي أن يُقابَلَ

بالعُتُوِّ والجَبروتِ؛ وذلك لِأَنَّهُ لا يزيد الأمر إلا شدَّة، فيقابل باللين حَتَّى تقوم عليه الحُجَّة.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا﴾ كُلًّا مِنَّا ﴿رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾]، قدّر المُفسِّرُ (كلًّا مِنّا) لأجل التناسُبِ مع المبتدأِ الَّذِي هُوَ اسْم (إن)، والخبر الَّذِي هُوَ رسول: ﴿إِنَّا رَسُولُ﴾، وفي آيةٍ أُخرى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه:٤٧]، هكذا بالتثنيةِ، وهنا بالإفرادِ، فخرّج المُفسِّرُ الآيَةَ عَلَى أنّ المَعْنى: كلّ واحد منّا، كما فِي قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤]، أي: اجعل كلَّ واحدٍ منهم. هَذَا أحدُ الوجوهِ.

وجهٌ آخرُ أنَّ ﴿رَسُولُ﴾ بمَعْنى الرِّسالَةِ، أي بمَعْنى اسْم المصدرِ، والمصدرُ إذا وُصِفَ بِهِ يَستوي فيه المفردُ وغيرُه.

ووجه ثالثٌ أن يُقالَ: إنّ الأَصْل فِي الرِّسالَةِ مُوسَى، وَهُوَ واحدٌ، وهارون مُعِين ووَزير، وإلَّا فالأَصْل أن مُوسَى هُوَ الرسول، كما يوجد فِي آياتٍ كثيرةٍ ذِكر مُوسَى بدونِ ذِكر هارونَ.

وقوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ولم يقلْ: «إنا رسول الله»؛ لأنَّهما سيقابلان شخصًا يدّعي الربوبيَّة وأنه الربّ، فيتبين له من أولِ الأمرِ أنَّ الربوبيَّة ليستْ له وإنَّما هِيَ لله.

والعالَمون: كل مَن سِوى الله فهو عالم، وكلُّ المخلوقاتِ عالمٌ، ومع ذلك رُبّما تُضاف إِلَى أنواعِها، ويُقال: عالم البشر، عالم الجنّ، عالم الإبل، عالم كَذَا وعالم كذا، لكن إذا جمعتَ هكذا شملتْ جميع أنواعها، فكل مَن سوى الله فَإِنَّهُ عالمٌ، قالوا: وسُمُّوا عالمًا لأنَّهم علَم عَلَى خالقهم.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إليك]، قدّر المُفسِّرُ (إليك) للإيضاحِ، وإلَّا فلا حاجةَ؛ لأنَّهما يخاطبانِه، فهما ﴿رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إليه.

فَوَائِدُ الآيَةِ الكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فِي الآية دَليل عَلَى أن القَوْم والأَهْل، وما أشبه ذلك، إذا أُضيفتْ دخل فيها مَن أضيفت له، ونأخذه من قوله: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ ثم قال هنا: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾ دلّ ذلك عَلَى أن فِرْعَوْن منهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفي الآية أيضًا دَليل عَلَى أَنَّهُ يَنبغي أن يخاطَب الْإِنْسَان بما تَقتضيه حالُه، فمنكِر الربوبيَّة نخاطبه بإِثْباتِ الربوبيَّة، ومنكِر الألوهيَّة نخاطبه بإِثْبات الألوهيّة؛ لقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فَإِنْ قِيلَ: ما الَّذِي دلَّنا أن فِرْعَوْن كَانَ يَعتقد بربوبيّة الله؟

فالإجابة: من قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤].

فَإِنْ قِيلَ: هَؤُلَاءِ قوم فِرْعَوْن؟

فالإجابة: فِرْعَوْن معهم، وقال له أيضًا مُوسَى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢].

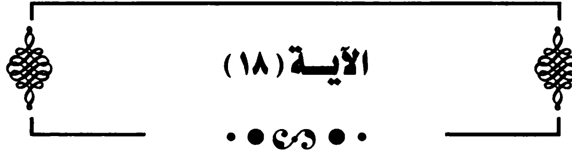


الآيــة (١٧)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٧].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنْ﴾ أي: بأن ﴿أَرْسِلْ مَعَنَا﴾ إِلَى الشامِ ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾].

قوله: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الإرسال بمَعْنى الإطلاقِ، يعني: أطلقهم؛ لِأَنَّهُ كَانَ قد ضيّق عليهم الخِناقَ وعَذَّبَهم بكونِه يقتُلُ أبناءَهُم ويَستحيي نِساءَهم، فاضطرَّ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يطلبَ منه أن يرسلَ معه بني إِسْرَائِيل، ويُطْلِقهم. وستأتي المناقشةُ بينه وبين مُوسَى فيما بعد إن شاء الله.



الآية (١٨)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء:١٨].

• • ❁ • •

قال الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ فِي ذكر جَوابِ فِرْعَوْن لِمُوسَى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْن لِمُوسَى ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾]، فِي الآيةِ إيجازٌ، والإيجازُ عندَ البلاغِيِّين مُنْقَسِمٌ إِلَى قسمينِ: إيجاز حَذْف، وإيجاز اختصارٍ، والمَوْجود هنا إيجازُ الحذفِ، ولهذا قَالَ: [فأَتَياهُ فقالَا لَهُ ما ذُكر ﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْن لِمُوسَى...]، إِلَى آخره.

ومُوسَى لَـمَّا أدى الرِّسالَةَ هُوَ وأخوه، قال فِرْعَوْن مُجيبًا لهذه الدعوة: [﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ فِي مَنازِلنا ﴿وَلِيدًا﴾ صغيرًا قريبًا من الولادة بعد فِطامه]، هَذِهِ واحدة، ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يعني: أفبعد هَذَا الأمر تأتي وتدّعي أنك رسول رب العالمين؟! ومَعْنى ذلك أَنَّهُ ينكر ربوبيَّة فِرْعَوْن، فكأنه يقول بعد هَذِهِ الأمور الثلاثة: كَانَ الأليق بك أن تأتيَ معتذِرًا، وأن تأتيَ خاضعًا؛ لأنّنا مَنَنّا عليك، ولأنك أخطأتَ علينا.

والمنّة قَالَ: [﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ فِي منازلنا ﴿وَلِيدًا﴾ صغيرًا قريبًا من الولادة بعد فِطامه]، والقصة معروفة فِي سُورَة القَصَص، أن الله تعالى أوحى إِلَى أُمِّه إذا خافتْ عليه أن تجعله فِي تابوت، وتُلْقِيَه فِي اليَمِّ، وفعلتْ؛ إيمانًا منها بوعدِ اللهِ، ثم قدّر الله

تعالى أنْ وقعَ هَذَا التابوتُ فِي قبضةِ آل فِرْعَوْن فالتقطوه؛ لحكمةٍ يريدها الله عَزَّوَجَلَّ وهم لا يشعرونَ، فلمّا التقطوه أرسلتْ أمُّ مُوسَى أختَه لتقصَّ الخبرَ ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ [القَصَص:١١]، عن بُعد، ثم رأتهم يطلبون له مرضعةً، فعرضتْ عليهم ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القَصَص:١٢]، فرُد إِلَى أُمِّه، ولم يَرْتَضِعْ ثديَ أُنثى غيرها، وهذا من تمامِ قُدرة اللهِ عَزَّوَجَلَّ ووفائه بوعدِهِ، أَنَّهُ ردّه إِلَى أُمه قبلَ أنْ يَتَغذّى بشيْءٍ سِوى لَبنها، وبقِي معها حَتَّى فطَمَتْهُ.

وبحسب الحال سوف يرجع إِلَى آل فِرْعَوْن الَّذين التقطوهُ، فرجع إليهم فنشأ فيهم، وهذا من تمامِ قُدْرَة اللهِ أن يَنْشَأ هَذَا الصبيُّ الَّذِي كَانَ هلاكُ فِرْعَوْن بسببه فِي حجْرِهِ.

وقد قيل: إن فِرْعَوْن كَانَ يُقتّل أبناءَ بني إِسْرَائِيل خوفًا من هَذَا الولدِ؛ لِأَنَّ الكَهَنَة قالوا له: إنه سيظهرُ رجلٌ فِي بني إِسْرَائِيل يكون زوالُ مُلْكِكَ عَلَى يدِه، فصار يقتل أبناءَهم.

هَذِهِ عَلَى كلِّ حالٍ مِن الإِسْرَائِيليات الَّتِي لا ندري هل تُصدَّق أم لا؟ إنّما كونه يقتل الأبناء ويَسْتَحْيي النِّساء هَذَا فِي القُرآن، لكن هل هُوَ إذلال للشَّعب واستعبادٌ لهم، أم خَوْفًا مِن هَذَا الوَلَدِ؟ اللهُ أعلمُ.

على كلِّ حالٍ، تَرَبّى عندهم فكان يَمُنّ عليه فِرْعَوْن بهذه المِنّة ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ يعني: فكيف تأتي ضِدَّ ما نريدُ، وتدّعي أنَّ لك ربًّا أَرْسَلَكَ، ثانيا: ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ -وليسَ سِنينًا؛ لِأَنَّهُ ملحَق بجمعِ المذكَّر السالمِ-.

وقوله: ﴿مِنْ عُمُرِكَ﴾ فِي الأَصْل صِفة للسِّنين، أصلها: لَبِثْتَ فينا سِنينَ مِن عُمُرِكَ، ولكن القاعدة فِي النحوِ أن الصِّفَةَ إذا قُدّمت أُعْرِبَتْ حالًا؛ لِأَنَّ الحالَ

صفةٌ فِي المَعْنى، والصِّفَة للمَعْنى -الذي هُوَ النَّعْت- لا يمكن أن تَتَقَدَّم عَلَى المنعوتِ، لهذا قالوا: إنّ الصِّفَةَ -صفة النكرة- إذا قُدّمت عليها أُعْرِبَتْ حالًا منها، هَذِهِ قاعدةٌ عندَ النحْوِيِّينَ.

قال: ﴿مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ هَذِهِ السنونَ ثلاثونَ سنةً، حَسَبَ ما قال المُفسِّر وأكثرُ المُفَسِّرِينَ، ولكن الأَولى أنْ تُبهَم كما أبهمَ اللهُ، لكن هم قَدّروا هَذِهِ الثلاثينَ لِأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نُبِّئَ عَلَى رأسِ الأربعينَ عَلَى ما هِيَ عادةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي إرسالِ الرُّسُلِ، فقالوا: إن الثلاثينَ كانتْ عند فِرْعَوْن، ثم إنَّه ذهبَ إِلَى مَدْيَنَ وبَقِيَ فيهم عشْرَ سنواتٍ، ثم أرسلهُ الله.

فمِن هنا صارتِ السنونَ ثلاثينَ، ولكن هَذَا لَيْسَ بلازمٍ؛ لِأَنَّهُ قد يكون تَرَبَّى عند فِرْعَوْن أقلَّ مِن هذا، ثم انضمَّ إِلَى بني إِسْرَائِيل، فلهذا لا يَنبغي أنْ نَجْزِمَ بأنها ثلاثونَ سنةً، فلنقلْ كما قال الله: ﴿سِنِينَ﴾ وهي جمعٌ، وأقلُّ الجمعِ ثلاثُ سنواتٍ، ولكن يبدو أَنَّهَا أكثر؛ لِأَنَّ الثلاثَ سنواتٍ قد لا تكون بِهَا تلك المِنّة الَّتِي يَمُنّ بِهَا فِرْعَوْن.

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَلْبَسُ من ملابس فِرْعَوْن، ويَرْكَب من مَرَاكِبِهِ، وكان يُسَمَّى ابنه]، ولذلك قالتِ امرأة فِرْعَوْن: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القَصَص:٩].

فهذا دَليل عَلَى أَنَّهُم اتَّخذوه ولدًا، يعني: عسى أن يَنْفَعَنا مُطْلَقًا وإنْ لم يَتَبَنَّهُ أو نَتَّخِذه ولدًا، ومن المعلومِ أن الولدَ سوف يَنْفَع، ولكن الله يقول: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القَصَص:٩] لم يكنِ الأمرُ كما تَوَقَّعُوه، بل كَانَ بالعكسِ.



الآيـة (١٩)

• • ● • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩].

• • ● • •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ وهي قَتْلُهُ القِبْطِيَّ]، ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ أبهمها تعظيمًا لها، والإبهامُ يأتي للتَّعْظيمِ أحيانًا، كما فِي قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة:١-٢]، وقوله: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨]، هَذَا إبهامٌ يُراد بِهِ التعظيمُ، وهنا قَالَ: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ ولم يَقُلْ: قَتَلْتَ القِبْطِيَّ؛ إشارةً إِلَى تعظيمها، وأضافها إليه من بابِ التقريرِ، يعني: إنك فعلتَ تلك الفعلةَ الَّتِي لم يَفعَلْهَا سِواك، وهي قَتْلُهُ القِبْطِيَّ، الَّذِي كَانَ فِي مشاجرةٍ معَ الإِسْرَائِيليّ.

قال تعالى: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾، الجُملة حالٌ من الضَّميرِ فِي ﴿فَعَلْتَ﴾.

قال: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ الكافرين: لَيْس بالله؛ لِأَنَّهُ لا يؤمنُ باللهِ، ولكن من الكافرينَ بِفِرْعَوْن؛ لِأَنَّ مُوسَى لم يَتَّخِذْهُ إلهًا كما اتَّخَذَهُ الأقباطُ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ الجاحدينَ لِنِعْمَتِي عليك بالتربيَة وعدمِ الاستعبادِ]، فهذا ما ذهبَ إليه الْمُفسِّر؛ أنَّ الْمُرادَ بالكفرِ هنا كفرُ النعمةِ، وذلك جحده لما مَنَّ بِهِ فِرْعَوْن عليه من التربيةِ، وعدم الاستعباد، كما استعبد بني إِسْرَائِيل، ولكن الَّذِي ينبغي أن نقولَ: هِيَ أعمُّ ممَّا قال الْمُفسِّر، بل كذلك -وهي الأهم عند فِرْعَوْن- أَنَّهُ كفرَ بِعُبُودِيَّتِهِ، فلم يَتَعَبَّد له.

الآية (٢٠)

• • ◦ • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء:٢٠].

• • ◦ • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ مُوسَى ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ أي: حينئذٍ ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ عمَّا آتاني اللهُ بَعْدَها مِنَ العِلْم والرِّسالة].

قوله: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ كلمة (إِذًا) للمستقبَل؛ لِأَنَّ أصلَها: (إذا)، فَنُوِّنَتْ، و(حينئذٍ) تكون للماضي، فتفسير المُفسِّر (إِذًا) بـ(حِينَئِذٍ) من باب التفسير بالمعنَى، لا التفسير باللفْظ؛ إذْ لا يُفسَّر حرف بحرفٍ يقابله فِي المَعْنى، ولكن من باب التفسيرِ بالمَعْنى، يعني: فعلتُها حينئذٍ فعلتُها فيما مَضَى ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وذهب بعضُ المفسِّرين إِلَى أنَّ (إِذًا) عَلَى ما هِيَ عليه جَواب لِفِرْعَوْن كالمتهكِّم به، كأنه يقول (إذن أفعلها) يعني: ولا أُبالي بك، ولكنِّي مِنَ الضَّالِّينَ الجاهلين لحُكْم القتلِ. ولعلَّ هَذَا أقرب أن تكونَ: (إِذًا) عَلَى بابها ليستْ بمَعْنى الماضي، وكأنَّ ذلك جَوابٌ لِفِرْعَوْنَ عَلَى سبيلِ الاستهانةِ بِهِ وعدمِ الاكتراثِ، وأنَّه لا يُبالي به.

وقوله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ جوابٌ لقولِ فِرْعَوْنَ له: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩]. وقوله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ يقولُ الشارح -أو المفسِّر-: [عمَّا آتاني الله بعدها من العلمِ والرِّسالَةِ]، فيكون المُراد بالضَّلالِ هنا الجَهْل. وعلى هَذَا فيكونُ الضَّلالُ يَنْقَسِم إِلَى قِسمينِ:

- ضلال يُذَمّ عليه الفاعلُ أو الضالُّ.
- وضلال لا يُذمّ عليه.

والضَّلالُ الَّذِي حَصَلَ أو الَّذِي اتَّصَفَ بِهِ مُوسَى حينَ قَتْلِه القِبْطِيَّ ضَلالٌ لا يُلام عليه؛ لِأَنَّهُ لم يأتِهِ وحيٌ ولا رسالة حينئذٍ، فهو معذورٌ، ومن هنا نعرِف أَنَّهُ يَصِحّ أنْ نصِفَ المخالفينَ للصوابِ من أهلِ العلمِ بالضَّلالةِ، لكن لا الضَّلال المُطْلَق الَّذِي يُذمّون عليه إذا عُرف أَنَّهُم أهلُ نُصحٍ فِي الإسلامِ، لكن أَخْطَئُوا بعدَ الاجتهادِ.

مثال ذلك: أنَّ كثيرًا من أهلِ العلمِ أَشَاعِرَة منَ الَّذين عُرفوا بالإخلاصِ للإسلام، وبمَقام الصِّدق فيه، ومعَ ذلك نَصِفُهم بأنَّهم ضَالّون، لكن لا الضَّلال المطلَق الَّذِي يُشمّ منه، أو يُشْعِر بالذمِّ والقَدْح، لكن المُراد مخالفة الصَّوابِ، وإلا سَنَجِدُ مَنْ يُشنِّع إذا قلنا مثلًا: ابنُ حَجَرٍ ضالٌّ، والنَّوَوِيُّ ضالٌّ، وكثير من أكابرِ العلماءِ مُخْطِئُون للصوابِ، أو مُخْطِئُون فيما يقولون، مجانِبُون للصوابِ، لكن لا نقول: لَيْسَ الضَّلال المطلَق الَّذِي يُذمُّ عليه الفاعلُ؛ لِأَنَّ الضَّلالَ مع الاجتهاد وتَحَرّي الحَقّ لا يُذَمّ عليه المرءُ وإنْ وُصِفَ به.

فائدة: قوله: ﴿إِذًا﴾ فِي جَواب للحالِ باعتبارِ جَوابِه لفِرْعَوْن. وقوله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الجُملةُ الحاليَّة حالٌ منَ الفاعلِ ﴿فَعَلۡتُهَآ﴾، فـ ﴿إِذًا﴾ لا تكونُ متعلِّقة بـ(فعلتُ)، وتكون متعلقة بجَواب: أُجِيبك إذن، ﴿فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ يعني: باعتبار جَوابِهِ لفِرْعَوْن، لا باعتبارِ أَنَّهُ فَعَلَها.

فكأنه يُشعر بعدمِ الاكتراثِ وبالتحدِّي لفِرْعَوْن، وأنه لم يبالِ به. يقول ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ والمُراد بالضَّلال: الجهلُ الَّذِي لَيْسَ عن عمْدٍ.

الآية (٢١)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:٢١].

قال: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾. وسببُ فِرارِهِ منهم أن رجلًا جاءه يسعى وقال: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ [القَصَص:٢٠]، وهذا الرَّجُلُ مجهولٌ، لكن قَبِلَ مُوسَى خَبَرَهُ لوُجودِ القَرينة؛ وهي قَتْلُهُ القِبْطِيَّ، وإلَّا فَإِنَّهُ ما يُقْبَل خبرُ رجلٍ مجهولٍ. ثم إن هَذَا الرَّجُل أكَّد خبره بقوله: ﴿فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ فخرجَ وفرّ منه خائفًا.

قال: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾، (لَـمَّا) ظرفٌ بمَعْنى: (حينَ)، وتُستعمَل عدَّةَ استعمالاتٍ، فتُسْتَعْمَل ظرفًا بمَعْنى: (حين)، وتُسْتعمل بمَعْنى أداةِ استثناءٍ، بمَعْنى: (إلَّا)، وتُستعمَل شرطيَّةً، وتُستعمَل نافيةً، أمَّا استعمالها نافيةً ففي مثل قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحُجُرات:١٤]، يعني: لم يدخلْ.

وأمَّا استعمالها شرطيَّة ففي مثلِ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠١]، فهذه الشَّرطيَّة، وأمَّا استعمالها بمَعْنى

(إلَّا) ففي مثلِ قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤]، يعني: ما كلّ نفس إلَّا عليها حافظ.

وهنا ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ اسْم بمَعْنى: (حين)، فهي ظرفٌ يعني: حين خِفْتُكُمْ.

وهذا ممَّا يؤيِّد ما سبقَ أنْ أشرنا إليه بأن الكَلِمات تعتبر حقيقةً بِحَسَبِ السياقِ، وأنَّ هَذَا هُوَ مأخَذُ شيخِ الإسلامِ ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ فِي أَنَّهُ لَيْسَ فِي اللُّغة العربيَّة ما يُسَمَّى بالمَجازِ مُطْلَقًا؛ لِأَنَّ اللَّفْظَ لَيْسَ أمرًا ذاتيًّا للكلمةِ، بل الكلمة لها مَعْنى بحسَب قِياسها وقرائن أحوالِها.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ عِلمًا ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾].

﴿فَوَهَبَ لِي﴾: أعطاني، قَالَ: [﴿حُكْمًا﴾ عِلمًا]، ولكن تفسير الحُكْم بالعلمِ قد يقول قائلٌ: إنَّ فيه نظرًا؛ لِأَنَّ الله تعالى يَعْطِف بَعْضَها عَلَى بعضٍ؛ كما فِي قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٢٢]، والعطفُ يَقْتَضِي المُغَايَرَة، وإذا كَانَ كذلك، فَإِنَّهُ لا يمكن أن يفسَّر أحدهما بالآخرِ.

ولننظرْ: هل هَذَا الاعتراضُ صحيحٌ، أم يُقال: إنهما من الألفاظِ الَّتِي إذا اجتمعتِ افترقتْ، وإذا افترقتِ اجتمعتْ، فإذا اجتمعتا تَغَايَرَتَا، وإذا انفردتْ إحداهما صارَ مَعْنى كلٍّ واحدةٍ مَعْنى الأخرى.

قال تعالى: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الحُكم: القضاءُ بالشَّيْءِ، ويُسمَّى حُكمًا، ولا حكم إلا بعلمٍ، فتفسير الحكمِ بلازِمِهِ، وإذا جمع معَ العلمِ صار العلمُ ضدَّ الجهلِ، والحكم تطبيق ذلك العلمِ، فالذي يَظْهَر أن المُرادَ بالحكمِ هنا أخفّ منَ العلمِ، يعني: الحكم: القضاء، أو ما بِهِ يَقْضِي الإِنْسان بينَ النَّاسِ،

ولا يكون ذلك إِلَّا بعلمٍ، فتفسير المُفسِّر له تفسير بلازِمِهِ؛ لِأَنَّ مِن لازِمِ الحكمِ العلم، وليس من لازمِ العلمِ الحُكْم؛ لِأَنَّهُ قد يَعْلَم ولكنْ لا يَحْكُمُ.

وقوله: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ هَذَا بعدَ أنْ أَوحى اللهُ إليه وآتاه منَ العلمِ والحُكم جعله أيضًا مُرْسَلًا وكُلِّفَ بالرِّسالَةِ.

وفي قوله: ﴿مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ولم يقلْ: وجَعَلَني رسولًا، كالتنبيه لفِرْعَوْن أَنَّهُ لَيْسَ بِبِدْعٍ مِنَ الرسُل، وأنه لم يأتِ بأمرٍ جديدٍ، بل إن أمامَه رُسُلًا، وقد ذكر الله تعالى فِي سُورَةِ غَافِرٍ أن الرَّجُل المؤمنَ يقولُ لهم: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ﴾ [غافر:٣٤]، فكأَنَّه يقول له: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الَّذين عندَكَ خبَرُهُمْ، فلستُ بِبِدْعٍ مِنَ الرُّسُلِ.



الآيـة (٢٢)

• ● ● •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٢٢].

• ● ● •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ﴾ أَصْلُها: تَمُنّ بِهَا عَلَيَّ]، أي: تَجْعَل بِهَا مِنّة عليّ، ولكن حُذف حرفُ الجرِّ وعُدِّي الفعلُ إليها. قَالَ: ﴿تَمُنُّهَا عَلَىَّ﴾ أي: تجعلها مِنّة ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يقول: [بيان لـ(تلك)، أي: اتَّخَذْتَهُمْ عَبيدًا]، وإذا كانتْ بيانًا لـ(تلك) فتكون (أنْ) تفسيريَّة، تفسير لاسْم الإشارة فِي قوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾ أي: حين عبَّدتَ بني إِسْرَائِيل جعلتَ تَربيتي عندكَ وليدَ النعمةِ، وفي الحَقِيقَة هَذَا لَيْسَ بنعمةٍ؛ لِأَنَّ كَوْن الْإِنْسَان لا يقتلُ هَذَا الرَّجُل وَهُوَ يقتلُ غيرَه عُدوانًا لَيْسَ بنعمةٍ؛ لِأَنَّ أصلَ قتلِ أولئكَ ظُلْمٌ وجَوْرٌ، فكونه لا يقتلُ هَذَا الرَّجُلَ لَيْسَ نعمةً.

وغايةُ ما هنالكَ أَنَّهُ لم يَظْلِمْهُ، فهو لنْ يدفعَ عنه ضررًا نازلًا بِهِ من غيرِهِ، ولم يَجْلِبْ إليه نفعًا. فمُوسَى يقول: كيف تَمُنُّ عليّ بهذه النعمةِ أنْ عَبَّدْتَ بني إِسْرَائِيل، يعني: ولم تَسْتَعْبِدْنِي، فهذه ليستْ نعمةً؛ لِأَنَّ كون الْإِنْسَان لا يظلمُ هَذَا الرَّجُلَ ويظلمُ ذاك، فهذا لَيْسَ نعمةً عَلَى مَن لم يُظْلَمْ؛ إذ لم يُسْدِ إليه نفعًا، ولم يَدْفَعْ عنه ضررًا، غايةُ ما هنالك أَنَّهُ امتنعَ عن ظُلْمِهِ.

وفي الواقع امتناعُه عن ظُلمِهِ نعمةٌ عَلَى نفسِ الظالمِ؛ أن الله تعالى أنعمَ عليه

فمَنَعَهُ مِن ظُلْم هَذَا الرَّجُلِ، ولهذا يقول المُفسِّر: [﴿أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ولم تَسْتَعْبِدْنِي، لا نعمةَ لك بذلكَ لِظُلْمِكَ باستعبادهم]، فأنت ما أعطيتني منّةً جديدة ونعمةً جديدةً حَتَّى تمُنّ بها، فهو يُنكر عليه، ولهذا يقول المُفسِّر: [وقدَّر بعضهم أوَّل الكَلام همزةَ استفهامٍ للإنكارِ]، يقول: كيف تمنُّ عليّ بهذا الشَّيْء؛ بأنك عبَّدتَ بني إِسْرَائِيل، هَذَا لَيْسَ بنعمةٍ.

ففِرْعَوْن يراها نعمةً، قَالَ: ﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ﴾ فهو جعل هَذِهِ مِنَ النِّعم.

قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ كونك عَبَّدْتهُم، أي: جَعَلْتَهم عبيدًا لكَ، ووجهُ الاستعبادِ أَنَّهُ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- كَانَ يقتّل الرِّجالَ، فتبقى النِّساء بدون قيِّمٍ، والمرأةُ إذا بَقِيَتْ بدون قيِّم تضطرُّ إِلَى أن تخْدُمَ، ولهذا قال العلماءُ: إنه كَانَ يستخدِم النِّساء فيُبْقِيهِنَّ بالضرورة، وإذا لم يكن لهنّ قيِّم سوف يَلْجَأْنَ إِلَى الأقباطِ لاستخدامهنَّ.

وسبقَ أن قال مُوسَى: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء:٢٠]، ثم قَالَ: ﴿فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء:٢١]، فكأنه يقول: أنتم لم تألوا جُهْدًا فِي معاقبتي، ولكنَّني فَرَرْتُ منكم فلم تُدْرِكُوني فنجوتُ، فالعُقوبة نجوتُ منها بالفرارِ، والجهلُ تَنَزَّهْتُ منه بالرِّسالَةِ.

فكأنه يقول: تَرْك الظلمِ بالنِّسبةِ إليّ لا يُعَدُّ نعمةً؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان لَيْس مُسْتَحِقًّا له حَتَّى نقول: إنه عَفَا عنه وتركه، فهذا ما صار عليه المُفسِّرُ، لكن هناك احتمالٌ آخرُ، فالإساءة إِلَى قومه إساءةٌ له، فكأنَّه يؤكِّد نفيَ النعمةِ، يعني: أين النعمة وأنت قد

عبّدت بني إِسْرَائِيل وهم قومي، فإذا قُدّر أنِّي سلِمتُ منَ التَّعبيد والظُّلم، فأنا فَرْدٌ من قبيلةٍ وقومي قد عبَّدتَهم، فأين النعمة؟!

وقوله: [قدَّر بعضهم أوَّل الكَلام همزةً]، لَيْسَ ببعيدٍ أنَّهُ قَالَ: أوَتلك نعمةٌ تمُنّها عليَّ أنْ عَبَّدْتَ بني إِسْرَائِيل. يعني: فليس لك عليّ نعمة.

و(أنْ) تبين المبهَم فِي قوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ فكأنه يقول: تمُنّ عليّ بهذه النعمةِ حينَ عبَّدتَ بني إِسْرَائِيل، يعني: ولم تَسْتَعْبِدْهُمْ، هَذَا هُوَ المَعْنى.

ولولا أنَّ هَذَا المَعْنى ظاهرٌ لَقُلنا: إن مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صَرف نعمتَه عليه كالمتهكِّم به، يعني: يقول: أين النعمة الَّتِي أنعمتَ بِهَا عليّ وأنتَ تُعَبِّد بني إِسْرَائِيل؛ لِأَنَّ تعبيدَ بني إِسْرَائِيل خلافُ النعمةِ فِي الواقع، ومنَ المعلومِ أن مُوسَى مِن بني إِسْرَائِيل، فتعبيدُ بني إِسْرَائِيل -وهم قومُه- إذلالٌ له، وهذا مَعْنى جيِّد فِي الحَقِيقَةِ، نقول: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ يعني: كيف تمنّ عليّ بهذه النعمةِ وأنت تعبِّد بني إِسْرَائِيل، ويكون هَذَا من بابِ ما يُسَمُّونه بـ(تأكيد الذمّ بما يُشْبِه المَدْحَ)، وحينئذٍ تكون ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ تفسيرًا لـ(تِلْكَ)، يعني: أهذه النعمة الَّتِي تمُنُّها عليّ أنْ تُعَبِّد بني إِسْرَائِيل، فأين النعمة؟! فهذا مَعْنى جيِّد.



الآيتان (٢٣، ٢٤)

• • ● ● •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:٢٣-٢٤].

• • ● ● •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لِمُوسَى ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الَّذِي قلتَ: إنَّك رسوله؟ أي: أيُّ شيْءٍ هو؟ ولَـمَّا لم يكنْ سَبيل للخَلْقِ إِلَى مَعْرِفَةِ حقيقتِهِ تعالى، وإنَّما يَعْرِفُونه بصفاتِهِ، أجابه مُوسَى ببعضِها ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾].

هذا الكَلام الَّذِي قاله الْمُفسِّر فِي تفسيرِ الجُملةِ بعيدٌ منَ الصَّوابِ كلَّ البُعْدِ؛ قوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من المعروف أن (مَا) يُستفهَم بِهَا عن الحَقِيقَةِ، فتقول: ما الذهَب؟ يُقال مثلًا: هُوَ مَعْدِنٌ نَفيس.. إِلَى آخره، تقول مثلًا: ما العِلم؟ تقول: إدراكُ الشَّيْءِ عَلَى ما هُوَ عليه إدراكًا جازمًا، فـ(ما) يُسْتَفْهَم بِهَا فِي الأَصْلِ عنِ الحَقِيقَةِ.

ويدّعي الْمُفسِّر أنَّ فِرْعَوْن استفهمَ عن ذلك -عن الحَقِيقَة- ولكنَّه لَيْسَ كذلكَ، ففِرْعَوْن استفهمَ عن هَذِهِ الربوبيَّة؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فما هَذِهِ الربوبيَّة الَّتِي زعمتَ أنَّ الله تعالى أرسلكَ وَهُوَ ربُّ العالمين؟!

لأننا لو قلنا: إنَّه يَسْتَفْهِم عن حقيقةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَلَزِمَ منْ ذلك أن يكونَ قد أقرَّ به، وَهُوَ لم يُقِرَّ بِهِ حَتَّى يسأل عن حقيقةِ هَذَا الربِّ، وإنَّما يُنْكِر الربَّ أصلًا،

فالاسْتِفهام للإنكارِ: أيّ شيْءٍ هُوَ ربُّ العالمينَ الَّذِي زَعَمْتَ أَنَّهُ أرسلكَ؟! يعني: لَيْسَ هناك ربٌّ، فالتفسيرُ الَّذِي ذهبَ إليه المُفسِّرُ بِناءً عَلَى ما هُوَ معروفٌ مِن أنَّ (ما) -وهو عندَ المناطِقِ أيضًا، لَيْسَ معروفًا فِي اللُّغةِ العربيَّة، بل عند أهل المنطِقِ- يُسْتَفْهَم بِهَا عن كُنْهِ الشَّيْءِ وحَقِيقَتِه، فقال: إن فِرْعَوْن يَستفهِم عن كُنه الخالقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحقيقته، ولكن مُوسَى لَـمَّا لم يمكنْ أن يجيبَ عن ذلك، عَدَلَ إِلَى بيانِ صفةٍ من صفاتِهِ، فيكون الجَواب من مُوسَى غيرَ مُطابِقٍ للسُّؤالِ، ويُسَمَّى هَذَا بأسلوبِ الحكيمِ، أن يُجابَ السائلُ بغيرِ ما يَتوقَّع.

ولكن ما قاله وما ذهبَ إليه لَيْسَ بصحيحٍ، كما أنكره ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تفسيره[1]، وقال: إن هَذَا معناه إقرار فِرْعَوْنَ باللهِ، لكن يسأل عن حقيقةِ هَذَا الإلهِ، فالصَّوابُ أنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أجابَهُ بجَوابٍ مطابِقٍ للسُّؤالِ، وأنَّ فِرْعَوْن يسألُ عن هَذِهِ الربوبيَّة الَّتِي زعمَ مُوسَى أَنَّهُ مُرسَل من ربِّ العالمينَ فقال ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟! أيّ شيْءٍ ربُّ العالمينَ الَّذِي أرسلكَ؟! وليس معناه: أي شيْء هُوَ مادتُه.

والجَواب: [﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أي: خالِق ذلك]، ولا يكفي أن يفسَّر بالخالق، بل خالق ذلك ومدبِّره، والمتصرِّف فيه؛ لِأَنَّ الربَّ لا يَكفي أن يكونَ خالقًا، بل لا بدَّ مِن خَلْقٍ وتدبيرٍ وتصرُّفٍ.

قال: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ وليست ربوبية فِرْعَوْن كهذه الربوبيَّة؟ وفِرْعَوْن يدخل فِي ذلك؛ لِأَنَّ الله ربُّه، لِأَنَّهُ لا يخرجُ عنِ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، فهو فِي الأرضِ، وكأنه أيضًا أجاب بهذا إشارةً إِلَى إبطالِ عُبُودِيَّةِ فِرْعَوْن؛

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٣٨) ط. دار طيبة.

لِأَنَّ فِرْعَوْنَ لا خَلَق سماواتٍ ولا أرضًا، ولا ما بينهما، فالذي يَسْتَحِقّ الربوبيَّة هُوَ الله.

ويَنبغي الوقوف: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾، ثم يُقال: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ فالأمرُ بيِّنٌ.

ولهذا المُفسِّر قدّر الجواب، وقال: [﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ بأنه تعالى خالِقُه فآمِنوا بِهِ وحدَه].

وإنَّما قلنا: إنها لا تَعلّق لها بما قبلُ؛ لِأَنَّهُ لو تَعَلَّقَتْ بما قبلها لكانَ مَعْنى أَنَّهُ ربُّ السماواتِ والأرضِ إنْ أَيْقَنُوا بذلك وإلَّا فليس ربَّ السماواتِ والأرضِ، وهذا الكَلامُ لا يَستقيمُ.

والتَّقدير: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ -أي: من ذوي الإيقانِ- فأَيْقِنُوا بذلك؛ لِأَنَّهُ لا أحدَ يَقْدِر عَلَى خَلْق السماواتِ والأرضِ، فـ(إنْ) هنا شرطيَّة، وجَوابُ الشَّرطِ محذوفٌ، وقدَّرَ المُفسِّر: (فآمنوا بِهِ وحدَه). و(آمنوا) و(أيقنوا) معناهما واحد.



الآيــة (٢٥)

• قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:٢٥].

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْن ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ مِن أشرافِ قومِه: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ جَوابَه الَّذِي لم يُطابِقِ السُّؤالَ]، وهذا غريب! فالاسْتِفهامُ هنا للتهكُّم بلا شكّ، يعني: أَلَا تَستمعونَ إِلَى هَذَا الَّذِي زَعَمَ أنّ ربَّ العالَمِينَ ربُّ السماواتِ والأرضِ، والواقع -على حَسَب زَعْمِه- أنّ ربّ العالمينَ هُوَ فِرْعَوْن، فهو يَتَهَكَّم به، يقول: استمعوا إِلَى هَذَا يقول: إن ربَّ العالمينَ ربُّ السماواتِ والأرضِ وما بَينَهما. فيكون عَلَى هَذَا خاطئًا فِي تهكُّمِهِ، وقصدُه بهذا حقيقةً التهويلَ، وتحطيمُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وبيانُ أنَّ ما جاء بِهِ لَيْسَ بصوابٍ، أمَّا عَلَى رأيِ الْمُفسِّر فجَوابُه لم يُطابِقِ السُّؤالَ، ولو كَانَ الأمرُ كذلك لكانَ فِرْعَوْن مُحِقًّا فِي اعتراضِهِ؛ لِأَنَّ كلَّ أحدٍ إذا عرفَ أن الْإِنْسَان أجابَ بغيرِ ما سُئل عنه فمَعْنى ذلك أَنَّهُ مُنْقَطِع عن الحُجَّة، وعاجزٌ عن دَفعها، فهذا من أبعد ما يكون.

ونحن نقولُ للمؤلِّف ولغيرِ الْمُفسِّر مِمَّن نَشَأَ عَلَى طريقته: إنّ جَوابَ مُوسَى ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ مطابِقٌ للسُّؤالِ، وإن فِرْعَوْنَ لم يسأل عن حقيقةِ وكُنْهِ الخالِقِ أبدًا، ولا دارَ فِي فِكْرِهِ هذا، ولا يبالي بِهِ مِن أيِّ شيْءٍ هو.

فلهذا نقول: إن الجَوابَ مطابِق للسُّؤالِ، و﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ الاسْتِفهامُ للتهكُّمِ؛

لِأَنَّ مُوسَى أَتى بأمرٍ بعيدٍ عمَّا يريده فِرْعَوْن، ففِرْعَوْن الَّذِي يقول: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يريدُ مِن مُوسَى أن يقول: ربُّ العالمينَ فِرْعَوْن، ولكنه قَالَ: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾، ثم أيضًا اسْتَبْلَهَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ يعني: إن كنتُم من ذوي الإيقانِ والعلمِ فأيقِنوا بذلك.

والاسْتِفهامُ هنا فِي ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ فِي هَذَا المقام لا شكَّ أَنَّهُ سَيَصْدُرُ مِن مثلِ فِرْعَوْن، حيث يَتَهَكَّم بمُوسَى الَّذِي جاء بالحَقِيقَةِ ولا يستطيعُ فِرْعَوْن أنْ يَدْفعَها.



الآيــة (٢٦)

• • ⁂ • •

❁ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:٢٦].

• • ⁂ • •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهذا وإِنْ كَانَ داخلًا فيما قبلَه يَغِيظُ فِرْعَوْن].

مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أسلوبه أسلوبٌ حكيمٌ: أتى أَوَّلًا بالربوبيَّة العامَّة للسماوات والأرضِ وما بينهما، ثم أتى للربوبيَّة الخاصَّة لِفِرْعَوْنَ الَّذِي يَدَّعي أَنَّهُ ربُّه، وقال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، إشارة إِلَى أنكم أنتم أتيتم مِن آبائكُم، ومَن أَتَى مِن أَبٍ فكيفَ يُمْكِن أنْ يكونَ رَبًّا؟! هُوَ مخلوقٌ مِن نُطْفَةٍ.

فكأنه يقول: ارْجِعُوا إِلَى أَصْلِكُم، فالله تعالى ربُّكم أنتم الَّذين تَدَّعُونَ أَنَّكم أربابٌ وربُّ آبائكم الأوَّلين الَّذين أتيتم منهم، فيذكّرهم بأصلِهم؛ لِيَذْكُروا أَنَّهُم كانوا محدَثين، وأنَّهم لا يَصْلُحُونَ لِأَنْ يكونوا أربابًا، وهذا مِن حُسن الجَوابِ، وفي الحَقِيقَةِ كلُّ جَوابٍ يقوله مُوسَى فهو حُجَّةٌ قاطعةٌ تَدْمَغُهم، ولكن -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- مَن لم يُوَفَّق بالحقِّ فَإِنَّهُ لا يَنْتَفِع بِهِ ويَسْتكبِر عنه.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهذا وإنْ كَانَ داخلًا فيما قبلَه يَغيظ فِرْعَوْن]، وفي الحَقِيقَة هَذَا كَلامٌ لَيِّن من الْمُفسِّر، ولو قَالَ: هَذَا أيضًا إقامة حُجَّة أُخرى عَلَى فِرْعَوْن أَنَّهُم مَرْبُوبُونَ، وأنَّهم مخلوقونَ من أصلابِ آبائهم

الأوَّلين، ومَن كَانَ كذلك مولـودًا فلا يَسْتَحِقّ أنْ يكـونَ ربًّا وإلـهًا -اللهُ أكبرُ- لو قال ذلك لكان أَولى، فالرُّسُلُ يعانون من أقوامهم شَيئًا كثيرًا.



الآيـة (٢٧)

• • ● • •

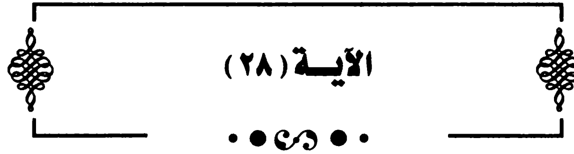
❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الشعراء:٢٧].

• • ● • •

(إنّ) للتَّوكيد، و(لَمَجْنُونٌ) اللام أيضًا للتَّوكيدِ، فأكّد جنون مُوسَى بأمرينِ؛ بـ(إنّ) واللام، وفي قوله: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ﴾ منَ التهكُّم ما هُوَ غيرُ خفيٍّ، يَتَهَكَّم بِهِ لِأَنَّهُ يُنْكِر رسالتَه وينكر ربوبيَّة ما أرسله، فهذا من بابِ التهكُّم به، ثم إنه لم يُضِفْهُ إِلَى نفسِهِ تكبُّرًا، فما قَالَ: إن الرسول الَّذِي أرسلَ إلينا أو إن رسولنا، قَالَ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ﴾، وهذا عُلُوٌّ منه وتكبُّر وتهكُّم بمُوسَى.

فالعلوُّ والتكبُّرُ والترفُّعُ حيث أضافه إليهم، فكأنَّه هُوَ فِي شأنٍ أعلَى مِن أنْ يُرسَل إليه ولا عَلَى سبيلِ التهكُّم، ثم إنَّ إضافةَ الرِّسالَةِ إليهم وَهُوَ ينكِر ذلك تهكُّمٌ بمُوسَى ظاهرٌ، فقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ ولم يقلْ: أرسله ربُّ العالمينَ، مع أن مُوسَى قَالَ: إنِّي رسول ربِّ العالمينَ؛ لِأَنَّهُ ما سَمَحَ لنفسِه أن يصفَ اللهَ تعالى بالربوبيَّة ولا عَلَى سبيلِ التهكُّم.

وقوله: ﴿لَمَجۡنُونٞ﴾ المجنونُ: فاقدُ العقلِ، وهذا دَأْبُ جميعِ الَّذين كذّبوا الرُّسُلَ، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]، يقولـون: ساحر أو مجنون، و(أو) هَذِهِ مانعةُ خُلُـوّ وليستْ مانعةَ جمعٍ؛ لأنَّهم قد يقولون: ساحرٌ فقط، أو مجنونٌ فقطْ، أو ساحرٌ ومجنونٌ، وهذا ما وَقَعَ لِمُوسَى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما سيأتي قريبًا إن شاء الله.



الآية (٢٨)

• ● ● •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء:٢٨].

• ● ● •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾]، يعني: هُوَ ربُّ المشرِق والمغربِ، ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ﴾ لَيْسَ المُراد منْه الجِهة فقط، ولكن المُراد الجِهَة وما يَحْدُثُ فيها مِن شُروقِ الشَّمْسِ والقمرِ والنجومِ، وما إليها.

قال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ وهذا كقولِ إِبْرَاهِيم للذي حَاجّه، قال إِبْرَاهِيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فكأنَّ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عدَلَ إِلَى أمرٍ ظاهرٍ بيِّن لا يُمْكِن المماراةُ فيه أبدًا؛ قَالَ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ والذي بينهما وما يحدُث مِنَ السَّحاب والرِّياح وغيرِ ذلك، فهذا أمرٌ لا أحدَ يُنْكِره، ولهذا قال لهم: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ لِأَنَّ هَذَا الأمرَ ظاهرٌ للعقلاءِ.

ثم فِي قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تَعريضٌ لـهم كَرَدٍّ عَلَى قولـهم: إنَّ رَسولَكم لمجنونٌ، كأنه يقول: المجنونُ مَن يُنْكِر هَذِهِ الأشياءَ.

ولهذا قَالَ: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وفي قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ من ظهورِ القوَّة مِن مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأنه لم يَكْتَرِثْ بهم، فهو رجلٌ وحدَه أمامَ جبّار عَنيد، وهذا

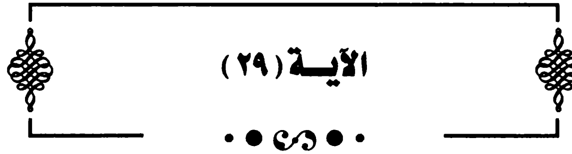
كَلامٌ مُزْعِج فِي الواقع أنْ يقوله الْإِنْسَانُ لِمَن كَانَ نِدًّا له، ولكن مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَـمَّا قالَ اللهُ له فِي الأوَّل: ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء:١٥]، كَانَ واثقًا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وموقنًا بأنَّه لن يَضُرَّهُ فِرْعَوْن، والأمرُ كذلك.

الشَّاهدُ أن المشرقَ والمغربَ وما بينهما لظهورِ الآياتِ فيهما؛ قال لهم: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فهذا من وجهٍ.

ثانيًا: أراد أن يقابل قول فِرْعَوْن: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء:٢٧]، فكأنه يقول: المجنون مَن لم يستدلَّ بهذه الآيات عَلَى الربِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أَنَّهُ كذلك فآمنوا بِهِ وحده]، مثلما قال الْمُفَسِّر فيما سبق: [﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:٢٤]، بِأَنَّهُ تَعَالَى خَالِقه فَآمِنُوا بِهِ وَحْده].





الآية (٢٩)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩].

• • • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ لِمُوسَى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾]، بعد أنِ انقطعَ بِهِ سُلطانُ الحُجَّة والبُرهان عدَلَ إِلَى سلطانِ القوَّةِ والتهديدِ؛ فهكذا العاجزُ عن ردِّ الحجةِ بالحجةِ يَعْمِد إِلَى القوةِ إذا كَانَ له سلطانٌ، وهذا له سلطانٌ عَلَى مُوسَى، ولهذا هَدَّدَهُ بقولِهِ: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى﴾ لم يقلْ: لَئِنْ دَعَوْتَ إِلَى اللهِ فقطْ، يعني: يريد منه أن يَمْتَنِع عنِ الدعوةِ إِلَى اللهِ بالأولى، وأن لا يَتَّخِذَ إلهًا سواه، وفي هَذَا دليلٌ عَلَى أنَّ فِرْعَوْن كَانَ ينكرُ أن يكون هناك ربٌّ سواه، وأن قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، صفة كاشفةٌ وليستْ صفةً مُقَيِّدَةً؛ لِأَنَّهُ لا يَعْتَقِد أن هناك ربًّا سِواهُ.

وقوله: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ﴾ فيه شيئانِ يَحتاجانِ إِلَى جَوابٍ: الشَّرطُ والقَسَم، والمَوْجودُ هنا جَوابُ القسمِ وليسَ جَوابَ الشَّرطِ؛ فكلمة ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ﴾ ليستْ جَوابَ شرطٍ، بل جَواب قَسَم، ولهذا أُكِّدَتْ بالنونِ واللامِ، فهي جَوابُ قَسَمٍ، وهذه هِيَ القاعدة؛ يقول مالك[١]:

(١) ألفية ابن مالك - عوامل الجزم، (ص:٥٩) ط. دار التعاون.

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ   جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

وهنا اجتمعَ شرطٌ وقسمٌ: الشَّرط (إنْ)، والقسم (والله) المحذوف، يقول: «احذِف لَدَى اجتماعِ شرطٍ وقسمٍ جَوابَ ما أخرت» والمؤخَّر هُوَ الشَّرط، فيكون الجَواب المَوْجود للقسمِ، وَهُوَ كذلك.

وقوله: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي﴾ (إِلَهًا) بمَعْنى: مألوهٍ، أي: معبود، والمُراد بالمعبودِ هنا المعبودُ الَّذِي يَستحِقّ أن يُعْبَد، وذلك لربوبيَّتِهِ، فهو يعتقد أَنَّهُ الرب، فيجب أن يكون هُوَ الإله الَّذِي يُعْبَد.

قال: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ انظر: ﴿مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ ولم يقلْ: لَأَسجنَّنك، كما قال الله تعالى فِي قصة يُوسُف: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ﴾ [يوسف:٣٥]، بل قَالَ: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ زيادة فِي تهديدِ مُوسَى، كأنه يقول: إن هناك سُجَناء، وأنا قادرٌ عَلَى سجنِ النَّاسِ، فإذا لم تَتَّخِذْنِي إلهًا واتخذتَ إلهًا غيري، جعلتُكَ فِي جملةِ هَؤُلَاءِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ كَانَ سِجْنُه شديدًا؛ يَحْبِسُ الشخصَ فِي مكانٍ تحتَ الأرضِ وحدَه، لا يُبْصِر ولا يَسْمَع فيه أحدًا]. وهذا لَيْسَ شديدًا بما نَعْرِفُ من السجونِ، فهي أشدُّ من هَذَا بكثيرٍ، وفِرْعَوْن إِنَّما قَالَ: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ أما كيف يَسْجُنُهُ فالآيَةُ لم تَتَعَرَّض له، وأيضًا إذا كَانَ معروفًا أَنَّ سَجْنَهُ بهذه الكيفيَّة فهذا السِّجْنُ لَيْسَ شديدًا، بل فِي السُّجُون مِنَ التعذيبِ ما هُوَ أشدُّ، فنسمع أَنَّهُ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- يُؤْتَى بالشخصِ ويُجْعَل فِي مِثْل برميل، وفيه مساميرُ وتحته نارٌ، فهذا الرَّجُلُ لا يستطيع أنْ يَجْلِس؛ إن جلسَ خَرَقَتْهُ المساميرُ، وإنِ اتَّكأَ عَلَى أحدِ الجُدران كذلك، فهذا -وَالعِيَاذُ بِاللهِ- من الأساليب الَّتِي يَفْعَلُونها.

ونسمع أيضًا أَنَّهُ من الأساليب أَنَّهُم يجوّعون السِّبَاع الضارِيَةَ ثم يرسلونها عَلَى السجناءِ تَنْهَشُهُم، ولا يستطيعون الدفاعَ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ عندهم القُدْرَة، مثلما فعل الحَجَّاج بِجَحْدَرِ بنِ مالِكٍ، فَإِنَّهُ كَانَ منَ الخوارِجِ، فقَبَضَه، وكان شُجاعًا جِدًّا، فلمّا قَبَضَه حَبَسَه وأتى به، وقال: إنّا مُلْقُوك إِلَى الأسدِ، وإنّا سنقيِّد يَدَكَ، وأنت وشأنك، فأتى بأسدٍ فأجاعه ثلاثة أيامٍ، ثم قال له جَحْدَر: أَعطِني سيفًا، وشُدَّ إِحدى يَدَيَّ، فأعطاه السيفَ وشدّ إحدى يديه، ثم ألقاه إِلَى الأسد والأسد جائعٌ ثلاثةَ أيامٍ لم يأكلْ، يقولون فِي ترجمته: فلمّا وثبَ عليه الأسدُ ضَرَبَه فِي نَحْرِهِ بالسيفِ بيدٍ واحدةٍ، فخرَّ الأسدُ صَريعًا، فأطلقه الحجاجُ؛ لقوتِه وشجاعته[1]. فهذه الأساليبُ أيضًا ممَّا يَعْمِدُ إليه أهلُ الظلمِ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- بالسجناءِ.

والمهمُّ أنَّ الآيَةَ الكريمةَ لَيْسَ فيها ذِكْر ما يُفعل بمُوسَى، إِنَّما فيها أَنَّهُ سيكونُ مِنَ المسجونينَ؛ أي من جملةِ مَن يُسْجَن.



(١) تاريخ دمشق (١٢٢/١٤٨)، والبداية والنهاية لابن كثير (٩/ ١٤٥) ط إحياء التراث.

الآيات (٣٠- ٣٥)

• • • •

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء:٣٠-٣٥].

• • • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ له مُوسَى: ﴿أَوَلَوْ﴾ أي: أَتَفْعَل ذلك ولو ﴿جِئْتُكَ﴾]، إذا اقترنتْ همزةُ الاسْتِفهامِ بالعاطِفِ فإمَّا أن تقدّر بعدها جملةً يعطف عليها ما بعد الهمزة، أو تقدَّر الهمزة متأخرةً بعد حرفِ العطفِ، وجهانِ لأهلِ العلمِ، والوجهُ الأخير أسهلُ؛ لِأَنَّ الأول -كما يمر بك- قد لا يمكنُ فيه التَّقديرُ، وأما هَذَا فتقول: الهمزة للاستفهامِ، وهي مقدَّمة، والواو حرفُ عطفٍ، وَهُوَ مقدَّم حُكمًا، مؤخَّرٌ لَفظًا، والجُملة معطوفةٌ.

أَمَّا عَلَى ما ذهبَ إليه المُفسِّرُ هنا فَإِنَّهُ جعل الهمزةَ داخلةً عَلَى شيْءٍ محذوفٍ: [أتفعل ذلك ولو ﴿جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾]، كأن مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال له: عَلَى رِسلكَ، لا تَسْجُنِي، فأنا ما جئتُ بباطلٍ وسأُقيم البرهانَ عَلَى ما أتيتُ به: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾.

ومن لُطْفِ الله أنَّ فِرْعَوْنَ قَالَ: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾، وكان مُقْتَضَى جبَرُوتِهِ وطُغْيَانِهِ

أن يقولَ: ولو جِئْتَنِي بشيْءٍ مُبينٍ إنِ اتَّخَذْتَ إلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ، ولكن القلوب بيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فألَانَ اللهُ قلبَ هَذَا الرَّجُلِ المتكبِّر الجبَّار لِمُوسَى حين قَالَ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾، وهذا اللِّين قد يكون له سبب حِسِّيٌّ، فهو لِئَلَّا يَنْقَطِعَ أمامَ المَلأِ الَّذين عنده؛ لِأَنَّ مُوسَى إذا عرضَ عليهم خطَّة الرُّشْد ثم تَعَسَّف، وقال: ولو جِئْتَنِي بهذا، فربَّما حينئذٍ يَظْهَرُ أمامَ مَلَئِهِ أَنَّهُ مُعانِدٌ وأنه منقطِع، فقال: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ﴾.

ثم إنه أيضًا قد يكونُ ممَّا حَمَلَه عَلَى ذلك أَنَّهُ أرادَ أن يأتِيَ بِهِ ليكونَ إبطالُه أو دَعْوَى بُطْلانِهِ عَلَى يَدِهِ؛ لِأَنَّهُ ربَّما يأتي بِهِ مُوسَى فِي مكانٍ آخرَ فيغترّ بِهِ النَّاس -على زَعْمِه- فأراد أن يأتِيَ بِهِ أمامَه؛ لِيَتَمَكَّنَ مِن دَعْوَى بُطلانِهِ.

نقول: ووجهُ التليين -أو أن الله ألانَه له- أَنَّهُ ما قَالَ: لا تأتِ بشيْءٍ وسَأَسْجُنك ولو لم تأتِ؛ فقد عَرَضَ عليه أَنَّهُ يأتِي بشيْءٍ مُحْتَمَلٌ أنْ يأتِيَ به، ولكن فِرْعَوْن لَانَ بعضَ الشَّيْءِ للأسْبابِ الَّتِي ذكرناها:

أولًا: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ألانَه، والله عَلَى كل شيْء قديرٌ.

ثانيًا: الأسْباب الحِسِّيّة لأجلِ ألّا يُقال: إن حُجَّته انقطعتْ، وإنّ الرَّجُل عرَض عليه خطّة رُشْد فأَبَاها.

ثالثًا: لأجلِ أنْ يكونَ إبطالُ ما يأتي بِهِ مُوسَى عَلَى يدِهِ حَتَّى يُبينَ، وأنه أراد أن يتحدّاه، وإنْ كَانَ هَذَا ما يَمْنَع أن يقول: لا تأتِ به؛ لِأَنَّهُ هُوَ قادرٌ عَلَى أن يقولَ: لا تأتِ بِهِ بدون أن يتحدّاه؛ لِأَنَّ تحديَه له فيه احتمالٌ أنْ يأتِيَ به، وحينئذ تَنْقَطِع حُجَّة فِرْعَوْن.

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ﴾ بُرهان بيِّن عَلَى رِسالتي]، شيْء: فَسَّرَهُ المُفسِّرُ بِبُرْهانٍ، (مُبِينٍ): بِـ(بيِّن)، إذنْ فهي من (أبان) اللازِمِ؛ لأننا نقول: أبانَ بمَعْنى أظهرَ مُتعَدٍّ، وأبانَ بمَعْنى بانَ.

وقوله: [بيِّن عَلَى رِسالتي]، المُفسِّر قيَّدها بقولِهِ: (على رِسالتي) والأَوْلى أن يُقالَ: إنها أعمُّ مِن ذلكَ؛ عَلَى كلِّ ما قلتَ من الرِّسالَةِ، ومن وصفِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بأنه ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، و﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، و﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، و﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾، ولكن كَلام المُفسِّر لا يأباهُ إذا قلنا: إن المُرادَ بالرِّسالَةِ كلّ ما جاء بِهِ مُوسَى.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْن له: ﴿فَأۡتِ بِهِۦٓ﴾]، أي: بهذا الشَّيْءِ المُبين [﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيه].

والجُملةُ الشَّرطيَّة موصولةٌ فيما قبلها وليستْ منقطِعةً، يعني: إن كنتَ منَ الصادقينَ فأتِ به، وفي مثلِ هَذَا التركيبِ يقول بعضُ النَّحْويين: إنه لا حاجةَ إِلَى جَوابِ الشَّرطِ؛ لِدَلالةِ ما قبلَه عليه، وبعضهم يقول: إن جَوابَ الشَّرطِ محذوفٌ، ودلّ عليه ما قبلَه، ولا أعلمُ أن أحدًا قَالَ: إن جَوابَ الشَّرطِ ما سبقَ؛ وذلك لِأَنَّ جَوابَ الشَّرطِ لا يَتَقَدَّم عَلَى العاملِ، ولكن الصَّحيح الأَوَّل: أنَّ التركيبَ فِي مثلِ هَذَا لا يحتاجُ إِلَى جوابٍ، والفرقُ بينَ هَذَا وبينَ الَّذِي بعدَه أن الَّذِي بعده يقول: يجبُ أنْ يقدَّر الجَواب، ولكنه حُذِف للعلم به، ونحن نقول: إنَّ ما عُلِم فلا يحتاجُ إِلَى جَوابٍ إطلاقًا، فهذا هُوَ الصَّحيحُ، ومثلُ هَذَا يقعُ أيضًا فِي القَسَمِ.

وقوله: ﴿فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، ذَكَرنا أنَّ هَذَا الخُضوعَ من فِرْعَوْن يَتَضَمَّنُ ثلاثةَ أمورٍ، ومنها أن الله ألانَ قلبَه، فقد تحدَّاه بقولِهِ: ﴿فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن

كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾، مع أَنَّهُ فِي الحَقِيقَةِ هَذَا التحدي لولا أنَّ الله ألانه لكانَ ما تحدَّاه به؛ إذ مِنَ الجائزِ أن يقولَ له: لا تأتِ به، ومنَ الجائزِ بعدَ أنْ تحدَّاهُ أنْ يأتيَ بِهِ مُوسَى، فيكون كذلك حُجَّة عَلَى فِرْعَوْنَ.

فأتى بالآيتينِ العظيمتينِ، وهما آيةُ العصا، وآية اليَدِ، وقابَلَهُما فِرْعَوْن بمثلِ ما قابلَ بِهِ أوَّلًا، وَهُوَ التمويهُ، وادّعاءُ السِّحْر، وأنه ساحرٌ عَليمٌ جيِّدٌ فِي سِحْرِهِ. ثم قَالَ: ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء:٣٥]، ما قَالَ: أنْ يُخْرِجَنِي مثلًا، أو أنْ يُخْرِجَنا؛ تَرَفُّعًا وتعظُّمًا أن يبدوَ أمامَ مُوسَى بِمَظْهَرِ الضعفِ الَّذِي يهدِّد، ولكنه خاطبَ بِهِ قومَه.

ثم قَالَ: ﴿مِّنْ أَرْضِكُم ﴾؛ تهييجًا لهم؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لا شكّ أَنَّهُ لا يمكّن أحدًا لِيُخْرِجَهُ مِن أرضِهِ، ولهذا قَالَ: ﴿يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم ﴾ ولم يقلْ: من أرضِ مِصْرَ، ولا: منَ الأرضِ؛ تهييجًا لهم عَلَى مقابلةِ مُوسَى بما يقابلونه به، ولأجلِ أن يَكْرَهوا مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويرَوْا أَنَّهُ عدوٌّ مُسْتَعْمِرٌ.

وقوله: ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾ الباء للسببيَّة، أي: بسببِ سِحره، وفِرْعَوْن هنا قَالَ: ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم ﴾، والمَلَأُ ما قالوا: (بِسِحْرِه)، أما هُوَ فقال: (بِسِحْرِهِ)؛ لأجل أن يُشَدَّهُمْ إِلَى طلبِ السَّحَرَة الَّذين يقابلون فِرْعَوْن، قال فِي سُورَة الأعراف: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الأعراف:١٠٩-١١٠]، ولم يقل: (بسحره)، والفرق أن فِرْعَوْن أراد أن يشدّهم، وأن يُغريَهم بما يقابلون بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وقوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ لَيسَ المُراد بالأمرِ هنا هُوَ طلب الفعلِ عَلَى وجهِ الاستعلاءِ؛ لِأَنَّ فِرْعَوْن لنْ يَخْضَعَ لقومِهِ حَتَّى يطلبَ منهم أمرًا، ولكن المُراد بالأمرِ

المَشُورَة، يعني: فبماذا تشيرونَ عليّ؟ وسُمي المُشيرُ آمِرًا لِأَنَّهُ مُوجِّه؛ فإنَّ مَنِ استشاره لا شك أَنَّهُ يطلبُ توجيهه، فتكون مشورتُهُ بالأمرِ أمرًا به.

والإشارة هنا لمصلحتِهِ؛ لِأَنَّهُ إذا استشارهم فَإِنَّهُ يريد أن يَخْتَبِرَهُمْ ماذا يكون عندهم، ويريد أيضًا أن لهم وزنًا لأجلِ أن يَتَشَجَّعوا عَلَى هَذَا الأمر.

فائدة: قال تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القَصَص:٣٢]، وقال: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل:١٢]؛ لِأَنَّهُ -والله أعلم- أن الجيبَ فِي مقدِّمة الجسم، ويمكن لو أَنَّهُ ألقاها خَلْفَ ظَهْرِهِ ثم أَخرجها أن يقول قائل: إنه عمِل فيها عملًا لم نشاهدْه، لكن هَذَا أمامهم وظهرَ.

وكنت أتصوَّر بالأوَّل أَنَّهُ لَـمَّا كَانَ فِي العادةِ أنّ اليدَ إذا أُدخلتْ وتغيبتْ عن الشَّمْسِ والهواء ابيضتْ، فالظَّاهر أن الجِلْد كلَّه المسْتُور من الإِنْسَان أبيض، والبارز للشَّمْس والهواء أسمر، ولكن أنْ يتغيَّر بهذه السُّرعةِ فهذا خلافُ العادةِ، ففي العادةِ لا يتغيَّر إلا بعدَ مدَّة طويلةٍ، وهذه السُّرعة تدلُّ عَلَى أَنَّهَا ليستْ أمرًا عاديًّا، بل هُوَ أمرٌ خلافُ العادةِ، وهذه من آياتِ اللهِ.



الآيتان (٣٦، ٣٧)

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٣٦-٣٧].

إذا أرادَ الله أمرًا هَيَّأَ أسْبابَه، لو سُلِّطَ فِرْعَوْن عَلَى مُوسَى وأخِيه لَقَضَى عليهما، ولكن الله تعالى جعلَ لكلِّ شيْءٍ سببًا.

أشار المَلَأُ عَلَى فِرْعَوْنَ أنْ يُؤَخِّرَ أمرَ مُوسَى وهارونَ، وأنْ يَبعثَ فِي ﴿ٱلْمَدَآئِنِ﴾ جمع مَدِينة ﴿حَٰشِرِينَ﴾ جامعينَ، يعني: يُرسل إِلَى مَدَائِن مِصْرَ مَن يَجْمَع السَّحَرَة.

ولهذا جاء الجَواب: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾، وكان من المتوقَّع أن يقولَ: (يأتونك)، فما هُوَ الفرقُ بينَ (يَأْتُوكَ) وبين (يأتونك) من حيثُ المَعْنى؟

لو قَالَ: (يأتونك) لكانتْ صفةً لـ(حَاشِرِينَ)، أي: حاشرينَ يأتونك بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ، لكن المُراد خِلاف ذلك؛ لأن: (يَأْتُوكَ) أبلغُ من: يأتونك، حيثُ كانتْ جَوابًا للأمرِ، الَّذِي هُوَ لِلْمَشُورة، إذن (ابعث) أيضًا ليستْ أمرًا حقيقيًّا، فهي أمرٌ للمشورةِ: (ابعث يأتوك)؛ لِأَنَّهُ بمجرَّد بعْثك يأتونك به.

لكن لو كانتْ صفةً لـ(حَاشِرِينَ): (حاشرين يأتونك) لكان من الجائزِ أَلَّا يأتوا، فصفةُ الحاشرِ مَن يَجْمَعُ ويأتي بالسَّحَرَة، لكن قد يَتَهَيَّأَ له ذلك وقد لا يتهيَّأ،

أمّا إذا قَالَ: ابْعَثْ يأتوك، صار هَذَا مثلَ الشَّرطِ والجزاءِ، يعني: إنه إذا حصلَ بَعْثُكَ لَزِمَ منه النتيجةُ، وَهُوَ أنْ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ.

و(سَحَّار) هِيَ من بابِ المُبالَغةِ، أو هِيَ من بابِ النِّسبة، كما يُقال: بنّاء ونجّار وصنّاع، يعني: لِأَنَّ صنعتَه السِّحرُ، ولا يكون ذلك ولا يُنْسَبُ الْإِنْسَان إِلَى هَذِهِ الصِّفَةِ إلّا إذا كَانَ مُجيدًا فيها، فلا يُقال لِمَن بَنَى مرَّةً واحدةً: إنه بنّاء، ولا لِمَنْ نجَر مرةً واحدةً: إنه نجّار، وإنّما يُقالُ ذلك فيمَن أتقنَ المِهْنَةَ والصَّنعة.

إذن فالسحّارُ إمّا صيغةُ مبالغةٍ أو صيغةُ نِسبةٍ، والفرقُ بينهما ظاهرٌ؛ لِأَنَّ (سَحَّار) على مَعْنى المُبالَغة بمَعْنى كَثير السِّحر، ولكن (سَحَّار) على مَعْنى النِّسبة بمَعْنى أَنَّهُ مُتْقِن لهذه الصنعة؛ لِأَنَّهُ نُسب إليها.

والظَّاهرُ أنّ النِّسبةَ أَولى، يعني: بذي سحر قد أتقنَ هَذِهِ المهنةَ، فتكون للنسبةِ، ويُغْنِي عن المُبالَغةِ قولهم: (عَلِيم) يعني فائِق السِّحر، وقد يُقال: إن هَذَا يُغْنِي عن النِّسبةِ وإن (سَحَّار) صيغة مبالغة لكثرة سِحْرِه وإتقانه.

قال: ﴿سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ أي سَحَّار وعليم، ولهذا قد يَتَرَجَّح أَنَّهَا للْمُبالَغةِ وتكونُ النِّسبةُ مفهومةً من قولِه: ﴿عَلِيمٍ﴾.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ يفضُل مُوسَى فِي عِلْم السِّحر]، يعنِي: يَزِيد عليه، فعلى هَذَا طَلَبُوا أنْ يأتوا بسَحرةٍ يفوقون مُوسَى فِي الكمّ وفي الكيفِ، وفعلًا حصلَ هذا، وأتوا بِمَهَرَةٍ سَحَرَةٍ وبعددٍ كبيرٍ، ولكن لَيْسَ الأمر الَّذِي من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مثل السِّحر الَّذِي هُوَ خَيال لا حقيقةَ له.

• • ❁ • •

الآيــة (٣٨)

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الشعراء:٣٨].

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ وَهُوَ وقتُ الضُّحى من يَوْمِ الزِّينَةِ].

﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾ (أل) للعُمومِ، والجامعُ إما فِرْعَوْن وإما الحاشرونَ الَّذين ذهبوا إِلَى المدائنِ يَحشُرون النَّاس.

وقوله: ﴿لِمِيقَٰتِ﴾ اللامُ للتوقيتِ؛ كقولِهِ تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١]، أي: لوقتِ عِدَّتِهِنَّ.

جُمِعوا لهذا اليوم ﴿لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ لدى النَّاس، والذي فَرَضَ هَذَا اليوم -سبحان الله- مُوسَى والذي اقترحه مُوسَى، انظر كيف التَّفصيل! فمُوسَى هُوَ الَّذي يُحَدِّدُ الزَّمانَ والمكانَ، ﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾ [طه:٥٩]؛ لِأَنَّهُ واثقٌ بنصرِ اللهِ، ولهذا وَعَدَهُمْ يومًا يُسَمُّونه (يوم الزِّينة) بمنزلة عيدِ المسلمينَ، وأَمَرَهم أيضًا أن يكونَ فِي واضحةِ النَّهارِ ضُحًى؛ لِيَتَمَكَّنَ النَّاسُ من الرؤيةِ والمشاهدةِ عَلَى وجهِ التأنِّي والطُّمأنينة.

الآيتان (٣٩، ٤٠)

• ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء:٣٩-٤٠].

• ● ● •

القائل مُبهَم؛ لِأَنَّ القائلينَ كثيرون، يقولون: ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ والاسْتِفهام هنا للأمرِ، يعني: اجْتمِعوا، أو هُوَ للتشويقِ؛ كقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف:١٠]، لكن الأمر أوضح، يعنِي: أُمروا أنْ يجتمِعوا ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [الاسْتِفهام للحَثّ عَلَى الاجتماعِ والترجِّي عَلَى تقديرِ غَلَبَتِهِم، لِيَسْتَمِرُّوا عَلَى دِينهم، فلا يَتَّبِعُوا مُوسَى]، وما ذكره الْمُفسِّرُ مُحْتَمَلٌ، وَهُوَ التشويقُ الَّذِي أشرنا إليه، ويَحتمل أَنَّهُ للأمرِ، يعني: يأمرون النَّاسَ أنْ يَجْتَمِعوا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قولهم: ﴿إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ ألَا يُفهَم منه أَنَّهُم شاكُّون فِي انتصارِ السَّحَرَة عَلَى مُوسَى؟

فالجَواب: يمكن هَذَا أَنَّهُم شاكُّون، فهذا من بابِ التحرُّز، فما قالوا: لعلَّنا نَتَّبِعُ الغالبَ، أو الحقَّ، ثم إنَّه يَحتمِل قولهم: ﴿إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ أن هَذَا من بابِ الشَّرطِ المبيّن الواقِع؛ لأنَّهم سيغلبون.

وقال: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾، (لَعَلَّنَا) يعني مَعْشَر الأقباط جميعًا ﴿نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ دون مُوسَى، لكن بشرط: ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾، وهذا الشَّرطُ فِي ظَنِّهم أَنَّهُ مُتَحَقِّق، وأن السَّحَرَة سوف يَغلبون.

وفي قولهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ من إظهار التعصُّب ما لا يَخفَى؛ لِأَنَّ الواجبَ عليهم أن يقولوا: لعلَّنا نَتَّبع الغالبَ، لا أن يقولوا: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾، فقد يكونُ الحَقّ مع مُوسَى وقد يكون الحَقّ مع السَّحَرَة، فلو وُفِّقوا لقالوا: لعلَّنا نَتَّبعُ الغالبَ أو الحَقَّ، ولكنهم قالوا: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾.

ثم استدركوا فقالوا: ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ وهذا ما يُسَمَّى بـ(التحفُّظ) -في لُغَة العصر- يعني: كأَنَّهم حَكَمُوا بأَنَّ الغلبةَ للسحرةِ، لكن معَ تحفُّظ لِقَوْلِهم: ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾.

وفي قولِهم: ﴿ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ إشكال من الناحيةِ الإعرابيَّة؛ لأن: (هُمْ) ضمير، والخبر يكون مرفوعًا، فلماذا نُصب؟

نقول: (هُمْ) هنا ضميرُ فَصْلٍ لَيْسَ لها مَحَلّ منَ الإعرابِ، و(الْغَالِبِينَ) خبر (كانَ)، ومعلوم أنَّ خبر (كَانَ) يكون منصوبًا. وضميرُ الفَصْلِ له فوائدُ:

أولًا: تمييزُ الصِّفَةِ عنِ الخبرِ، مثل أن تقولَ: زيدٌ الفاضلُ، وزيدٌ هُوَ الفاضلُ، فإذا قلتَ: زيدٌ الفاضلُ، قد يكون (الفاضل) نعتًا والخبرُ لم يأتِ، أَمَّا إذا قلتَ: هُوَ الفاضلُ فقد حَدَّدنا أن (الفاضِل) خبرٌ.

ثانيًا: وكذلك من فَوائده حَصْرُ المبتدأِ بالخبرِ، (زيدٌ هُوَ الفاضل) يعني: لا غَيْرُه.

ثالثًا: التَّأكيد، يعني أنَّك إذا قلتَ: زيد هُوَ الفاضلُ، كأنك تؤكِّد ذلك: أَنَّهُ الفاضلُ دون غيره.

قال: [﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴾ الاسْتِفهام للحثِّ عَلَى الاجتماعِ]، قوله: ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ يعني: اجتمعوا كترغيب وحَثٍّ [والترجي عَلَى تقدير غلبتهم]، الترجي فِي قوله: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ [ليستمِرُّوا عَلَى دِينهم فلا يَتَّبِعُوا مُوسَى].

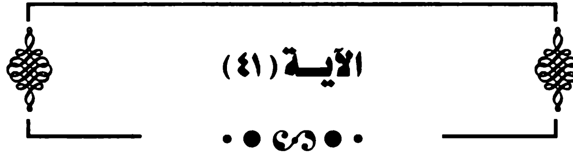
وهل هَؤُلَاءِ الَّذين ذهبوا يجمعون النَّاسَ هل فيهم نوعٌ مِنَ الإنصافِ؟

قالوا: ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴾ فيه نوعٌ من الإنصافِ؛ لِأَنَّهُ ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴾ اتَّبَعْنَاهُم، وإلَّا فلا. لكن تقديم اتِّباع السَّحَرَةِ وترجّي اتباعهم هَذَا هُوَ الَّذِي فيه نوعٌ من التعصُّب، وكان عليهم ألَّا يذكروا السَّحَرَةَ إطلاقًا، وأن يقولوا: لَعَلَّنا نَتَّبِعُ الغالِبَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فِي قوله: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ هل يمكنُ أن تكون للتعليلِ؟

فالجَواب: يُمْكِن، لكِن للترجِّي أَبْيَنُ.





۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء:٤١].

•• ••

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ يعني: لِفِرْعَوْن ﴿قَالُوا۟﴾ له: ﴿أَئِنَّ﴾ قَالَ: [بتحقيقِ الهمزتينِ، وتسهيلِ الثَّانيةِ، وإدخالِ ألفٍ بينهما عَلَى الوجهينِ]، التَّحقيق والتسهيل، ﴿أَئِنَّ﴾ هَذَا تحقيقٌ، وتسهيل الثَّانية (أَينَّ)، وإدخال الألف بينهما على الوجهين: (آئِنَّا)، (آيِنَّا)، فتكون القِراءَة عَلَى هَذَا أربعًا[1].

قال: ﴿لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ هَذِهِ اللامُ للتَّوكيدِ: ﴿لَأَجْرًا﴾، والمُراد بالأجرِ هنا المَثُوبَة الدُّنْيَوِيَّة والقُربى والزُّلْفَى منه، أو نقول: المثوبة الدنيويَّة فقط، لكن هُوَ زادَهُمُ القُربى والزُّلْفَى منه: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾، وهنا يقول: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ وقد يُقال: كيف دخلتْ لامُ التَّوكيدِ عَلَى الاسْتِفهامِ والاسْتِفهامُ إِلَى الآنَ ما وقع بعدُ، فكيف يؤكد؟

ولهذا نظائر فِي القُرآن، مثل قوله تعالى: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف:٩٠]، فكيف يَصِحُّ التَّوكيدُ معَ الاسْتِفهامِ والمستفهِم يسأل فإلى الآن ما تَبَيَّن له الأمرُ أَنَّهُ واقع، فكيف يؤكَّد؟

---

(١) السبعة في القراءات (ص:٢٨٩).

فيُقال: إن التَّأكيد هنا يُراد بِهِ تأكيدُ الجَوابِ، كأنه يقول: أتؤكّد لنا الأجرَ؟ أتؤكد لنا أنك أنت يوسف؟ أمَّا بالنِّسبة للسائل فلا يمكِن التَّوكيد؛ لِأَنَّهُ سائل مُسْتَفْهِم، ولا جمع بين الاسْتِفهامِ الَّذِي هُوَ جَهْل وبين التَّوكيدِ الَّذِي هُوَ عِلم مُحَقَّق.

فعليه نقول: الاسْتِفهام هنا عَلَى تقدير: أتؤكِّد لنا أنَّ لنا لأجرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ؟ الجَواب: قَالَ: نَعَمْ.

فهَؤُلَاءِ يُريدون الراكبَ قبلَ المَرْكَبَةِ، يَبْغُونَ الأجرَ، مثلما يقول بعض النَّاسِ إذا طُلب منه أن يكون إمامًا فِي مسجد: هل هناك شيْء؟ أو مؤذنًا، أو ما أشبه ذلك، فكذلك هَؤُلَاءِ؛ لِأَنَّ المقام مَقام انتصار حقّ عَلَى زَعْمِهِم، ومع ذلك قالوا: إنِ انتصرنا عَلَى الباطلِ -كما يَزْعُمُون- بالحقِّ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا؟ فقال لهم: نَعَمْ؛ يعني: لكم أجر.

و(نَعَمْ) حرف جَوابٍ، ويُقال: إن الجَواب سؤالٌ مُعادٌ، فالحرف نائبٌ عن السُّؤالِ، يعني: نعم لكم أجرٌ، ولهذا فِي هَذِهِ القاعدةِ، وَهُوَ أن حرف الجَواب إعادة لسؤال، لو قيل للرجل: أطلّقتَ امرأتك؟ فقال: نعم، وما قَالَ: هِيَ طالق، قَالَ: نعم، فهل تطلق؟

نقول: تطلق، لِأَنَّ حرف الجَوابِ إعادةٌ للسُّؤالِ، كذلك أيضًا لو قيل له: أَقبِلْتَ النِّكاح؟ فقال: نعم، انعقدَ النِّكاحُ. ولو قيل له: أعتقتَ عبدَكَ؟ فقال: نعم، عَتَقَ، أوقفتَ بيتَكَ؟ قَالَ: نعم. فلو أراد الكذِبَ فِي مثلِ هَذِهِ الأحوالِ، إنْ قلنا: أوقفتَ بيتَكَ؟ قَالَ: نعم، وَهُوَ يكذب، أطلقتَ امرأتك؟ قَالَ: نعم، وَهُوَ يكذب، فهل يقع الطلاقُ والوقفُ والعِتقُ، وما أشبهَ ذلك، أم لا يقع؟

نقول: أمّا الطلاق ففيه تفصيلٌ، وحقُّ الغيرِ يَقَعُ؛ لِأَنَّهُ يُؤْخَذ بالظَّاهرِ، فيُقال: هَذَا يدين، حُكْمًا لا يُقبل، وأمّا فيما بينه وبينَ اللهِ إذا لم يُحاكَم فَإِنَّهُ يُقْبَل، يعني: لو أنَّ زَوْجَتَه وَثِقَتْ بِهِ وقالتْ: إن الرَّجُلَ لَـمّا قيل له: أطلقتَ امرأتَكَ؟ قَالَ: نعم، أراد أنْ يَكذِب عَلَى صاحبِهِ، فإنها تَبقَى معه؛ لِأَنَّ ما ادّعاه مُحْتَمَلٌ، وإذا كَانَ محتملًا ولم ينازِع فيه مَن له الحَقّ وصدَّقه؛ فَإِنَّهُ يُقبل منه.

فـ(نعم) حرفُ جَوابٍ لُغةً وعُرفًا، ولا تأتي فِي اللُّغة ولا فِي العُرف استفهاميَّة، إلا إذا قُرِنت بشيْءٍ، مثل: نعم ماذا تقول؟ يعني: كأنه يقول: نعم هاتِ ما عِندَكَ، يعني: يستجيب.

فَإِنْ قِيلَ: هم يُسَمُّونَ العالِمَ عندهم ساحرًا؛ استدلالًا بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الزخرف:٤٩]، أو أَنَّهُ اتِّهام لِمُوسَى بأنه ساحرٌ؟

فالجَواب: لا، هَذَا غير صحيحٍ، فهم مُعْتَقِدُونَ أَنَّهُ ساحرٌ، وقولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ من بابِ التهكُّم.



الآيــة (٤٢)

• • ❀ • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الشعراء:٤٢].

• • ❀ • •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا ﴾ أي: حِينَئِذٍ]، ولكن هَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، فتفسير (إِذًا) بـ(حينئذٍ) غيرُ صحيحٍ؛ لِأَنَّ (حينئذٍ) للماضي، لكن (إِذًا) أي: إذا غلبتموه إذا كنتم الغالبين ﴿لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ يعني: لديّ، فكأنه زادهم عَلَى ما طلبوا القُربى منه، وإنَّما وعدهم بذلك تشجيعًا لهم عَلَى هَذَا الأمر، فأجابهم عَلَى ما سألوا وزيادةً؛ تشجيعًا لهم.

والتنوين فِي (إِذًا) عِوَض عن جمعٍ، يعني: إذا غلبتموه.

وقوله: ﴿ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ اللام للتَّوكيدِ.

وقال: ﴿لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ إشارةٌ إِلَى أَنَّهُ سَيَجْعَلُهُمْ فِي حاشِيَتِهِ؛ لِأَنَّهُ ما قَالَ: لَأُقَرِّبَنَّكُمْ، قَالَ: ﴿لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ يعني: إنكم تكونونَ فِي جملةِ الحاشيةِ الَّذين هُم أقربُ النَّاس إليّ.

• • ❀ • •

الآية (٤٣)

• • • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ [الشعراء:٤٣].

• • • •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾ -بعدما قالوا له: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف:١١٥]-: ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾، فالأمر فيه للإذنِ بتقديمِ إلقائِهِمْ تَوَصُّلًا بِهِ إِلَى إظهارِ الحقِّ].

قوله: ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ مِثْلَمَا قال المُفسِّر: بعدَ أن قالوا: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف:١١٥]، قَالَ: ﴿أَلْقُواْ﴾، هَذَا الأمر يقول المُفسِّر: إنه للإذنِ.

ويَحتمل أن يكون للتحدِّي، ولهذا قَالَ: ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾. و(ما) لصلة الْعُمومِ، يعني: ألقوا ما تريدون ممَّا تُلْقُونه، فأنا لا أَكْتَرِث بِهِ ولا أَهْتَمّ به، ويدلُّ عَلَى ذلك أَنَّهُ طَلَبَ أن يكونوا هم المُلْقِينَ؛ لأجلِ أن يكونَ هُوَ الغالبَ بعدهم؛ لِأَنَّهُ لو أَلقى عصاهُ فصارتْ ثعبانًا مُبِينًا فماذا تَصْنَع وليسَ أمامها شيْء؟

فأمرهم أن يُلْقُوا هم أولًا؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ واثقٌ بوعدِ اللهِ، فهو يَنْطِق من مَنْطِقِ القوّة، يقول: أنا لا أَكْتَرِث بكم، أَلْقُوا ما تريدون: ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾، والإبهامُ هنا للْمُبالَغة، يعني: ألقوا الَّذِي تريدون ممّا تُلْقُونه، وفي قوله: ﴿مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ بالجُملةِ الاسْميةِ دليلٌ عَلَى أَنَّهُ مهما كانوا متَّصِفين بِهِ من الإلقاء؛ فَإِنَّهُ لا يهتمّ به.

الآيــة (٤٤)

• قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الشعراء:٤٤].

يقول: ﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ ﴾ أعوذُ باللهِ ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾. ﴿حِبَالَهُمْ ﴾ يعني: الَّتِي يَسْحَرُون النَّاس بها، ﴿وَعِصِيَّهُمْ ﴾ الَّتِي يسحرون النَّاس بِهَا، وهم يُلْقُون هَذِهِ الحبالَ وهذه العِصِيّ فتكون فِي أَعْيُنِ النَّاسِ ثَعابينَ وحيَّاتٍ، وأيضًا تَظْهَر بِمَظْهَر الكثرة وتملأ الواديَ، وهي حقيقةً ليستْ ثعابينَ وحيَّاتٍ، إذن السِّحرُ هُوَ حقيقة، وليس خيالًا.

والحِبال: جمعُ حبلٍ، والعِصِيّ: جمعُ عَصًا، وتلك الحبال والعِصِيّ يُلْقُونها لِيُوهِمُوا النَّاسَ بِسِحْرِهِم أَنَّهَا حيَّات وثعابِين، حَتَّى مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خاف وأوجسَ من هَذَا خِيفةً لَـمَّا رأى هَذِهِ الحيَّات والثعابين تُقبِل إليه، ولكن الله قال له فِي تلك الساعة: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ﴾ [طه:٦٨-٦٩]، وقالوا لَـمَّا أَلْقَوْها: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ والباء للسببيَّة، وعِزَّة فِرْعَوْن: غَلَبَتُه وقَهْرُه، وفي تقديمهم هنا للعزةِ دليلٌ عَلَى أَنَّهُم لا يَعْتَزُّون بغيرِه، وأَنَّهم لا يَرَوْنَ أَنَّهم يَنْتَصِرون بِسِوَى عِزته.

والسِّحر حقيقةٌ، لكن باعتبارِ ما سُحِر بِهِ خيالٌ، حقيقةٌ لِأَنَّهُ أثّر فِي الرؤيةِ،

وأثّر بدلًا مِن أن يَرَى الْإِنْسَان هَذِهِ الحبالَ حِبَالًا وعِصِيًّا صار يراها ثعابينَ وحيَّاتٍ.

إذن فهذه حقيقةٌ، لكن بالنِّسبةِ لِمَن يراهُ فليسَ مُتَغَيِّرًا عن حقيقتِه، فالحبالُ حبالٌ، والعِصِيّ عِصِيّ، ولو رآها مَن لم يَصِلْ إليه السِّحرُ لرآها حقيقةً: حِبَالًا وعِصِيًّا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هل يُقْتَلُ العائنُ؟

فالجَواب: لا، الصَّحيحُ أَنَّهُ لا يقتلُ إلَّا إذا تَعَمَّدَ القتلَ، إذا قَالَ: أنا أقتلُ فلانًا.

فإذا أكّد يُحْبَس، وَهُوَ يجب حبسه عَلَى كل حالٍ، مثلما قال أهل العلم، ولكن الغريب أن هَذَا مشهورٌ فِي الزمنِ السابقِ بينَ النَّاسِ، والوُلاة أقوياءُ والأمراءُ أَقوى مركزًا من اليومِ، حَتَّى أمراء البُلدان، والقضاةُ موْجودونَ وكَلامُ الفقهاءِ أيضًا الحنابلة، فالمذهب أَنَّهُ يجب أن يُحْبَس هَؤُلَاءِ، ولكن مع ذلك ما فِي عُمُرنا سمِعنا أَنَّهُم حُبِسوا، وإلَّا لو حُبسوا لقلَّ الشرُّ.

وأمَّا إذا كَانَ ما قَصَدَ قَتْلَه ولكن ماتَ، فهذا خطأٌ، يَرْمُونَه بالدِّيَة، عَلَى أن بعض العلماء يقولون: لا يُقتل حَتَّى وإنْ كَانَ تعمَّد قتلَه؛ لِأَنَّ هَذَا السلاح سلاح خَفِيّ باطنٌ، وبعضهم قَالَ: يقتل بمثله بإيجاد واحد يحسده قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل:١٢٦]، لكن نخاف أن يُشَجِّع هَذَا الَّذينَ يصيبون الناس بالعين.

فإن قال قائل: فبِمَ يعالَج الْإِنْسَان إذا أُصيب بعينٍ؟

فالجَواب: بالقِراءَة، ويعالج بالحِسّ معالجةً حِسِّيَّة، فيُؤْتَى بالعائنِ ويتوضأ، ويُؤخذ ما يتناثر منه، ويسقى عَلَى هذا، ويُرشّ بِهِ رأسُه من فوق عَلَى جهةِ ظَهره،

وبإذن الله يَبْرَأُ. وعند النَّاسِ شيْء لَيْسَ معروفًا فِي السنّةِ لكنَّه مُجَرَّب، أَنَّهُ يأخذ من ثِيابه التي تحمل من عرقه إن كانت طاقية أو غُترة أو (فنيلة) أو سروالًا، ويغسل، ويُؤخذ غُسالته ويشربه المصابُ، ويَنْتَفِعُ.

والعَيْنُ لا تأتي إلَّا عَلَى غَفْلَةٍ، وأكثر ما تأتي أيضًا مَن يخافُ منها.

إذن فالعلاج أَنَّهُ يتوضأ ويرش عَلَى بدنه؛ عَلَى الأعضاءِ زِيَادَةً عَلَى الوضوء.

ويَزْعُمُونَ أن الْإِنْسَانَ العائِنَ إذا صُلِّيَ عليه صلاةَ الجنازةِ أَنَّهُ يكفِّر، ولكن هَذَا لَيْسَ بصحيح.

والعَيْن مَنْشَؤُها الحسدُ، ولهذا قيل فِي قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق:٥]: العائن إذا عان.

الله يرحمه شيخنا، كَانَ يدرسنا باللَّيلِ بينَ العشاءينِ، ومرَّت الطيورُ هَذِهِ الَّتِي تَصِيح باللَّيل، وأظنُّها يسمونها البطّ، ورفعت رأسي، فقال هو: إن صَيدَ العلمِ أفضلُ -أو خيرٌ- من صيدِ الطيورِ! وَهُوَ صحيحٌ ما فيه شكّ، وأنا أَجزِم جَزمًا أن الْإِنْسَان الَّذِي يَلْتَفِت يقينًا (بيروح)، وَهُوَ ما يَلْتَفِت إلا مُؤْتَمِرًا بأمرِ قلبِه، لا يمكن أنْ يلتفتَ إلا بهذا.

وقولهم: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أكَّدوها بـ(إنّ) واللامِ؛ لأنَّهم يَعْتَقِدُون تلكَ الساعةَ أَنَّهُ لا أحدَ أقوى مِن فِرْعَوْنَ، وأنَّهم بِعِزَّتِهِ سَيَغْلِبُون لا مَحَالَةَ، ولهذا أكَّدوها بقولهم: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، وأتَوْا بالجُملةِ الاسْميَّة إشارةً إِلَى أن هَذِهِ الغَلَبَة ستدومُ وتستمِرُّ؛ لِأَنَّ الجُملةَ الاسْميَّةَ تَدُلُّ عَلَى الثبوتِ والاستقرارِ والدوامِ.

وفي قولهم: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ﴾ إذا أَعْرَبْنَا (نحن) ضميرَ فصلٍ ففيه ما يُستفادُ من

ضميرِ الفصلِ، وَهُوَ التَّأكيدُ والحصرُ والفصلُ، يعني: إنا لنحنُ الغالبونَ دونَ غيرنا بهذه العزةِ العظيمةِ، الَّتِي كانوا يَعْتَقِدُونَهَا حينذاكَ.

ومن فوائد الآية:

أن مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما قَالَ: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ أَلْقَوْا حِبالهم وعِصِيَّهم، واستعانوا بغيرِ مُعِين؛ فقالوا: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.



الآيــة (٤٥)

• • ● ● •

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء:٤٥].

• • ● ● •

قال الله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾ ألقى مُوسَى عصاه بوحيٍ خاصٍّ منَ اللهِ، كما فِي سُورَةِ طه: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا﴾ [طه:٦٨-٦٩]، فألقى مُوسَى عصاهُ، ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بحذفِ إحدى التاءينِ من الأَصْلِ، تَبْتَلِع ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾]: (تَلَقَّف)[1] ولم يُشِرْ المُفسِّر إِلَى القِراءَة الثَّانيةِ، وهي (تَلْقَف)، أمَّا قِراءَة: (تَلْقَفُ) فليس فيها حذف إحدى التاءينِ، وأما (تلقَّف) ففيها حذف إحدى التاءين، وأصله: (تَتَلَقَّف)، ومعناهما واحد، يعني: تَبْتَلِع، لكن (تلقّف) تفيد معنًى زائدًا عَلَى (تلْقَف)، فهي تفيد التَّتَبُّع، يعني: كأنها جَعَلَتْ تتبع حَتَّى أَفْنَتْهَا كلَّها؛ لِأَنَّهُ إذا كانتِ الحبالُ أمامَها كثيرةً فلا تتبعها، فأيُّ جهةٍ تأخذُ تلقفُ، لكن لَـمَّا فَنِيَتْ وقلّتْ صارتْ حَبلًا هنا وحبلًا هنا، فهي تَتَلَقَّفُهُ: تتبعه.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ يَقْلِبُونه بِتَمْوِيهِهِمْ، فيُخَيِّلُون حِبالَهم وعِصِيَّهم أَنَّهَا حَيَّاتٌ تَسْعَى]، ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ الإفكُ: الكَذِب، وهذا كَذِب بالفعلِ وليسَ بالقولِ، فهذا كذب فعليٌّ؛ لِأَنَّ الكذبَ القوليَّ يكون باللسانِ، وَهُوَ إخبارُ

---

(١) السبعة فِي القراءات ص٢٩٠.

الْإِنْسَانِ بما لا يُوافِق الواقعَ، والكذبُ الفعليُّ يكون بالفعلِ، وَهُوَ إظهارُ الْإِنْسَانِ الفعلَ بخلاف الحَقِيقَةِ، فهَؤُلَاءِ أظهروا الحبالَ والعِصِيَّ حَيَّاتٍ، لكنها ليستْ كذلك، ليستْ حياتٍ، وإنَّما هِيَ حبال وعصيٌّ.

وقد زعم بعضُ العلماءِ أن السِّحرَ لا حقيقةَ له، واستدلُّوا بقوله: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:٦٦]، والصَّوابُ أن له حقيقة، وحقيقتُه هَذَا التخييلُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هل يؤثِّر السِّحرُ؟

فالجَواب: نعم، يؤثِّر فِي التصوُّر، وفي الإحساسِ، وما أشبهَ ذلك، أمَّا أن يؤثِّر بقلب الحقائق، فلا؛ لِأَنَّ هَذَا من صفاتِ الخالِقِ.



الآيات (٤٦- ٤٨)

• • ● • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الشعراء:٤٦-٤٨].

• • ● • •

لَـمَّا رأى السَّحَرَة، وهم أعلمُ النَّاسِ بالسِّحرِ وآثارِه وتأثيرِه، لَـمَّا رَأَوْا ما تَفْعَلُه هَذِهِ العصَا الَّتِي وَضَعَها مِن يَدِهِ وهم يُشاهِدون، عرَفوا أن الأمر لَيْسَ بسحرٍ؛ لِأَنَّ سِحْرَهم أقوى ما يكونُ من السِّحرِ وأكثره.

وكان السِّحرُ فِي ذلك الوقتِ أيضًا شائعًا، ولهذا جاءتْ آيةُ مُوسَى بشيْءٍ يُشْبِهُه؛ بنوعٍ منه، ولكن هم عرَفوا أن هَذَا لَيْسَ بسحرٍ، وأنه فوقَ طاقةِ السَّحَرَةِ، فماذا حصل؟ ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾.

قال: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ﴾ ولم يقلْ: فسجدَ السَّحَرَةُ، كأن هَذَا السُّجود أمر اضطراريّ؛ لقوّة ما دَفَعَهم إليه، يعني: لا كأنه أمر اختياريّ، لكن لقوة الدافعِ صار كأنَّهم أُلْقُوا إلقاءً بدونِ اختيارٍ.

و﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ﴾ (أل) للعُمومِ، يعني: جميع السَّحَرَة مع مَهارَتِهم ومَعْرِفَتِهم أُلْقُوا سَاجِدِينَ لله، بدليل قولهم: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾، وليسوا ساجدينَ تعظيمًا لعصا مُوسَى؛ لِأَنَّ تصريحهم بالإيمانِ دليلٌ عَلَى أَنَّهُم ساجدونَ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ هَذَا البدلُ من أحسن ما يكون بعد الْعُمومِ

﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لِأَنَّ مُوسَى كَانَ يقول: إنه رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فقالوا: ربّ العالمينَ، وكان فِرْعَوْن أيضًا يقول: إنه ربُّ العالمينَ، فأَخرجوا ربوبيَّة فِرْعَوْن بقولهم: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾؛ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ وإنْ كَانَ يدّعي أَنَّهُ ربّ العالمينَ، لكنّه لَيْسَ ربَّ مُوسَى وهارونَ؛ لِأَنَّ مُوسَى وهارون يُنكرانِ رُبُوبِيَّته، فلذلك كَانَ هَذَا البدلُ من أحسن ما يكون فِي بيانِ المُرادِ.

وإتيانهم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ دون أن يأتوا مباشرةً بربّ مُوسَى وهارونَ، إشارة إِلَى أَنَّهُم آمَنُوا برسالةِ مُوسَى؛ لِأَنَّ مُوسَى قَالَ: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ما قَالَ: أنا رسولُ ربي، قَالَ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، هَذِهِ هِيَ فائدةُ البدلِ بقوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، والترتيب هنا بين مُوسَى وهارون ترتيبٌ يطابقُ الواقعَ؛ فإِنَّ مَرْتَبَةَ مُوسَى أعلى من مرتبةِ هارونَ؛ لِأَنَّ مُوسَى من أُولي العزمِ.

ولكن الترتيب اختلفَ فِي سُورَة طه: ﴿بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠]، من أجل مراعاةِ الفواصلِ، وفي هَذَا دليلٌ عَلَى أَنَّ القُرآنَ الكريمَ وكل كَلام فصيح قد تُراعى فيه الفواصلُ والنغماتُ، لكن فِي الأمرِ المعلومِ، فمن المعلوم أن مُوسَى أفضلُ من هارونَ، وترتيبه فِي الذكرِ لا أحدَ يَتَوَهَّمُ منه أن هارونَ أعلى منه مرتبة، فالتقديمُ له غايةٌ، ولهذا قال الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ»(١).

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ لِعِلْمِهِم بأنّ ما شَاهَدوه منَ العَصا لا يتأتّى بالسِّحرِ]، فلما آمنوا هَذَا الإيمانَ أَعْلَنُوه إعلانًا غيرَ مُبالينَ بما يَنْتُجُ وراءَ ذلك؛ لِأَنَّ الإيمانَ الصادقَ يَقضي عَلَى كلِّ عاطفةٍ، فعاطفةُ حبِّ النَّفسِ أمرٌ جِبِلِّيٌّ فِطْرِيّ، لكن الإيمان يَقضي عليها، ولهذا الْإِنْسَان يُعَرِّض نفسَه للهلاكِ حينما

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

يخرجُ مجاهدًا فِي سبيلِ اللهِ وَهُوَ يعرِف أن سيوفَ القومِ قد تَبْتُرُ رَقَبَتَهُ، لكنه لا يبالي، وكذلك الْإِنْسَان يَنسَى العاطفةَ بينه وبين أقاربِه، حَتَّى إن الرَّجُل لَيَقْتُلُ أباهُ إذا كَانَ من الكفّار.

فهنا قالوا معلنينَ هَذَا الإعلانَ غيرَ مُبالينَ بما يَنْتُجُ، وفي ظَنِّي أَنَّهُم سَيَعْلَمُون أَنَّهُ سَيَنْتُجُ عن ذلك أمرٌ عظيمٌ؛ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ جاء بهم كسلاحٍ له، فإذا خَانُوه فِي هَذَا المجتمعِ العظيمِ، وَهُوَ يومُ الزِّينة، فسَيَنْتُجُ عن هَذَا العُقوبات، إلا أَنَّهُم غيرُ مبالينَ بهذا؛ لِـمَا أشرنا إليه قبلُ.

فائدة: فِي سُورَة طه قال تعالى: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه:٧٢-٧٤]، قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ تَبَعٌ مِن كَلامهم هم، لكن: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ قد يَحْتَمِل أن يكونَ من كَلامهم أو من كَلام اللهِ.

فوائد الآيَات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أن الحقّ إذا تَبَيَّنَ كَانَ أعلم النَّاس بِهِ مَن يَعْرِف هَذَا الحقَّ؛ فإن مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أوّل مَن تَبَيَّنَ له أن ما جاء بِهِ الحقّ، وأنه لَيْسَ بسحرٍ؛ هم السَّحَرَةُ الَّذين عَرَفُوا السِّحرَ وباطلَه، فالذي يعرِف الحقّ هُوَ الَّذِي يعرِف الباطلَ، أما مَن لا يعرف الباطلَ فَإِنَّهُ قد تَلْتَبِس عليه الأمورُ، ولهذا قيل: «بِضِدِّها تَتَبَيَّنُ الأشياءُ»[1].

---

(١) ديوان المتنبي (١/ ٢٢).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: مُبادَرَةُ السَّحَرَة إِلَى الإيمانِ، حَتَّى إن الإيمانَ كَانَ كأَنَّه أمر اضطراريّ؛ لقوله: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾؛ لقوَّةِ ما شاهدوا من الآياتِ الَّتِي لم يَتَمَكَّنُوا معها أن يتأخَّروا، فلَمَّا رَأَوُا الآياتِ ما أَمْكَنَهُمْ أن يتأخَّروا عنِ الإيمانِ، فكأنَّهم أُلقوا اضطرارًا.



الآيتان (٤٩، ٥٠)

• • • •

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٤٩-٥٠].

• • • •

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ﴾ هَذَا قول فِرْعَوْن، وكلمة ﴿قَالَ﴾ أتتْ بالفصلِ وليسَ بالوصلِ؛ لِأَنَّ الوصلَ هُوَ العطفُ بالواوِ، ومعَ ذلك فهي مفصولةٌ لكن تدلُّ عَلَى وقوعِ هَذَا الشَّيْءِ مباشرةً كأنه جَوابٌ عن فِعلهم.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالَ ءَامَنتُمْ﴾ بتحقيق الهمزتينِ، وإبدال الثَّانيةِ ألفًا ﴿لَهُۥ﴾ لِمُوسَى ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ﴾ أنا ﴿لَكُمْ﴾]، هَذَا أمرٌ لا يكونُ عادةً من هَؤُلَاءِ ولا من غيرهم أن يؤمنَ أحدٌ لعدوِّ فِرْعَوْن بدونِ إذنِه، وفي قوله: ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ إشارة إِلَى أن الرَّجُلَ قد سيطرَ عليهم سَيطرةً تامَّةً، وأنَّهم لا يَتَصَرَّفون بشيْءٍ إلا بإذنِهِ. والاسْتِفهامُ فِي قوله: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ للإنكارِ والتوبيخِ.

فَإِنْ قِيلَ: فِي سُورَة الأعراف: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [الأعراف:١٢٣]، وهنا: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾؟

فالجَواب: فِي الأَصْل بينهما فرقٌ: آمَن به: أقرَّ بِهِ واعترفَ الإيمان الكامل، وآمن له: مُضَمَّنة مَعْنى انقاد. فإذا جمعتَ بين الآيتينِ هنا صارتْ أبلغَ، يعني:

كأنَّهم آمَنُوا إيمانًا به، ثم آمنوا له فانقادوا له.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ انظر التمويه، هَذَا غريبٌ، فهذا فِي الحَقِيقَةِ مظهرُ ضعفٍ منه، كيف يكون كَبيرَهم الَّذِي عَلَّمَهُمُ السِّحرَ وهم قد حُشِروا من المدائنِ وليسوا مع مُوسَى فِي مدينتِه، وكيف يُقال: إنه علَّمَهُم، بل إنهم فِي مدائنَ متباعدةٍ، وكيف يمكن أن يُقال: إنه كبيرهم الَّذِي علّمهم السِّحرَ وهم قد وضعوا حبالَهم وعِصِيَّهم لِيَقْضُوا عليه؟! فإن مَن عَلّمهم السِّحرَ لا بدَّ أن يخافوا منه، وكيف يُقال: إنه علّمهم السِّحرَ وهم قد استعزُّوا بعِزَّة فِرْعَوْنَ ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، وهم يعلمون أن فِرْعَوْن خَصمٌ لِمُوسَى، لكن هَذَا من باب التمويهِ عَلَى قومه، كما قال الله فيهم: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف:٥٤]، يعني: عقولهم بالنِّسبة لِفِرْعَوْن لا شيْء، فهم خَفِيفُو العقولِ والتفكيرِ، ولا يعرفون شيئًا سوى فِرْعَوْن، أَنَّهُ إِلَهُهم!

قال: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ وقلنا: إن هَذَا باطلٌ من الأوجهِ الَّتِي ذَكَرْنا، وإنه لا يُمْكِن، لكن هَذَا مَظْهَر ضعفٍ من فِرْعَوْنَ بلا شكّ، يعني: كأنَّه يقول الآن: أنتمُ اجْتَمَعْتُمْ عليّ، وتحاشدتُمْ عليّ، أنتم ومُعَلِّمُكُمْ، ثم لجأَ إِلَى التهديدِ كعادته قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما ينالكم مني ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾].

قوله: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هَذَا تهديدٌ بأمرٍ مُبْهَمٍ، والإجمالُ ثم التفصيلُ من فوائدِهِ تشوّقُ المخاطَب إِلَى تبيُّنِ هَذَا المُجمَل، وإذا كَانَ وَعيدًا فَإِنَّهُ يَتَشَوَّقُ ذلك لكنه يكون خائفًا جِدًّا؛ لِأَنَّهُ لا يَدرِي ما هَذَا المبهَمُ الَّذِي وُعِدَ به، بَيَّنَهُ بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾ واللامُ واقعةٌ فِي جوابِ القَسَمِ، بدليل أَنَّهُ مؤكّد ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾.

وقوله: ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ يعني: مُتَخالِفَةً؛ إذا قطعَ اليدَ اليُمنى قطعَ الرجلَ اليسرَى، وإذا قطعَ اليدَ اليسرَى قطعَ الرجلَ اليمنَى، وليس مَعْنى: ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أني أُخالِفُ بينكم فمِنكم مَن أُقطّع يديه ومنكم من أُقطع رِجليه، بل هَذَا واقعٌ عَلَى مَحَلٍّ واحِدٍ، فالخلافُ فِي مَحلٍّ واحِدٍ، يعني: كل واحدٍ مِنكم أُقَطِّعُ يَدَهُ ورجلَه متخالفتينِ، وهذا فِي شَريعتنا حدّ قطَّاع الطَّريقِ، يعني: أحدُّ ما يُحَدّ بِهِ قُطّاع الطَّرِيقِ هُوَ هذا؛ أنْ تُقطَّع أَيْدِيهم وأَرْجُلُهُمْ مِن خِلافٍ.

قال تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: بعد أنْ أفعلَ هَذَا لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أجمعينَ، يعني: كما قال فِي آيةٍ أُخرى: ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١]، وهنا يشيرُ إِلَى أنَّ فِي مِصْر نَخْلًا، فهو وَعَدَهُمْ بذلكَ. والصَّلْبُ: الرَّبْطُ، وهل يُشْتَرَطُ أنْ يكونَ المصلوبُ ممدودَ اليدِ أو لا؟ لَيْسَ بشرطٍ، فالمهمُّ أن يُرْبَطَ رَبطًا محكمًا عَلَى خشبةِ الصَّلِيب.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: الصَّلْبُ بعدَ الموتِ أم قبله؟

فالجَواب: قبلَ الموتِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾.

وإنْ قالَ قائلٌ: الصَّلْبُ فِي آياتِ قُطَّاع الطَّريقِ قبلَ الموتِ أم بعدَه؟

فالجَواب: الصلبُ فِي آياتِ قُطَّاع الطَّريقِ اختلفَ فيه العلماءُ: هل يكونُ قبلَ الموتِ أم بعدَهُ، والمشهورُ فِي مَذْهَبِنا أَنَّهُ بعد الموتِ، ولكن الصَّحيح أَنَّهُ قبلُ؛ لأنَّهم إذا صُلبوا قبلُ نالُوا الأَلَمَيْن: الحِسِّيّ والنَّفسيّ، أو القلبيّ، لكن إذا صُلِبوا بعد الموتِ فلا يُؤْلِمُهم شيْءٌ أبدًا.

ثم إن تَصْلِيبِهِمْ بعدَ الموتِ لا فائدة منه، لهذا لَـمَّا قيل لأسماء بنتِ أبي بكرٍ -رضِي الله عنه وعنها-: إن الحَجَّاج فعلَ كَذَا وكذا بعبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ بعدَ موتِهِ،

قالت رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «وَمَا يَضُرُّ الشاةَ سَلْخُ جِلْدِها بعد موتِها؟»[1]؛ لِأَنَّ هَذَا الشَّيْءَ لا يؤثِّر.

فكان جَوَابهم أن قالوا: ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿لَا ضَيْرَ﴾ لا ضررَ علينا فِي ذلكَ]، ما شاء الله! يعني: لقوَّة إيمانهم قالوا: هَذَا لا يَضُرُّنا، ولا يؤثِّر، وفي هَذَا من التحدِّي وإظهار القوَّة والشجاعة ما هُوَ ظاهرٌ؛ لأنَّهم يخاطبون أعتَى أهل الأرضِ، وَهُوَ فِرْعَوْنُ، يقولون: لَا ضَيْرَ، افعلْ ما تريدُ، لا يُهِمُّنَا، وصَدَقُوا أَنَّهُ لا ضيرَ عليهم فِي ذلك ما دامَ تَعذِيبُهم هَذَا فِي ذاتِ اللهِ، فهم هنا إنَّما يعذَّبون فِي ذاتِ اللهِ فقطْ، وهذا لا يَضُرُّهُمْ أبدًا، بل يَزيدهم رفعةً، ولذلك كَانَ ذِكْرهم إِلَى يومِ القيامةِ، فأشادَ اللهُ تعالى بذِكْرِهِمْ فِي القُرآنِ، وسَيَبْقَى إِلَى يومِ القيامةِ، وهذا فيه أكبرُ منفعةٍ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ بعدَ مَوتِنا بأيِّ وجهٍ كَانَ ﴿مُنقَلِبُونَ﴾ راجعونَ فِي الآخرةِ]، يعني: يقولون: مهما كَانَ حَتَّى لو بَلَغْنَا إِلَى الموتِ فإنَّ النهايةَ أننا سَنَرْجِعُ إِلَى رَبِّنا، ورُجُوعُنا إِلَى ربِّنا خيرٌ من الدنيا؛ لأنَّهم يَرْجِعُون إِلَى نَعيمٍ أَبَدِيٍّ لا يُماثِلُه شيْءٌ من نَعيم الدُّنيا، وفي سُورَةِ طه: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه:٧٢]، يعني: اقضِ ما تريدُ، غاية ما يكونُ أنْ يكونَ تَعْذِيبُكَ مُوصِلًا إِلَى الموتِ، وإذا أوصلَ إِلَى الموتِ فالنتيجةُ ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾، ممَّا يدلُّ عَلَى أَنَّهُم صادقونَ فِي الإيمانِ، وأن إيمانَهم راسخٌ جِدًّا.

وفي هَذَا من آياتِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وبيانِ قُدْرَتِهِ ما هُوَ ظاهرٌ، ففي لحظةٍ واحدةٍ انقلبَ الكفرُ العظيمُ إِلَى إيمانٍ عَميقٍ، فبمجرَّد أنْ رَأَوْا ما تَفْعَلُه عَصَا مُوسَى انقلبوا

(١) شرف المصطفى لأبي سعد الخركوشي (٢/ ٣٣٠).

بعدَ الكفرِ مُؤمِنينَ، ولهذا قال بعضُ العلماءِ: أَصْبَحوا كفّارًا سَحَرَةً، وأَمْسَوْا شُهَدَاءَ بَرَرةً[١]. وهذا صحيحٌ أَنَّهُم كانوا بَرَرَةً وأتقياءَ، وكانوا من أقوى النَّاسِ إيمانًا وجِهادًا فِي سبيلِ اللهِ.

قال تعالى: ﴿لِنَآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، وفي هَذَا أيضًا دليلٌ عَلَى إيمانهم بالبَعْثِ؛ لِقَوْلِهِم: ﴿لِنَآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، فهم مؤمنونَ بِلِقاءِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَهُوَ من أصولِ الإيمانِ.

فوائد الآيتينِ الكريمتينِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: شِدَّة تَمويهِ فِرْعَوْن حينَ قَالَ: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ معَ أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ بينَ مُوسَى وبينَ هَؤُلَاءِ السَّحَرَةِ شيْءٌ مِنَ الاِتصالِ، ولكنَّه لقوَّةِ تمويهِهِ أرادَ أنْ يُمَوِّهَ بهذا الكَلامِ الَّذِي لَيْسَ بمعقولٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قوَّة جَبَرُوته حِينَ هَدَّدَهُمْ بقطعِ الأيدي والأرجلِ مِن خِلاف ثم الصَّلب.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قوَّة إيمانِ هَؤُلَاءِ السَّحَرَةِ الَّذين تحدَّوْا فِرْعَوْنَ بِجَبَرُوتِهِ، وقالوا: إنه لا ضررَ علينا فيما هَدَّدْتَنَا به؛ لأَنَّنا سَنَنْقَلِبُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وسيُعْطِينا منَ الأجرِ والثوابِ أكثرَ ممَّا فَقَدْنَا من هَذِهِ الحياةِ الدنيا، كما قال فِي سُورَةِ طه: ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه:٧٢].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الإيمان إذا صَدَقَ صارَ أقوى من العاطفةِ، فَحُبُّ النَّفسِ أمرٌ فِطريٌّ، ولكن الإيمان يؤدِّي إِلَى أن ترخصَ النَّفسُ عند المرءِ بجانبِ دينِه.

---

(١) ذكره السمرقندي فِي بحر العلوم (١/ ٥٤١) عن عبيد بن عمير، وعزاه فِي في تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥٩) لابن عباس وعبيد بن عمير وقتادة.

الآية (٥١)

• ● ● •

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٥١].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ نَرْجُو ﴿أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن﴾ أي: بأَنْ ﴿كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فِي زَمَانِنا].

﴿نَطْمَعُ﴾ يعني: نرجو ونؤمِّلُ، وهذا الطمعُ مما يُمْدَحُ عليه العبدُ، لكن إذا فعل أسْبابه، أمَّا إذا لم يفعلْ أسْبابَه فَإِنَّهُ منَ الأمانيّ الباطلةِ، كما جاء في الحديثِ: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ»[1].

هم أكَّدوا أَنَّهُم يَطمعونَ فِي مَغْفِرَةِ اللهِ؛ لأنَّهم فعلوا السَّبَبَ، وَهُوَ الإيمانُ بعدَ الكفرِ، وقد قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]، فهم طَمِعُوا هَذَا الطمعَ معَ وُجودِ سببِه، وَهُوَ مدحٌ، وقولهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ الغَفْر معناه: سَتْر الذَّنْب والعفو عنه، وقولهم: ﴿خَطَٰيَٰنَآ﴾ جمع: خطيئةٍ، وهلِ الخطايا والسيئاتُ واحدةٌ، أم بينهما فرقٌ، أم يفرق بينهما عند الاجتماع فقطْ؟

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، رقم (٢٤٥٩)، ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، رقم (٤٢٦٠).

يُفَرَّق بينهما عندَ الاجتماعِ فقطْ، وأمَّا إذا أُفردت إحداهما فإنها تشملُ الأخرى، ففي سُورَة آلِ عِمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١]، إِلَى أن قالوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ [آل عمران:١٩٣]، ففرّقوا بين الذُّنوبِ والسيئاتِ، فالذُّنوبُ طَلَبُوا مَغْفِرَتَها، والسيئاتُ طلبوا تَكفِيرَها؛ لأنها من الصغائرِ الَّتِي تكفِّرها الأعمالُ الصَّالحةُ، والسيئاتُ المُرادُ بِهَا هنا الكبائرُ، الَّتِي لا تزولُ إلا بمغفرةٍ، لا بتكفيرٍ.

قال تعالى: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هَذَا لَيْسَ من بابِ الإدلالِ عَلَى اللهِ والمِنَّة عليه بكونهم أولَ المُؤْمنينَ، ولكن من بابِ التحدُّثِ بنعمةِ اللهِ الَّذِي يَرَوْنَهُ سببًا ووسيلةً لمغفرةِ الذُّنوبِ؛ لِأَنَّ السبقَ إِلَى الإيمانِ وإلى العملِ الصَّالحِ مَنْقَبَةٌ، ومن أسْبابِ الرُّتَبِ العاليةِ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد:١٠]، فالسبقُ إِلَى الإيمانِ والعمل الصَّالح له مَزِيَّته، ولصاحبِهِ مرتبةٌ عاليةٌ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَؤُلَاءِ السَّحَرَةُ هم الَّذين أَتعبوا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعدُ؟ أم هَؤُلَاءِ قُتلوا؟

فالجَواب: لا، هَؤُلَاءِ إيمانهم صحيحٌ، وهَؤُلَاءِ إما أَنَّهُم قُتِلُوا مباشرةً، أو أَنَّهُم لم يحدثْ لهم شيْءٌ، أما الَّذين آذَوْه فهم قومُه.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هل كَانَ بنو إِسْرَائِيل مُؤْمِنينَ؟

فالجَواب: فِي هَذِهِ المعالجةِ الظَّاهرُ ما كانوا مُؤْمِنينَ، أو كَانَ بعضُهم مؤمنًا، لا أدري؛ لِأَنَّ أصلَ إنزالِ التوراةِ بعدَ ذلكَ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص:٤٣].

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هل قتل جميع السَّحَرَة؟

فالجَواب: الظَّاهرُ أَنَّهُم كلّهم؛ لِأَنَّ قولَ بعضِ العلماء: «شُهَدَاء بَرَرَة» يدلُّ عَلَى أَنَّهُم قُتِلُوا، وعلى كلِّ حالٍ نَحتاج إِلَى التثبُّتِ.

وإنْ قال قائلٌ: هل آمنوا جميعُهم؟

فالجَواب: كلهم آمنوا، قال تعالى: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ [الشعراء:٤٦]، فكلهم آمنوا إيمانًا كاملًا.

فَوائِدُ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: قوَّةُ رجاءِ هَؤُلَاءِ السَّحَرَةِ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فيها دليلٌ عَلَى أن السبقَ إِلَى الإيمانِ من أسْبابِ المغفرةِ والرفعةِ؛ لِقَوْلِهِم: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقد دلَّ عَلَى ذلكَ الكِتابُ فِي قولِهِ تعالَى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠]، ولما تخاصمَ عبدُ الرَّحْمنِ بنُ عوفٍ وخالدُ بنُ الوليدِ قال النبيُّ ﷺ لخالدٍ: «لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي؛ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ

لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»(١).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفيها أيضًا أن الإطلاقَ تُقَيِّدُهُ قرينةٌ؛ لقولهم: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لِأَنَّ المُراد أَوَّل المُؤْمِنِينَ فِي وَقْتِهِم، وإلَّا فقد آمن أحدٌ قبلَهم، أو أَوَّل المُؤمِنينَ من آلِ فِرْعَوْن؛ لِأَنَّهُ قد آمن أحدهم قبلَهم، فقولهم: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: من آل فِرْعَوْنَ، والمُفسِّر يقولُ: [في زَمانِنا]، ولكن هَذَا لَيْسَ بظاهرٍ، بل الظَّاهرُ أَنَّهُ من آلِ فِرْعَوْن؛ لِأَنَّ من بني إِسْرَائِيل مَنْ آمَنَ قبلَ ذلك.



(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا»، رقم (٣٦٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، باب تحريم سب الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، رقم (٢٥٤١).

الآية (٥٢)

• • • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء:٥٢].

• • • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ بعدَ سِنِينَ أقامها بينَهم يدعوهم بآياتِ اللهِ إِلَى الحقِّ، فلم يَزِيدُوا إِلَّا عُتُوًّا].

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾ والوحيُ فِي اللُّغةِ: الإعلامُ بسرعةٍ وخَفاءٍ، وأمَّا فِي الشرعِ: فهو إعلامُ اللهِ تعالى بالشرعِ لأحدِ أنبيائِهِ، ثم إنَّ الوحيَ قد يكونُ بواسطةٍ، وقد يكون بغيرِ واسطةٍ، وقد قسمَ اللهُ ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى:٥١]، فقوله: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ هَذَا الإلهامُ (الوحي الإلهامي)، ﴿مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ مكالمة صريحة، لكن مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، والثالث: ﴿يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾.

قال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾ (أَنْ) تفسيريةٌ؛ لأنَّهم يقولون: إذا سَبَقَها مَعْنى القولِ دونَ حُروفِهِ فهي تفسيريَّة، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص:٧]، وقوله: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [المؤمنون:٢٧]، وهنا: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾؛ لأنها تفسّر ما يوحَى به.

وقوله: ﴿بِعِبَادِىٓ﴾ المُراد بهم بنو إِسْرَائِيلَ، وهي عبوديَّة شرعيَّة.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾ بني إِسْرَائِيل، وفي قِراءَة[1] بكسرِ النونِ ووصلِ همزةِ ﴿أَسْرِ﴾ مِن سَرَى لغة فِي أسرَى، أي: سِرْ بهم ليلًا إِلَى البحرِ]، يعني: يُقال: أَسْرَى وسَرَى، فالأمر من أسرى الرباعي: أَسْرِ، والأمر مِن سَرَى: اسْرِ بهمزةِ وصلٍ، فعلى أَنَّهُ من الرباعي تكون ﴿أَنْ أَسْرِ﴾، تظهر (أَنْ) وتبقى ساكنةً، وعلى أَنَّهَا من (سَرَى) تكسِر النونَ؛ لملاقاةِ الساكنِ، وتكون الهمزة همزةَ وصلٍ: (أنِ اسْرِ بعبادي).

والمَعْنى: سِر بهم ليلًا، يقول المُفسِّر: [إلى البحرِ]، والدَّليلُ أَنَّهُ إِلَى البحرِ قولُه تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ [الدخان:٢٤].وكذلك أيضًا ما جاء فِي سياقِ هَذِهِ الآياتِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ يَتَّبِعُكُمْ فِرْعَوْنُ وجنودُه فيَلِجُونَ وراءكم البحرَ، فأُنْجِيكم وأُغْرِقهم]. أمَرَهمُ اللهُ أن يَسيروا ليلًا، وإنَّما أُمِرُوا أن يسيروا ليلًا؛ لئلَّا يَظْهَرَ أمرُهم، لأنَّهم لو أرادوا أن يَسيروا نهارًا وتجهّزوا، لشَعَرَ بهم آلُ فِرْعَوْن، وحينَئذٍ يَمْنَعُونَهم أو يُؤْذُونَهم، فلذلك أُمِرُوا أنْ يَسِيروا باللَّيلِ.

قال: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أُكدتْ هَذِهِ الجُملةُ بـ(إنّ) معَ أَنَّهَا جملةٌ اسْميَّةٌ أيضًا، إشارة إِلَى أَنَّهُ لا بدَّ أن آل فِرْعَوْن يتبعونهم بدونِ تردُّد، فاتباعهم لهم أمرٌ مؤكَّدٌ، ولكنهم يَتَّبِعُونَهم طلبًا لهم؛ لأجلِ أن يَقْضُوا عليهم.



(١) الحجة للقراء السبعة (٥/ ٣٥٩).

الآية (٥٣)

• • ◆ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ [الشعراء:٥٣].

• • ◆ • •

بعدما سَرَوْا ليلًا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ ﴾ حينَ أُخْبِرَ بِسَيْرِهِم ﴿فِي ٱلْمَدَآئِنِ﴾ قيل: كَانَ له ألفُ مدينةٍ، واثنا عشرَ ألفَ قَرْيَةٍ ﴿حَٰشِرِينَ﴾ جامعينَ الجيش]، فلمَّا علِم بهم فِرْعَوْنُ تحفَّز وخاف أنْ يَخْرُجوا إِلَى مكانٍ آخرَ، فيكوِّنوا أُمَّةً فيَغْزُوه، فأراد أنْ يَقْضِيَ عليهم، فأرسلَ فِي المَدَائِنِ حَاشِرِينَ، والمدائنُ مدائنُ مِصْرَ، وكَوْنُها بهذا العددِ الَّذِي قال المُفسِّرُ يحتاجُ إِلَى ثُبُوتٍ، ونحن ما علينا إلَّا أن نقولَ ما قاله الله، ولكنَّنا نَفْهَم أن هَذِهِ المدائنَ كثيرةٌ، ووجهها أن (فعائل) صيغةُ مُنْتَهَى الجُمُوع، فهي تدلُّ عَلَى الكثرةِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿حَٰشِرِينَ﴾: جامعينَ الجيش]، وفي هَذَا دليلٌ عَلَى أَنَّهم لَيْسُوا يقولون: اخْرُجُوا، بل يُجْبِرُونَهم عَلَى أنْ يَخْرُجوا.

• • ◆ • •

الآيــة (٥٤)

• • ❁ • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ [الشعراء:٥٤].

• • ❁ • •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿حَٰشِرِينَ﴾: جامعينَ الجيش قائلًا: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ ﴾ طائفةٌ ﴿قَلِيلُونَ﴾]، هَذَا من بابِ الإغراءِ عَلَى الخروجِ أنْ يُقَلِّلَ الْإِنْسَان عدوَّه فِي مسامع القومِ؛ لأجل أن يَتَشَجَّعُوا.

فإذا قيلَ: أليسَ من الأَولى أنْ يُكَثِّرَهُمْ لأجلِ أنْ يَسْتَعِدُّوا؟

فالجَواب: الأَولى من حيثُ التجهيزُ العسكريُّ التقليلُ، هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ، وإن كَانَ البعضُ قد يَتبَادَر إِلَى ذِهْنِه أن يقول: لماذا لم يُكَثِّروا لأجلِ أن يَسْتَعِدُّوا ويَخْرُجوا؟

فيُقال: إن المفاسدَ الَّتِي تَتَرَتَّب عَلَى التكثير أكثرُ من المفاسدِ الَّتِي تترتَّب عَلَى التقليلِ.

فَإِنْ قِيلَ: من المقصود بقوله: (شِرذمة)؟

فالجَواب: المقصود مُوسَى وقومه.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ طائفة ﴿قَلِيلُونَ﴾]، وكلمة: (شِرْذِمَة) ليستْ بمَعْنى طائفة فقط، كما قال المُفسِّر، بل بمَعْنى التحقِير، يعني: أبلغ مِن كَلِمة طائفة،

و﴿قَلِيلُونَ﴾ تدلُّ عَلَى قِلَّة العدد، و(شِرذمة) تدلُّ عَلَى قلة القوَّة، ففيها هنا التقليلُ الكَمِّيّ والكيفيّ، فالكميّ بقوله: ﴿قَلِيلُونَ﴾، والكيفيّ بقوله: (شِرْذِمَة)؛ لِأَنَّ الشرذمةَ الشَّيْءُ الَّذِي لا يُعبأ به؛ لضعفِهِ مثلًا أو عدمِ استعدادِهِ، وما أشبهَ هذا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قيل: كانوا سِتَّ مئةِ ألفٍ وسبعينَ ألفًا، ومُقَدِّمة جيشه سبع مئة ألفٍ]، هَذَا نقول: لا أصلَ له ولا صِحَّة له؛ لِأَنَّهُ يَبْعُدُ أن يكون بنو إِسْرَائِيل بهذا المبلغِ الكبيرِ الَّذِي ذكَر، بل كانوا قليلينَ مُسْتَضْعَفِينَ بِمِصْرَ، حَتَّى إن فِرْعَوْن كَانَ يقتّل أبناءَهُمْ ويَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ، فليسوا إِلَى هَذَا الحدِّ بكثرةٍ، فنحنُ نقول: إن هَؤُلَاءِ وإنْ كانوا ليسوا كما وصفَ فِرْعَوْن بكونهم شِرْذِمَةً قليلينَ، لكن نعلم أَنَّهُم ليسوا بهذه الكثرةِ.

ويقول: [فَقَلَّلَهُمْ بالنظرِ إِلَى كثرةِ جَيْشِهِ]، وليس كذلك أيضًا، وإنَّما قَلَّلَهُمْ بمسامعِ النَّاسِ من أجلِ أَلَّا يَتأَخَّرَ أحدٌ، ومن أجلِ أنْ يَتَشَجَّعُوا للخروجِ، فيقول: هَؤُلَاءِ شِرْذِمَةٌ قليلونَ، فهم لُقْمَةٌ سائغةٌ لا يحتاجونَ مِنَّا كثيرَ عَناءٍ.



الآيــة (٥٥)

• • ✿ • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ [الشعراء:٥٥].

• • ✿ • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾: فاعلونَ ما يَغِيظُنا]، هَذَا أيضًا من بابِ الإغراءِ، ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا ﴾ يعني: لنا آلَ فِرْعَوْن ﴿لَغَآئِظُونَ ﴾ فاعلونَ ما يغيظنا، وهذه نقطةٌ أُخرى للتيسيرِ عَلَى الخروجِ إليهم؛ لِأَنَّ أحدًا من النَّاسِ لا يَرضى أنْ يَغِيظَه أحدٌ، فهو إغراءٌ لبني إِسْرَائِيل.

فَإِنْ قِيلَ: قوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ هَذَا الكَلامُ قائلُه فِرْعَوْن نفسه أو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحكيه؟

فالجَواب: فِرْعَوْن الَّذِي قاله، ولكن لَيْسَ يقولُه أمامَ النَّاسِ، يقوله لرسلهِ الَّذين أرسلَهم إِلَى المدائنِ، يقول: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ كل هَذَا مما أُرسل بِهِ الرُّسُلُ؛ لأجلِ أنْ يَنْشَطَ النَّاسُ عَلَى الإقبالِ.

وإن قيل: القَصَصُ فِي القُرآنِ يكونُ من كَلام القاصِّ، يعني: من كَلامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أو من كَلام المتحدِّث؟

فالجَواب: من كَلام مَن أُخبر عنه، لكن لَيْسَ بلفظِه؛ لِأَنَّ فِرْعَوْن لُغته قِبْطِيّة ولكن الله ترجمَ كَلامَه إِلَى اللُّغةِ العربيَّة.

• • ❁ • •

الآية (٥٦)

• • ● • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء:٥٦].

• • ● • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ متيقِّظون، وفي قِراءَةٍ: «حَاذِرُونَ»[1] مُسْتَعِدُّون]، بدأ بنفسه، وأخبر أَنَّهُ هُوَ وقومه حَذِرون، أو «حَاذِرُونَ»، واجتماع القراءتينِ يفيد المعنيينِ جميعًا، أي: إننا متيقِّظون، ولِتيقُّظِنا كنَّا مستعدينَ، فهاتان القراءتانِ تفيدانِ معنيينِ: المَعْنى الأول: التيقُّظ، وَهُوَ استعدادٌ نفسيٌّ، والمَعْنى الثَّاني: الاستعدادُ الحِسِّي؛ لقوله: (حَاذِرُونَ)؛ لِأَنَّ الحاذرَ اسْمُ فاعلٍ، وَهُوَ الَّذِي فعلَ ما يَحْذَرُ به، وَهُوَ الاستعداد فقط.

فَإِنْ قِيلَ: ألا تشمل (حَاذِرُونَ) كلا المعنيينِ؟

فالجَواب: لا؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قد يَسْتَعِدّ ويُحْسِن الإعدادَ والأجهزةَ لكن لا يكونُ مُتيَقِّظًا، فقد يستعدّ ولا يَتيَقَّظ. أليس أهل مِصْر فِي حربِ الأَيَّام الستَّة كانوا مُسْتَعِدِّينَ، ولكنَّهم ليسوا مُتيَقِّظِينَ، فالطائراتُ قد ملأتِ المطارَ والدعايات من الإذاعات كثيرةٌ جدًّا، ومع ذلكَ لعدمِ تَيَقُّظِهِمْ قُضِيَ عليهم، فلا بدَّ مِنِ استعدادٍ وتَيَقُّظٍ.

• • ❁ • •

(١) الحجة فِي القراءات السبعة (ص:٢٦٧).

الآيتان (٥٧، ٥٨)

• • • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:٥٧-٥٨].

• • • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾ أي: فِرْعَوْن وقَوْمَه من مِصْرَ لِيَلْحَقُوا مُوسَى وقومَه ﴿مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾: بساتينَ كانتْ عَلَى جانبي النيلِ، ﴿وَعُيُونٍ﴾: أنهارٍ جاريةٍ فِي الدُّور منَ النيلِ، ﴿وَكُنُوزٍ﴾: أموالٍ ظاهرةٍ منَ الذهَب والفِضَّة، وسُمِّيَتْ كُنوزًا لِأَنَّهُ لم يُعط حقّ الله منها، ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾: مجلسٍ حَسَنٍ للأمراءِ والوُزراء، يَحُفُّه أتباعُهم].

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾ الضَّمير يعود عَلَى آلِ فِرْعَوْنَ، وفي قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾ بصيغة العظمةِ لمناسبةِ المقامِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذين تعَاظَموا فِي أنفسهم وتكبَّروا قُوبلوا بما هُوَ أعظمُ، وَهُوَ قوّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ﴾ يقول المُفسِّر: [بساتين كانت عَلَى جانبي النيلِ]، ولا يُقالُ للبساتين: (جَنَّات) إلَّا إذا كانت كثيرةَ الأشجارِ والزروعِ، بحيثُ تَسْتَتِر أرضها بِهَا ويستترُ مَن فيها بها، وأما ما فيه نخلات قليلة أو زرعٌ قليلٌ فلا يُسَمَّى جَنَّةً. وفي قولِهِ: ﴿مِّن جَنَّٰتٍ﴾ إشارة إِلَى كَثرتها، ولعلَّ الكثيرَ منهم كَانَ له بستانٌ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَعُيُونٍ﴾: أنهار جارية فِي الدورِ من النيلِ]، وينبغي أن يُقالَ: فِي الدورِ وغيرها، حَتَّى الجنات الَّتِي هِيَ البساتينُ إذا كانت فيها أنهارٌ مختلفةٌ؛ فإن ذلك لا شكّ مما يُبْهِجُ ويَسُرّ القلبَ، فهو أعمُّ من كونها فِي الدورِ، أو فِي هَذِهِ الجناتِ.

وقوله: ﴿وَكُنُوزٍ﴾ يقول المُفسِّر: [أموال ظاهرة]، ولكن فِي هَذَا نظرٌ كونه يفسّرها بالأموالِ الظَّاهرةِ، ولو فَسَّرْنَاها بالأموالِ الَّتِي تُكنَز سواءً كانتْ مكنوزةً بالفعلِ؛ لكثرةِ المالِ ووفرتِه، فهم لا يحتاجون إِلَى إنفاقه، وإنَّما يكنزونه فِي الأرضِ لِيَرْصُدُوه لِما يُستقبل؛ أقول: سواء كانت مكنوزةً بمَعْنى مدفونةٍ أو غير مدفونة؛ لِأَنَّ الذهب والفضة يُسمَّى كَنزًا إذا لم تؤدّ زكاته، وهذا كنزٌ شرعيٌّ، وإذا دُفن سُمِّيَ كنزًا؛ لُغويًّا.

المهم أننا نقول: الكنوز هِيَ الأموالُ العظيمةُ الكثيرةُ من الذهبِ والفضّة، وسواء كانت هَذِهِ الكنوز نقودًا أو كانت حُليًّا يتحلَّون بها.

يقول: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ المقام نقول: المجلسُ، ويمكن أن يكونَ المُراد بِهِ مَحَلّ الإقامةِ، يعني: المُراد بالمقام المَسْكَن، فهو أعمُّ من أنْ يكونَ المجلس. والكريم: الحَسَن، ولهذا قال النبي ﷺ: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِـهِمْ»[1] يعني: أَحَاسِنها، فصار هَؤُلَاءِ ممتَّعين من كلِّ وجهٍ: مقام كريم بأمنٍ وطمأنينةٍ، وراحة، وحسن، وباللون والكيفية، وكذلك أيضًا من حيثُ الأموالُ الوفيرةُ الَّتِي تَوَفَّرَتْ لهم حَتَّى صَاروا يَكْنِزُونَها.

---

(١) سبق تخريجه.

فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: بيانُ عُقوبةِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى للطاغِينَ، وذلك بإزالةِ النِّعَم عنهم؛ إما بإخراجهم منها، وإما بإزالتها هي، وتُؤخَذ من قوله: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ العُقوبةَ بعد التنعيمِ أشدُّ، ولذلك نصَّ عليه، فما قَالَ: فأخرجناهم من أماكنهم فقطْ، أو من دِيَارِهِمْ، ولكن بيَّن عَلَى سبيلِ التعيينِ ما هم فيه منَ النَّعيم؛ لِأَنَّ الأخذَ بالعُقوبةِ بعدَ النعيمِ يكونُ أشدَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تحذير للطُّغاة من أنْ تزولَ نِعَمُهُم بسببِ طُغيانهم، ففي عَصْرِنا هَذَا فتحَ اللهُ عَلَى النَّاسِ من أنواعِ النعيمِ ما لم يكنْ مَوْهومًا من قبلُ، وبالأَولى لَيْسَ معلومًا، فيُخْشَى أنْ يخرجَ هَؤُلَاءِ من هَذَا النعيمِ إذا طَغَوْا وعَتَوْا عن أمرِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وفي ذلك دليلٌ عَلَى أنَّ الْإِنْسَانَ قد يُؤْخَذ من حيثُ يَرَى أَنَّهُ عَلَا وظهرَ؛ فإن فِرْعَوْنَ بعثَ فِي المدائنِ حاشرينَ يَدْعُوهم إِلَى قتالِ مُوسَى وقومه، فخرجوا تابعينَ لهم عَلَى أَنَّهُم سيدركونهم، فصارَ فِي هَذَا الخروجِ حَتْفهم وهلاكهم، ونظيرُه فِي هَذِهِ الأمّة ما صنعتْ قُريش حينَ خَرَجَت إِلَى بَدْر، وكان أبو جهلٍ يقول: واللهِ لا نَرْجِع حَتَّى نَقْدَمَ بدرًا فنَسْقِي فيها الخُمُور، وتَعْزِف علينا القِيَان، ونشرب الخمور، حَتَّى تسمعَ بنا العربُ، فلا يزالون يهابوننا أبدًا[1]. فأُخذوا من حيثُ أَتَوْا.

---

(١) مغازي الواقدي (١/ ٤٤).

الآية (٥٩)

• • ✿ • •

✿ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٥٩].

• • ✿ • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: إِخْراجنا كما وَصَفْنا، ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾]، يعني أنّ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تكون خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، يعني: إخراجنا لهم كَانَ كذلك، أو يكون التَّقدير: الأمر كذلك. المهمُّ أن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، فهي جملةٌ مستقلَّة عما قبلها وعما بعدها.

ثم قَالَ: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ يعني هَذِهِ الجنَّات والعيون والكُنُوز والمقام الكريم، أورثناها [﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بعد إغراق فِرْعَوْن وقومه]، فصارتْ لهم.

وقوله: ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إِسْرَائيل: هُوَ يعقوبُ بنُ إسحاقَ، ومعناه: عبدُ اللهِ، وإنَّما نُسبوا إليه لِأَنَّ بني إِسْرَائيل تفَرَّعُوا منه.

وقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فيه من الإشكالِ أن النبيَّ ﷺ يقول: «أُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي»[1]، وهنا أورثَ اللهُ دِيَارَ فِرْعَوْنَ وقومه وأموالهم بني إِسْرَائيل؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فرض الخمس، باب قول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أُحِلَّتْ لَكُمُ الغَنَائِمُ»، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب «جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»، رقم (٥٢١).

والجَواب: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أهلك فِرْعَوْن فِي البحرِ بدونِ حربٍ، والغنيمةُ هِيَ ما أُخذَ من مالِ الكفّارِ بقتالٍ وما أُلحِق به، هَذَا تعريفها شرعًا، وهذا ما أخذ بقتالٍ فهؤُلَاءِ هَلَكُوا، فبَقِيَتْ دِيَارُهُم لبني إِسْرَائِيلَ، وحتى لو لم يَسْكُنْها بنو إِسْرَائِيل لَسَكَنَهَا آخرونَ غيرُهم، فالمسألة هَذِهِ ما غَنِمُوها بأيديهم، ولكنها من الله عَزَّوَجَلَّ لهلاكِ هَؤُلَاءِ، يعني: كَانَ الأمر أَنَّهُم لَـمَّا هَلَكُوا صارتْ إرثًا لبني إِسْرَائِيل: إرثًا قدريًّا؛ لِأَنَّهُ لا بد أن يكون كذلك.

فَإِنْ قِيلَ: هَذَا كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، فهذا شيْء كتبه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من بَدْءِ الخَليقة أن الأرضَ للمُؤمِنينَ، فهذه هِيَ القرينة الَّتِي تخرجها عن الغنائم فلا تكون غنيمةً.

فالجَواب: لا، هِيَ ليست أرضًا فقطْ، بل جنَّات وعيون، وكنوز، ومقام كريم، وهذه الكنوز مما يُنْقَل.

وإن قيل: هل كان بنو إِسْرَائِيلَ يسكنون معهم؟

فالجَواب: ساكنون فِي جانبٍ من مِصْرَ، من جانب المدينةِ، لكن اهم أخذوا كنوز فِرْعَوْن وآل فِرْعَوْن.

المهم أن الجَواب الصَّحيح هُوَ الأول، وَهُوَ أن يُقال: إن الغنيمة هِيَ ما أُخِذَ بقتالٍ وما ألحقَ به، وما عدا ذلك لا يُسَمَّى غنيمةً شرعًا.

إذن نقول: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ظاهرها مُشْكِل مع قوله: «أُحِلَّتْ لِـيَ الْغَنَائِمُ»، ونحن نقول: أصلًا ليس هناك غنيمة، يعني: كوننا نقول: هَذِهِ من الغنائم

لَيْسَ بصحيحٍ، فليستْ غنيمةً، لكن قد يَتَبادَر لِذِهْنِ أحدٍ عِندَما يقرأ الآية: كيف يؤتيها الله بني إِسْرَائِيل وقد قال النبي ﷺ: «**إن الغنائم لم تَحِلّ لأحدٍ قبلي**»؟ فجَوابه أن نقول: إن هَذِهِ ليستْ من بابِ الغنائمِ.

فنقول: إن هَذَا التوريث لَيْسَ من بابِ الغنيمةِ؛ لِأَنَّ الغنيمةَ ما أُخِذَ من كفّارٍ بقتالٍ، وما أُلْحِقَ به.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هل مُوسَى بعد إِبْرَاهِيم -عليهما السلام- مباشرة؟

فالجَواب: لا، بينهما مدة طويلة، هناك إسحاقُ ويعقوبُ، وجاء بعدهم يوسفُ بنُ يَعْقُوبَ إِلَى أهلِ مِصر رسولًا، ولهذا المؤمن قَالَ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ [غافر:٣٤].

وإن قيل: هل بنو إِسْرَائِيل خرجوا كلهم من مصر؟

فالجَواب: نعم، الظَّاهر أَنَّهُم خرجوا مع مُوسَى كلهم، قال تعالى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء:٥٢]، فهذا عامٌّ. وبعد ذلك عادوا ورجعوا إِلَى مصر وصاروا فيها.



الآيــة (٦٠)

•• ◌ ••

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ [الشعراء:٦٠].

•• ◌ ••

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ لَحِقُوهم ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ وقتَ شُرُوقِ الشَّمْسِ]. والواوُ فِي قوله: ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ تعودُ إِلَى فِرْعَوْنَ، والهاءُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وعلى هَذَا فقولُهُ: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ من حيثُ المَعْنى جملةٌ مُعْتَرِضة؛ لِأَنَّ توريثَ بني إِسْرَائِيلَ كَانَ بعدَ أنْ غرِقَ فِرْعَوْنُ وقومُه.

فيصير ذِكْرُ ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ مناسبةً تَقْدِيمُها فِي الترتيبِ عَلَى ما بعدها؛ لِأَنَّهُ لَـمَّا قَالَ: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم﴾ كأنَّ قائلًا يقولُ: مَنِ الَّذِي حلَّ محلَّهم؟ فقال: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، فلمناسبةِ الإخراجِ قُدِّمَتْ، وإِلَّا كَانَ مُقْتَضَى الترتيبِ أنْ تكونَ بعد ذِكرِ إهلاكِ فِرْعَوْنَ وقومِهِ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ لَحِقُوهم]، يُقال: تَبِعه واتَّبعه وأَتْبَعَهُ بمعنًى واحدٍ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف:١٧٥]، (فأَتْبَعَهُ) يعني: تَبِعه أوِ اتَّبَعَه، فكلُّ الثلاث بمعنًى واحدٍ، فقولُهُ: ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ يعني: اتَّبَعُوهم أو تَبِعُوهم، بمَعْنى: لَحِقُوهم.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مُّشْرِقِينَ﴾ وقتَ شُرُوقِ الشَّمْسِ]، وإلى جهةِ المَشْرِقِ أيضًا، مِثْلَما نقولُ نحنُ: مشرّق، يعني: نحوَ المَشْرِقِ، فهم فِي الحَقِيقَةِ ﴿مُّشْرِقِينَ﴾

إمَّا كما قال المُفسِّرُ: [وقتَ شروقِ الشَّمْسِ] أو مُتَّجِهِينَ نحوَ المشرقِ، وكِلَا المعنيينِ صحيحٌ، فمُشْرِقٌ: مُتَّجِهٌ نحوَ المشرقِ باعتبارِ المكانِ، ومُشْرِقٌ وقتَ الشُّرُوقِ باعتبارِ الزَّمانِ، والعادةُ أنَّ الخُرُوجَ أوَّلَ النَّهارِ أنشطُ للناسِ وأَولى، وكان الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يخرج مبكّرًا، ولكنَّه يَبْقَى حَتَّى تَفِيءَ الأفياءُ، وتزولَ الشَّمْسُ، وتهُبَّ الرِّيَاحُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لماذا مُوسَى ومَن مَعَه خَرَجُوا فِي اللَّيل وفِرْعَوْن ما خَرَجَ بعدَهم إلَّا بعدَ خُرُوجِ الشَّمس؟

فالجَوابُ: خرجَ مُوسَى وقومُه ليلًا اختفاءً؛ خوفًا عَلَى أنفسهم من فِرْعَوْنَ فخَرَجُوا باللَّيلِ، أمَّا هَذَا فما خرجَ خائفًا حَتَّى ينتظرَ قدومَ اللَّيلِ، فخرجَ مُعْلِنًا أنَّه ظاهرٌ منتصِرٌ لنفسه.



الآيتان (٦١، ٦٢)

•●☙●•

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦١-٦٢].

•●☙●•

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ رأى كلٌّ مِنهما الآخرَ]، والمُرادُ بهما جَمْعُ مُوسَى وجَمْعُ فِرْعَوْنَ [﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ يُدْرِكُنا جَمْعُ فِرْعَوْنَ، ولا طاقةَ لنا به].

قال: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أَكَّدوا الإدراكَ بـ(إنّ) واللامِ، يعني: مُدْرَكُون يقينًا؛ وذلك لِأَنَّ البحرَ أمامَهم وآلَ فِرْعَوْنَ خَلْفَهم، فلا بدَّ أَنْ يُدْرِكُوهم، فأينَ يَذْهَبُون؟ فليسَ أمامَهم إلَّا البحر؛ إنْ خاضوا البحرَ غَرِقُوا، وهم لنْ يَخُوضُوه بِحَسَبِ اعتقادِهِمْ فِي تلكَ الساعةِ؛ لأنَّهم لا يَعْلَمُون بالأمرِ، فهم لنْ يَخُوضوا البحرَ، فما بَقِيَ إلَّا أنْ يُدْرِكَهُمْ آلُ فِرْعَوْنَ.

ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ بالجُملةِ الاسْميَّةِ المؤكَّدة بـ(إنّ) واللامِ، ولكن مُوسَى أجابَهُم بقولِهِ: ﴿كَلَّآ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: لن يُدْرِكُونا]، قال ذلك مُوسَى إيمانًا باللهِ تعالى، وثِقَةً بوعدِهِ، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما أمرهم بالخروجِ إلَّا لِيَحْمِيَهُمْ مِن فِرْعَوْن وآلِهِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾ بِنَصْرِهِ ﴿سَيَهْدِينِ﴾ طريقَ النَّجاةِ].

أولًا: ما قَالَ: كلَّا إنِّي سأُهدَى، بل قدّم مَعِيَّةَ اللهِ؛ لأنها أَقْوَى فِي تَثْبِيتِ قومِهِ، قَالَ: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾، وكلُّ إِنسانٍ يكونُ اللهُ معَه فلنْ يَضُرَّهُ شيْءٌ، ثم قال أيضًا مؤكدًا أثر هَذِهِ المعيَّة: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ والسينُ تدلُّ عَلَى التَّحقيقِ والقُرْبِ، ومَعْنى ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي: سَيَدُلُّنِي عَلَى طريقٍ أَنْجُو به، ومُوسَى لم يكنْ عالمًا بهذا الطَّرِيقِ حينَ ذاكَ، ولكنَّه واثقٌ منَ النَّجاة، ولهذا أَتَى بالسِّينِ الدالَّة عَلَى التَّحقيقِ وعلى القُرْبِ أيضًا؛ لِأَنَّ المَقامَ يَقْتَضِي ذلكَ.

فهؤُلَاءِ أَكَّدوا أَنَّهُم مُدْرَكُون، فقُوبِلُوا بالتَّأكيدِ أَنَّهُم لنْ يُدْرَكُوا، وتأكيدُ ذلك أَوَّلًا بذِكْرِ مَعِيَّةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾، وتأكيدُه ثانيًا بقوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾؛ لِأَنَّ السِّينَ كما هُوَ معروفٌ عند أهلِ النَّحْوِ تدلُّ عَلَى التَّحقيقِ والقُرْبِ، قَالَ: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ وفعلًا حصلَ ما تيقَّنَهُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من أنَّ اللهَ سُبْحانَه سَيَهْدِيه طريقَ النجاةِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: ما توجيهُ المَعِيَّة هنا فِي قول المُفَسِّر: [﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ بنصرِه]؟

فالجَواب: المُرادُ بالمعيَّة هنا المعيَّةُ الخاصَّةُ الَّتِي تَقْتَضِي النصرَ والتأييدَ؛ فإنْ قصَدَ المُفسِّرُ بنصرِهِ أَنَّهُ تفسيرٌ بالمعيَّة بالمَعْنى العام فهذا لَيْسَ بصحيحٍ، وإنْ أرادَ بنَصْرِهِ أَنَّهُ أثرٌ لذلكَ، فهذا صحيحٌ، فالمُفسِّر لا يُعْتَرَضُ عليه؛ لِأَنَّ هناكَ احتمالًا أَنَّهُ يقولُ: معي بِنَصْرِهِ، بمَعْنى أن هَذِهِ المعيَّة سيكونُ أَثرها النَّصْر.

فوائدُ الآيتينِ الكريمتينِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فِي هَذَا دليلٌ عَلَى قوَّة إيمانِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي قولِهِ: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، ووجهُ قوَّةِ الإيمانِ أَنَّهُ فِي هَذَا المَقامِ المُحْرِجِ الَّذِي لا يرى الْإِنْسَان فيه إلا أَنَّهُ هالِكٌ، ولهذا قال أصحابُه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفي هَذَا دليلٌ عَلَى أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى كما يهدي إِلَى الطَّريقِ المعنويّ يَهدي أيضًا إِلَى الطَّريقِ الحِسِّيّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾، وليس المُراد هنا هداية العلمِ والتوفيقِ للعملِ الصَّالحِ، وإنَّما المُرادُ بالهدايةِ لِطَرِيقِ النَّجَاةِ الَّتِي يَنْجُو بها، فهداه اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.



الآية (٦٣)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء:٦٣].

قال تعالى: ﴿أَنِ ٱضْرِب﴾ وهذه لا يَصْلُحُ فيها: (أَنْ أَضْرِب)؛ لِأَنَّ (ضَرَبَ) لا يأتي رُبَاعِيًّا، ولهذا يجب كسرُ النونِ: ﴿أَنِ ٱضْرِب﴾، و(أَنْ) هَذِهِ تفسيرية.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ فَضَرَبَهُ ﴿فَٱنفَلَقَ﴾]. تقديرُ المُفسِّرِ (فضربه) صحيحٌ؛ لِأَنَّ البحرَ لم يَنْفَلِقْ بمجرَّد الوحيِ، بل بالضَّرب، وفي قوله: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ إشارة إِلَى أن مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بادرَ بضربِ البحرِ، وأن البحرَ انفلقَ حالًا بدونِ تأخُّر.

ومَعْنى ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فانشقَّ اثني عَشَرَ فِرقًا، ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الجبل الضخم، بينهما مسالِكُ سَلَكُوها، لم يبتلَّ منها سَرْجُ الراكبِ ولا لِبْده].

يقول: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ وهذه العصا الَّتِي كَانَ يَحْمِلُها دائمًا يَتوَكَّأ عليها، ويَهُشّ بِهَا عَلَى غنَمِه، وله فيها مآرِبُ، فتكون هَذِهِ العصا فيها مصالحُ عظيمةٌ، وفيها من آياتِ اللهِ ثلاثُ آياتٍ، هَذِهِ إحداها.

والثَّانية: الثُّعبان، أَنَّهُ إذا ألقاها صارتْ ثعبانًا مُبينًا.

والثالثة: إذا ضَرَبَ بِهَا الحَجَرَ تفَجَّر عُيونًا.

فهذه ثلاثُ آياتٍ، أما البقيَّة: فالاتِّكاء عليها، والهَشّ بِهَا عَلَى الغنم، ودفع الصَّائل، وما أشبهَ ذلك، فهذه ليستْ منَ الآيَاتِ، بل من الأمورِ المعتادَة.

وقوله: ﴿ٱلْبَحْرَ﴾ المُراد بِهِ البحرُ الأحمرُ، ويُسَمَّى بَحْرَ القُلْزُم، هَذَا البحرُ انفلقَ ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ كالجبلِ العظيمِ، يعني: لِكِبَرِه وارتفاعه؛ لِأَنَّ قاعَ البحرِ قويٌّ عميقٌ، فيكون كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ للكِبَرِ وللارتفاعِ، وظاهرُه أَنَّهُ عريضٌ؛ لِأَنَّ الطودَ العظيمَ يتناولُ الكِبَرَ والارتفاعَ والعَرْض، وَهُوَ كذلك، وهذا من آياتِ اللهِ؛ لِأَنَّ العصا إذا ضربت لا تَتَّسِع لمكانٍ واسعٍ، وهذه الأطوادُ -الاثنا عَشَرَ- مكانها بلا شكّ واسعٌ، والطرقُ أيضًا ستكونُ واسعةً.

ثم إن فِي هَذِهِ الضربة من آياتِ اللهِ -غير انفلاق البحر- أَنَّهُ صارَ يَبَسًا، يَبِسَ فِي الحالِ، قال تعالى: ﴿لَا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه:٧٧]، وهذا أيضًا من آياتِ اللهِ، أن الله أزال عنهم الخوفَ وألقاه عنهم، وإلَّا فطبيعة البشرِ تَقتضي إذا كَانَ الماءُ عَلَى يمينِه ويسارِه كالأطوادِ أن يخافَ، ولكن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ألقى عنهمُ الخوفَ، فلم يَخَافُوا أبدًا.

وفي قوله: ﴿كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ظاهرٌ أنَّ الماءَ لم يَتَغَيَّرْ، يعني: لم يتجمَّدْ بالمَعْنى المعروفِ، فيكون أبيضَ جامدًا، ولكنَّه بقِيَ جامدًا عَلَى طبيعته أسودَ، وهذا أعظمُ ممّا لو تَجَمَّد وَهُوَ عَلَى غيرِ طبيعتِه لصارتْ فيه آيةٌ واحدةٌ، وهي سرعةُ التجمُّد بهذه اللحظةِ، فكونه لا يَسيل وَهُوَ جامدٌ أمرٌ طبيعيٌّ عاديّ، لكن كونه يبقى مائعًا ولكن لا يَسيل، فهَذَا أبلغُ من ذلك. ففيه آيتان: أَنَّهُ لا يسيل، وأنه لا يسيل وَهُوَ عَلَى طبيعته، والله تعالى عَلَى كل شيْءٍ قديرٌ.

وفيه أيضًا دَليل عَلَى أنّ كلّ شيْءٍ يَمتثِل لأمرِ اللهِ، وأن الله تعالى قادرٌ عَلَى قلبِ الأمورِ عن طبائعها، فضلًا عن تغيّر صفاتها، فهذه النارُ الَّتِي من طبيعتها الإحراقُ والحرارةُ كانت بردًا وسلامًا عَلَى إِبْرَاهِيم فِي الحالِ، وهذا الماءُ الَّذِي من طَبيعته الإغراقُ والسَّيَلان صارَ أمْنًا وجامدًا لا يسيلُ بالنِّسبةِ لبني إِسْرَائِيلَ.

قال أهلِ العلم: إنه ما من آيةٍ أُعْطِيَها أحدٌ من الأَنْبياءِ إلَّا وكانتْ للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والآية المقابلةُ لهذا الأمرِ ما جَرَى لِسَعْدِ بنِ أبي وَقَّاصٍ لَـمَّا أرادَ الغزوَ حيث خاضَ الماء[1]، ولكن ما صار يَبَسًا، وهذا أبلغُ؛ أَنَّهُ يكونُ باقيًا عَلَى طبيعته يجري كما هو، وهذه الخيولُ والإبلُ والمُشاةُ يمشون عليها.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَذِهِ ليست بعهدِ النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟

فالجَواب: كرامةُ أتباعِهِ مُعْجِزَةٌ له.

فالحاصلُ أن يُقالَ: إن ما جَرَى لبني إِسْرَائِيلَ جَرَى لهذه الأُمَّة مثله؛ وذلك لِأَنَّ كرامةَ أتباعِ النبيِّ مُعْجِزة له؛ إذ مَعنَى الكرامةِ الشهادةُ بأَنَّ ما عليه هَذَا المكرَم حقٌّ، فإذا كَانَ أتباعُ النبي ﷺ جاء لهم شهادة بأنَّ ما هم عليه حقّ، كَانَ مَعْنى ذلك أنَّ ما جاء بِهِ الرسولُ ﷺ هُوَ حقٌّ.

فَإِنْ قِيلَ: قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ﴾ اثني عَشَر فرقًا، الاثنا عشرَ هَذِهِ ضرب اثنتي عشرة مرةً أم ضربة واحدة فانفلقَ اثني عشرَ؟

فالجَوابُ: لا، ضَرْبَة واحدة، فانفلقَ اثني عشرَ.

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم (١/ ٥٧٤، رقم ٥٢٢).

وإنْ قيلَ: كل اثني عَشَر ألفًا يدخلونَ من طريقٍ؟

فالجَوابُ: لا نَدْرِي، كلّ اثني عشر ألفًا يدخلونَ من طريقٍ أو عشرة آلاف أو ألف

وإنْ قيلَ: كم عَدَدُهُمْ؟

فالجَواب: لا ندري، هم عَلَى كلِّ حالٍ اثنتا عشْرَةَ قبيلةً، فالأسباطُ فِي بني إِسْرَائِيلَ مثلُ القبائلِ فِي العربِ، وهم اثنتا عَشْرةَ، لا نَعْرِفُ كم عَدَدُ القبيلةِ؛ قد تَقِلُّ أو تَكْثُرُ، فيمكنُ كل قَبيلة مثلًا خَمْسُ مئةِ نفرٍ أو أكثرُ أو أقلُّ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قوله: ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ دَليلٌ عَلَى الكثرةِ؛ لِأَنَّهُ ينافي الحكمةَ لو أخبرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّ الطَّريقَ عظيمٌ وهم قليلٌ؟ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعلَ اثني عشرَ طريقًا لقبائلِ بني إِسْرَائِيل، وهم قليلونَ وينافي الحكمةَ، فلا بدَّ أَنَّهُم كثيرونَ، وكلُّ واحدٍ كالطَّوْدِ العظيمِ؟

فالجَواب: كلُّ فِرقٍ لَيْسَ معناهُ الطَّريق، فالماءُ الَّذِي بينها مثلُ الجبالِ وليسَ نفس الطَّريق، فـ﴿كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ يعني: من الماء، فالماء الَّذِي بينها مثل الجبال. وذكر بعضُ الَّذينَ يَنْقُلُونَ الإِسْرَائِيلِيَّات أَنَّهُ صار بهذه الأطواد فُرَج ينظرُ بعضُهم إِلَى بعضٍ؛ زيادةً فِي الأمنِ، ولكن الله تعالى أعلمُ هل هَذَا صحيحٌ أو لا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فمَنِ المقصودونَ فِي قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف:١٥٥]؟

فالجَواب: هم الَّذين قالوا: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النِّساء:١٥٣]، هَؤُلَاءِ المختارون.

فَإِنْ قِيلَ: كيف يكونون المختارينَ ثم يقولون: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ ؟!

فالجَواب: نعمْ، لا شكَّ أن هَذَا فِي الحَقِيقَةِ مما يدلُّ عَلَى أَنَّهُم مهما بَلَغُوا بالكمالِ أَنَّهُم ليسوا كهذه الأمَّة.

فَإِنْ قِيلَ: الظَّاهرُ أنَّ إيمانَهم ضعيفٌ؛ لأنَّهم وَصَلُوا إِلَى حدّ عبادةِ الصنمِ؟

قلنا: لا، هم طلبوا إلهًا، لكن مُنعوا، وقد عبَدوا العجلَ بعدَ أنْ غاب عنهم مُوسَى. وهم عَلَى كلِّ حالٍ حَتَّى لو كَانَ إيمانهم ضعيفًا فِي أوَّل الأمر، ونحن لا نعلم عن إيمانهم، لكن ظاهرُ الآياتِ أَنَّهُم مُنّ عليهم بهذا لكمالِ إيمانهم، والإِنْسَان إذا توفرتْ لديه النعمةُ قد يَختلف حالُه، فهم خرجوا فِي الأَوَّل وهم فِي قِلّة وفي ضعف وفي خوفٍ، وهم أقربُ إِلَى الإيمان مما إذا نُعِّمُوا هَذَا النعيم؛ لِأَنَّ العادة أن الْإِنْسَان إذا نُعّم فَإِنَّهُ يَحْصُلُ منه الأَشَرُ والبَطَر، هَذَا هِيَ العادة.

فَإِنْ قِيلَ: هل يُمْكِنُ أنْ يُقالَ: إن هَؤُلَاءِ الَّذينَ حَصَلَ منهم هَذِهِ الأشياءُ أَنَّهُم ذُرِّيَّتُهُمْ؟

فالجَواب: الظَّاهر أَنَّهُم عَلَى حَسَبِ الأجيالِ المعروفةِ يَتَوَالَدُون، والَّذين صاروا فِي التِّيهِ وحُرِّمَتْ عليهم الأرضُ المقدَّسة أربعينَ سنةً فلأجلِ أنْ تَتَغَيَّر أوضاعهم وأحوالهم بإنشاءِ خلقٍ آخرَ.

المهم نَجْزِم أن إيمانَهم فِي ذلك اليومِ كَانَ إيمانًا جيِّدًا قويًّا حينما أغرقَ فِرْعَوْنَ، ولهذا نُصِروا هَذَا النصرَ العظيمَ عَلَى فِرْعَوْنَ؛ لِأَنَّ سياقَ الآياتِ يدلُّ عَلَى هذا.

فَإِنْ قِيلَ: إن إيمانهم ضعيفٌ بقرينةِ ما حصلَ؟

قلنا: ما حصلَ بعدُ، والإِنْسَان يَتَغيَّر.

فَإِنْ قِيلَ: المهاجرونَ لَـمَّا آمنوا إيمانًا قويًّا، والأنصار لما آمنوا إيمانًا قويًّا ما صار منهم شيْء مثلما حصلَ من بني إِسْرَائِيلَ؟

قلنا: لا نقارنُ بني إِسْرَائِيلَ بهذه الأمَّة، فمسألة المقارنةِ غيرُ واردةٍ؛ لِأَنَّهُ لا سـواء، بنو إِسْرَائِيلَ ابْتُلُوا بالحِيتان فلـم يَصْبِرُوا وتحيّلوا، وهذه الأمَّة ابتُلـوا بالصَّيد وهم مُحْرِمون فصَبَروا، وغيره، وغيره، فلا تقارن إيمان هَذِهِ الأمة بإيمان مَن سبقَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أنا لا أقصدُ المقارنةَ، ولكن أقصدُ أن الإيمان إذا كَانَ جيِّدًا فِي البدايةِ فالغالبُ أَنَّهُ تصرف عنه مثل هَذِهِ الأشياء الخطيرةُ، وإلا فالصغائر أمرها أقل خطرًا.

قلنا: عَلَى كل حالٍ هم حينَذاك لا شكّ أَنَّهُم مؤمنونَ؛ لأنَّهم شاهدوا الإيمان وورثوا الأرض، ولا مانع أن تطرأَ لهم أحوال يتغيَّرون بها.

فَإِنْ قِيلَ: لو لم يكونوا مُؤمِنينَ لَـمَا صَبَروا عَلَى أذى فِرْعَوْن حينما قطَّعَ أرجلَهم وأيديَهُمْ من خلافٍ، وهذا دَليلٌ عَلَى قوة إيمانهم العظيمِ.

قلنا: لا، هَؤُلَاءِ السَّحَرَةُ لا شكّ فِي قوة إيمانهم، والسَّحَرَة من آلِ فِرْعَوْن. وهم غير الَّذين ذهبوا مع مُوسَى، فالكَلامُ عَن بني إِسْرَائِيلَ، وبنو إِسْرَائِيل غير السَّحَرَة، فالسَّحَرَة من القِبط من آلِ فِرْعَوْن.

فنقول: الأَصْلُ أن إيمانهم فِي تلكَ الساعةِ قويٌّ، هَذَا هُوَ الأَصْلُ، وإنَّ النصرَ إنَّما يَسْتَحِقُّه المؤمنونَ، وإنَّما يَرِثُ الأرضَ عبادُ الله الصَّالحون، لكن لا مانعَ من أن تطرأَ أحوالٌ، وتَتَجَدَّد أعمالٌ، فيَنْصَرِفون هم أو بعضهم عن الحقِّ.

فهذا الجدلُ لا فائدةَ فيه، نحن نقولُ: إنّ مَنِ انتصرَ فهو مؤمنٌ حقًّا، ومَن نصرهُ اللهُ وأورثهُ الديارَ فهو من عبادِ اللهِ الصَّالحينَ، هَذَا الأَصْلُ. ثم إذا طرأتْ أحوالٌ نقول: الله أعلمُ كيف تطوَّرت هَذِهِ الأحوال، ففي الحَقِيقَةِ لَيْسَ فِي هَذَا فائدةٌ، وليست المسألة عَمَلِيَّة نُطَبِّقُها حَتَّى نُحَقِّق كيف نعملُ، فقد قصّ الله علينا فِي هَذِهِ المسألةِ أحوالًا لبني إِسْرَائِيلَ تدلُّ عَلَى أن هَؤُلَاءِ القوم آمنوا وطرأتْ عليهم أحوالٌ، وبالنظرِ إِلَى أحوالهم العامَّة نَعْرِف أن إيمانهم لَيْسَ كإيمان هَذِهِ الأمَّة، وأن هَذِهِ الأمَّة أكملُ فِي إيمانها، وأكملُ عملًا.

فَإِنْ قِيلَ: هل نستنتج من هَذَا أَنَّهُ من الممكنِ أن يكونَ هناك إيمان كامل فِي البدايةِ ثم يَنْقُصُ نقصًا شديدًا إِلَى أن يصلَ إِلَى حدٍّ ما وصلوا إليه؟

فالجَواب: هَذَا ممكنٌ، وليس هناك إشكال أن الإيمان حاصل، لكن الَّذِي أشكل أَنَّهُ كيف تطورتِ الأحوالُ إِلَى أن يقولوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]، وهذا لا يمنع أن بعضهم قال هذا، أو تقلّبت بهم الأحوالُ، فالله أعلمُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: ما المقصود بالفِرق؟

فالجَواب: الفِرق: الطائفةُ من الماءِ، فصار كل فِرقٍ وقطعة منه مثل الطَّوْد العظيم.

فَإِنْ قِيلَ: ما الغرضُ من ذِكْر عهدِ أسلافهم؟

فالجَوابُ: مِنَ المُمْكِنِ أنَّ اللهَ يُذَكّرهم بِعُيُوبِهِم السابقةِ لَعَلَّهم يَرْتَدِعوا، أو يُذَكِّرهم بهذا لبيانِ أن هَذَا من عادتهم وسَجِيَّتِهِم، فهو بين أمرينِ:

▪ إما أن يبيِّن عَيْبَهُم لعلَّه يُصْلِح من أحوالهم، ويكون ما صلحَ من أحوال باقيهم كالهادمِ لَمَا سَبَقَ.

▪ وإمَّا أن يُقالَ: إن هَذَا بيان؛ لِأَنَّ هَذِهِ طبيعتهم وسَجِيَّتهم مثلًا، فيكون فيه مع التوبيخ لهَؤُلَاءِ تسليةٌ للرسولِ ﷺ وأصحابه.

فَإِنْ قِيلَ: وماذا عن أحوالهم الآن؟

فالجَواب: ما صاروا عليه أخبثَ؛ لأنَّهم صاروا كفَّارًا؛ لِأَنَّهُ بعد بعثةِ الرسولِ ﷺ، بل بعد بعثة عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وكفرهم بِهِ صاروا كفَّارًا وليس فيهم إيمان أبدًا.

ولا شكَّ أن عندهم عُتُوًّا، ومَن أراد أن يعرِفَ عن أحوالهم شيئًا فليراجِعْ (إغاثة اللَّهْفان) لابن القيِّم، لكن الكَلام عن الَّذين أُورِثُوا أرضَ فِرْعَوْن فِي ذلك الوقتِ، ما لنا فِي الحَقِيقَة حقٌّ أن نقولَ: إيمانهم كاملٌ، أو إيمانهم ناقصٌ، إنَّما نعرف من قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، أَنَّهُم فِي ذلك الوقت صالحونَ فقطْ، وتغير الأحوال بعد ذلك الوقت واضحٌ.

فَوائِدُ الآيَةِ الكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: تمام قدرة الله عَزَّوَجَلَّ بفَلْقِ البحرِ، وتَيْبيسه فِي الحالِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فيها دَليلٌ عَلَى أن لكلِّ شيْءٍ سببًا، حَتَّى الآيَات الَّتِي يجعلها اللهُ عَلَى يدِ الشخصِ لها سببٌ؛ فإن الله تعالى لم يَفْلِقِ البحرَ إلَّا بعد أن أَوحى إِلَى مُوسَى أنِ اضْرِبِ البحرَ بعصاكَ، فضربه فانفلقَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفيها أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل هَذَا الماء كالأطوادِ -كالجبالِ العظيمةِ- عَلَى إيمانهم وشَمَائِلِهم، ليكونَ فِي عُبُورِهِم؛ حَتَّى لا يأخذهم العُجْبُ والعُلُوُّ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الأطواد هِيَ فِي الحَقِيقَةِ بمنزلةِ نواقيس الإنذار، يخافون ويرهبون إذا كَانَ الماءُ عَلَى إيمانهم وشمائلهم مثل الأطوادِ؛ فإنهم لا يَرَوْنَ فِي أنفسهم استغناءً عن الخوفِ، فيكونون بين الخوفِ وبين الرجاءِ؛ وذلك فِي قوله: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فيها أيضًا مِن آياتِ الله -فوقَ تَفْلِيقِ الماءِ- إِثْباتُ الماءِ جامدًا حَتَّى لا يسيلَ، واللهُ تعالى عَلَى كلِّ شيْءٍ قديرٌ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].



الآيات (٦٤- ٦٦)

• • ❁ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ [الشعراء:٦٤-٦٦].

• • ❁ • •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ قرّبنا ﴿ثَمَّ﴾ هناكَ ﴿ٱلْآخَرِينَ﴾ فِرْعَوْن وقومَه حَتَّى سَلَكُوا مَسَالِكَهُم]، الإزلافُ: بمَعْنى الإقرابِ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء:٩٠]، أي: قُرِّبت

وقوله: ﴿ثَمَّ﴾ أي: هناكَ عِندَ البَحْرِ. وقوله: ﴿ٱلْآخَرِينَ﴾ يعني فِرْعَوْن وقومَهُ، قرّبهم اللهُ تعالى إِلَى البحرِ، فرَأَوْا هَذِهِ الطُّرُقَ مفتوحةً أمامهم، فما كَانَ منهم إِلَّا أنْ دَخلُوها؛ لِأَنَّها طُرُقٌ أمامَهم رَأَوْا مُوسَى وقومَه قد عَبَرُوا منها، فاتَّبَعُوهم، فلَمَّا تكاملَ هَؤُلَاءِ داخلينَ وهَؤُلَاءِ خارجينَ، يقول الله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ يقول الْمُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بإخراجِهِمْ منَ البحرِ عَلَى هَيْئَتِهِ المذكورةِ]، وهذا إنجاءٌ من أعظمِ المِنَنِ، ﴿ثُمَّ﴾ بعد ذلك ﴿أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ يقول الْمُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِرْعَوْن وقَوْمَه بإطباقِ البحرِ عليهم لما تمّ دُخُولُهم فِي البحرِ وخروج بني إِسْرَائِيل منه]، فانتقم اللهُ تعالى من فِرْعَوْن وقومِهِ، وأَغْرَقَهُم بالماءِ الَّذِي كَانَ يَفْخَرُ بِهِ فِرْعَوْنُ من قبلُ، فَإِنَّهُ كَانَ يقولُ لقومِهِ مُفْتَخِرًا: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف:٥١]، فهو افتخر عَلَى قومه بأن الأنهارَ تَجْرِي من تحته، وهي ماءٌ، فأُغْرِقَ بما كَانَ يَفتخرُ به.

وهذا من آياتِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بأن الله يُغْرِق الْمُعْجَبِين؛ إمَّا بما أُعجِبوا به، وإما بما هُوَ أهونُ شَيئًا. فعادٌ لما قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، أُهلِكوا بألطفِ الأشياءِ، وهي الرِّيحُ.



الآيــة (٦٧)

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٦٧].

يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إغراقِ فِرْعَوْنَ وقَوْمِهِ ﴿لَآيَةً﴾]، وتفسيرُ المُفسِّر لِلمشارِ إليه فيه قُصُورٌ؛ لِأَنَّهُ ليستِ الآيَةُ بإغراقِ فِرْعَوْنَ وقومِه فَحَسْب، ولكن بِفَلْقِ البحرِ، وكونه يَبَسًا، وإنجاء مُوسَى وقَوْمِه، وإغراق فِرْعَوْن وقومِه، ولو قيل: إنّ الإشارةَ تعودُ إِلَى كلِّ ما ذكرَ، يعني: إن فِي ذلك المذكور من قِصَّة مُوسَى ﴿لَآيَةً﴾ عَلامَة عَلَى قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعلى نَصْرِهِ لِأَوْلِيَائِهِ، فيكون مُتَضَمِّنًا لتسليةِ النبيِّ ﷺ وتحذير المُخَالِفِينَ له؛ لكانَ أَولى.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَآيَةً﴾ عِبرةً لِمَن بَعْدَهم]، واللامُ للتَّأكيدِ، ومحلُّها لام الابتداء الَّتِي تكونُ فِي أوَّلِ الجُملةِ: (لئِنّ فِي ذلك)، لكن قال النَّحوِيُّونَ فِي تَعليلهم لهذا: إنَّه لا يَنبغي أنْ يجتمِعَ مؤكِّدان متواليانِ، فأخّروا اللامَ إِلَى ما تأخّر من خبر إنّ واسمها، والله أعلم هل هَذَا حقيقة أمْ أنَّ العربَ نَطَقُوا بِهَا هكذا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ باللهِ، فلم يؤمنْ منهم غير آسِيَةَ امرأةِ فِرْعَوْنَ، وحِزقِيل مؤمن آل فِرْعَوْن، ومَرْيَم بنت ناموصى، الَّتِي دلَّتْ عَلَى عِظَام يُوسُفَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ]. يجوز أن يكون: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ يعني: أكثر قومِ مُوسَى الَّذين أُرسل إليهم، ويجوزُ أن يكون: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: أكثر النَّاس

المخاطَبِينَ بهذا القُرآنِ، يعني: هَذَا فيه آيةٌ لكن ما كَانَ أكثر المخاطَبين بِهِ مُؤمِنينَ به.

والأَولى أن يُقال: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أَنَّهُ يعود عَلَى الَّذين نزلَ عليهم القُرآنُ، لا عَلَى بني إِسْرَائِيل، أو آل فِرْعَوْن.

وأمَّا ما ذكرهُ المُفسِّر فنقول: أمَّا امرأةُ فِرْعَوْنَ، فصحيحٌ أَنَّهَا آمنتْ، وأمَّا مؤمنُ آل فِرْعَوْنَ فصحيحٌ أَنَّهُ آمن، لكنْ تَسْمِيَتُه بحِزْقِيل يَحتاجُ إِلَى دَليلٍ، والثالثة مَرْيَمُ بنتُ ناموصى، هَذِهِ لا ندري بعدُ من أين جاءتْ؟! وما سَمِعنا بِهَا إِلَى الآنَ، وقوله: [التي دَلَّتْ عَلَى عِظَام يُوسُفَ]، هُوَ ابنُ يَعقوبَ، ولا نَدري أين عِظَامُه، ثم إذا دلَّتْ عَلَى عِظامه فهي إِلَى الذمِّ أقربُ مِنَ المَدْحِ؛ لِأَنَّ العظامَ مُحْتَرَمَةٌ، والمفروضُ أَنَّهَا لا تُنبَشُ ولا يُسألُ عنها، ثم إن قولَه: [عِظَام يوسف]، هَذَا خطأ؛ لِأَنَّهُ ثَبَتَ أن اللهَ حرَّم عَلَى الأرضِ أن تأكلَ أجسادَ الأَنْبياءِ[1]، فكيفَ يُقالُ: ما بَقِي إلا عِظَامُه؟!

الحاصلُ أَنَّ مثل هَذِهِ الإِسْرَائِيليَّات يُؤسَفُ مِنَ المُفسِّر ومن غيرِه أنْ يَنْقُلُوها.

فَإِنْ قِيلَ: بإمكان فِرْعَوْن أن يعومَ فِي الماء؟

فالجَواب: هَذَا لَيسَ مَحلّ العومِ؛ لِأَنَّهُ انطبقَ عليهم الماءُ فِي أعماقِ البحرِ، فلا يستطيعونَ، ثم إنّ العذابَ إذا نزلَ لا تَنْفَع فيه سباحةٌ ولا غيره، فأظنُّ قبل ثلاث سنوات نزل عَلَى مَحَطَّة الكهرباء فِي نيويورك صواعِقُ معَ أن عندهم مانعاتُ صواعقَ فقَلَعَتِ الأعمدةَ، فما نَفَعَها.

---

(١) أخرجه أبو داود: تفريع أبواب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، رقم (١٠٤٧)، والنسائي: كتاب الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة، رقم (١٣٧٤)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في فضل الجمعة، رقم (١٠٨٥).

الآيـة (٦٨)

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:٦٨].

قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ هَذَا مِمَّا يؤيِّد ما ذَهبنا إليه؛ أنَّ المُرادَ بأكثرهم: الَّذين نزلَ عليهم القُرآنُ، ولهذا أضافَ الربوبيَّة إِلَى النبيِّ ﷺ فِي قولِهِ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾؛ لأنها تَقْتَضِي العنايةَ الخاصَّة بالرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وفي قوله: ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أتى باللامِ الدالَّة عَلَى التَّأكيدِ؛ لتكونَ الجُملةُ مؤكدةً بمؤكدَيْنِ.

فإذا قال قائل: الخطاب للنبي ﷺ وحاله لا يَقتضي التَّأكيدَ؛ لِأَنَّهُ مقرّ، ومن قواعدِ البلاغةِ أَنَّهُ لا يؤكَّد الكَلامُ إِلَّا لِلْمُتَرَدِّد أو للمُنْكِر؛ فإن كَانَ للمتردِّد فهو استحسانٌ، وإنْ كَانَ للمنكِر فهو وجوبٌ، يعني التَّأكيد، وهنا أكَّد بمؤكدينِ معَ أن الخطابَ للنبيِّ ﷺ وَهُوَ مُقِرٌّ بذلك؟

فيُقال: إن هَذِهِ القاعدة الَّتِي ذكروها ليستْ عَلَى إطلاقها، بل فيها قُصُورٌ؛ فإنّ الشيْء يُؤَكَّد باعتبارِ حالِ المخاطَبِ، وحينَئِذٍ نقولُ: إذا كَانَ مُتَرَدِّدًا فَيَحْسُنُ تأكيدُه، وإذا كَانَ مُنْكِرًا فيجبُ تأكيدُه، كذلك يؤكَّد الكَلامُ باعتبارِ أَهَمِّيَّتِهِ، فإذا كَانَ الكَلامُ موضعَ اهتمام فَإِنَّهُ يؤكَّد حَتَّى وإنْ كَانَ المخاطَبُ مُقِرًّا به؛ لبيانِ اعتناءِ المتكلِّم به، فهنا هَذِهِ المسألةُ مُهمَّة جدًّا.

ثم يُقال أيضًا: إن الآية ذكرتْ تسليةً للرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ومن جهةٍ أُخرى تهديدًا للكفّارِ، والكفّار قد يشكّون -أو يُنْكِرون- فِي عِزَّة اللهِ ورحمته، فلهذا جمعَ بينهما مؤكّدًا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فانتقم من الكافرينَ بإغراقِهِمْ، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمُؤمِنينَ، فأنجاهم مِنَ الغَرَقِ]، يَقْرِنُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ دائمًا بينَ العِزَّةِ والحِكْمَة، وأحيانًا فِي مثلِ هَذِهِ السُّورة بينَ العِزَّة والرَّحمة.

وبينَ الوصفيْنِ أو الاسمينِ تناسبٌ ظاهرٌ، أمَّا العِزَّة والحِكمة فالتناسُبُ بينهما هُوَ أنَّ الْعَزِيز هُوَ الغالبُ القاهرُ، والغالبُ القاهرُ إنْ لم تكنْ فِي غَلَبَتِهِ حِكْمَةٌ صار تَصَرّفه غيرَ محمودٍ؛ لِأَنَّهُ يَتَصَرَّفُ مِن مصدرِ القوَّةِ، وإذا كَانَ يَتَصَرَّفُ من مصدرِ القوةِ ولا حِكْمَة عنده صار يَبْطِشُ بطشًا فِي غير محَلِّه، وربَّما يَتْرُكُ ما يَنبغي فيهِ البَطْشُ، فجاءتِ الحكمةُ مقترِنةً بالعزّةِ، وأمّا هنا فلمَّا كَانَ فِي سِياقِ الآيَاتِ يَتَضَمَّن ما تَقتضيه الرحمةُ ويَتَضَمَّن ما تَقتضيه العزَّةُ، فإهلاك فِرْعَوْن يَقتضي أن يُقابَل بالعزَّةِ، وإنجاء مُوسَى يَقتضي أن يُقابَل بالرَّحمةِ لِأَنَّهُ من مقتضاه؛ جمعَ اللهُ تعالى بينهما.



الآيتان (٦٩، ٧٠)

• ● ● •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ [الشعراء:٦٩-٧٠].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: كفّار مكّةَ]، والصواب: أي: عَلَى النَّاسِ الَّذين أُرسِلتَ إليهم. والرسولُ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تلا عَلَى النَّاسِ، حَتَّى إننا نقول: هُوَ تلا عليهم، حَتَّى فِي هَذَا العصرِ وفيما بعدَه فقد تلا رسول الله ﷺ عَلَى النَّاس هَذَا النبأ.

وقوله: [﴿نَبَأَ﴾: خبر]، ولكن لا يكون النبأُ إلَّا فِي الأمورِ الهامّة، والخبرُ يكونُ فيها وفي غيرِها، لكن النَّبَأ لا يكون إلا فِي الأُمُور الهامَّة، وهذا النبأُ هامٌّ جِدًّا؛ لِـمَا يَتَضَمَّنه منَ التوحيدِ والمناظرةِ، وما يَتعلَّق بذلك مِنَ الثوابِ والعقابِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿نَبَأَ﴾ خبر ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ ويُبْدَل منه]، أي: من ﴿نَبَأَ﴾ [﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ﴾]، فتكون (إِذْ) هنا فِي مَحَلِّ نَصْب بدلًا من (نبأ). وإِبْرَاهِيم هُوَ خليلُ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وَهُوَ معروف.

قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ أبوه اسمه: آزَرُ، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام:٧٤]، وأما قومُه فالَّذينَ بُعِثَ إليهم، وفي هَذَا دَليلٌ عَلَى أن إِبْرَاهِيمَ لم يُبْعَثْ إِلَى النَّاسِ عامَّةً، وإِنَّما بُعِثَ إِلَى قومِه كسائرِ الأَنْبياءِ.

فَإِنْ قِيلَ: ورد فِي بعض التفاسير أنَّ (آزر) لَقَب[1]؟

فالجَواب: لَيْسَ بصحيح.

وقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ (ما) للاستفهامِ، والمُراد بِهِ الإنكارُ والتعجُّب أيضًا، أي أَنَّهُ ينكر متعجبًا.



(١) انظر تفسير القرطبي (٧/ ٢٢).

الآيــة (٧١)

• • ● • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ [الشعراء:٧١].

• • ● • •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ صَرَّحُوا بالفعلِ؛ لِيَعْطِفُوا عليه: ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾]، (أَصْنَامًا) جمع صنمٍ، والمُرادُ بالصنمِ كلُّ ما اتُّخِذَ إلهًا معَ اللهِ، سواءً كَانَ شجرًا أو حَجَرًا، أم غيرَهما، ولكن هل يُشْتَرَطُ أن يكونَ منصوبًا؟

الظَّاهرُ عدمُ اشتراطِهِ وأنه لَيْسَ شرطًا، وأنه قد لا يكونُ منصوبًا، فقد يكون مَبْطُوحًا ومُضْجَعًا، وغيرَ قائمٍ.

وقول المُفسِّر: [صرَّحوا بالفعل لِيَعْطِفُوا عليه ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾]. هَذِهِ مناسَبَةٌ لَفْظِيَّةٌ قد تكونُ مقصودةً وقد لا تكون مقصودةً. قد يقول قائل: لو قالوا: (أصنامًا فنظل)، لكان المَعْنى مُستقيمًا، ولا حاجة إِلَى ذِكر الجُملةِ ليعطفَ عليها؛ لأننا نرى أَنَّهُ تأتي أحيانًا جُملٌ عُطِفَ عليها جُمل وهي محذوفةٌ، مثل: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ [الروم:٩]، ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ [السجدة:٢٦]، عَلَى أحد الوجهينِ.

ولكن الصَّحيح أَنَّهم صَرَّحُوا بالفعل؛ إظهارًا لِفِعْلِهِمْ كأنَّهم يَفْتَخِرون به، يعني: يُحقِّقون العبادة ويفخَرون بعبادتهم؛ لِأَنَّ التصريحَ بالعبادةِ للمعبودِ تدلُّ عَلَى أن الْإِنْسَان فخورٌ بها: قالوا: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾، يعني: فهم أظهروها تأكيدًا وافتخارًا بها، هَذَا الَّذِي لا شكَّ فيه، وأمَّا لأجلِ العطفِ فهذا العطفُ نقول:

يَصِحُّ بدون ذِكْرِه، وهذا لَيْسَ بمقصودِهِ فيما يبدو، وإنَّما المقصود هُوَ تأكيدُ هذا، والافتخارُ به، مثلما يقول لك القائل: «أنت تفعل كذا؟»، فتقول: «نعم أفعله»، لو قلت: «نعم» لَكَفَى، لكن: «أَفْعَلُه» من بابِ تأكيدِهِ والافتخارِ به، فهم كذلك يقولون: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ مؤكِّدين لعبادتها مفتخرينَ بها.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ نقيم نهارًا عَلَى عِبادتها، زادوه فِي الجَوابِ افتخارًا به]، صحيح، قالوا: ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ وَهُوَ ما سَأَلَـهُمْ: هل أَنْتُم تَدُومُونَ عَلَى عِبَادَتِها أم لا؟ لكنهم زادوا عَلَى هَذَا وقالوا: ﴿فَنَظَلُّ﴾ يعني: نَسْتَمِرّ ﴿لَهَا عَٰكِفِينَ﴾.

وقوله: ﴿لَهَا﴾ مُتَعَلِّق بـ﴿عَٰكِفِينَ﴾ وتقديمُه عليه يفيد الحصرَ، يعني: إننا نَعْكُفُ لها لا لغيرها. ويقول المُفَسِّر: [زادوه فِي الجَوابِ افتخارًا به]، وَهُوَ كذلك، ثم إصرارًا وعنادًا، يعني: لسنا نعبدها وقتًا دونَ وقتٍ، بل نعبدها ونستمرُّ عَلَى عِبادتها.

وقول المُفَسِّر: [نهارًا]، أخذها من قولهم: إنَّ (ظَلَّ) فعلٌ يدلُّ عَلَى وقوع الشيْء نهارًا، وهذا هُوَ المعروفُ عندَ النَّحْوِيِّينَ، والذي يَظْهَر أَنَّهَا تدلُّ عَلَى وقوعِ الفعلِ باستمرارٍ، نحو قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل:٥٨]، أيّ وقتَ يُبَشَّر بِها يَسْتَمِرُّ وجهُه مُسْوَدًّا ليلًا ونهارًا، فالصوابُ أن هَذَا الفعلَ يُشعِر بالاستمرارِ، ولا يَخْتَصّ بالنَّهارِ كما قاله المُفَسِّر وغيرُه.



الآيــة (٧٢)

• • • •

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ [الشعراء:٧٢].

• • • •

قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ﴾ حينَ ﴿تَدْعُونَ﴾]، (إذ) هَذِهِ ظرفٌ للفعلِ (يَسْمَعُون)، و(هَلْ) للاستفهامِ المُراد بِهِ الإنكار معَ التحدِّي، يعني: يَتَحَدَّاهُم، يقول: هَذِهِ الأصنامُ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا وتسألونها الحوائجَ ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾؟ والجَوابُ: لا.

• • • •

الآيتان (٧٣، ٧٤)

• • ⁂ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:٧٣-٧٤].

• • ⁂ • •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ إن عبدتموهم ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ كُمْ إن لم تعبدوهم]، أي: أو يضرونكم إن لم تعبدوهم؟ والجَواب: لا.

هم أقروا: ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ يعني أنَّها لا تَسْمَعُ ولا تَنْفَع ولا تضرُّ، وإنَّما فعلنا ذلك تَقليدًا فقطْ مَحْضًا لآبائنا.

وقوله: ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ قدَّرَ الْمُفَسِّرُ المفعولَ بقولِهِ: (يَضُرُّونكم) وحينَئذٍ نسألُ: ما الحكمةُ فِي حذفِ المفعولِ؟

الحكمة هِيَ بالنِّسبةِ لآخر الآيةِ لفظيَّة، وهي مراعاةُ الفواصلِ، وبالنِّسبةِ للعُمومِ معنويَّة؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَعْبُدُ الشيْءَ لا يريدُ أن يضرَّه، بل يريد أن يَنْفَعَهُ، ولهذا قَالَ: ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾، أما أَنَّهُ يريد أن يضرَّه فلا، نعم يريدُ أن يضرَّ غيرَه، فقد يعبد هَذَا الشيْءَ لِيَدْعُوَهُ أن يضرَّ عدوَّه، فالحذف هنا للعُمومِ، يصير إما: أو يضرونكم إنْ لم تَعْبُدُوهُمْ، أو: أو يضرون عدوَّكم إذا عَبَدْتُمُوهُم.

وجَوابُ هَؤُلَاءِ: ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ معناه أَنَّهُم أَنْكَروا أنْ

تَسْمَعَهُم هَذِهِ الأصنامُ، أو تنفعهم، أو تَضُرَّهم، ولكنهم وَجَدوا آباءَهُمْ كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ، يعني: يفعلون كذلك، يَعْبُدُونَ هَذِهِ الأصنام.

والكافُ اسمٌ بمَعْنى (مثل)، و(ذا) اسمُ إشارةٍ تعودُ إِلَى الفعلِ، يعني: مثل ذلك الفعل يَفْعَلُونَ. ومحلُّ الكافِ بقولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ النصبُ عَلَى أَنَّهَا مفعولٌ مُطْلَقٌ، أي: يفعلون مثلَ فِعْلِنا، وليتَ أنَّ الْمُفسِّرَ جَعَلَ [أي مثل فعلنا]، قبل ﴿يَفْعَلُونَ﴾؛ لِأَنَّ تأخيرَه عن الفعلِ يُوهِم أَنَّهُ يريدُ أنْ يكونَ مفعولُ الفعلِ محْذُوفًا، أي: مثل فعلنا، والصوابُ أَنَّهُ موْجودٌ، وَهُوَ قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، فيَحْسُن بِهِ أنْ يُقَدِّمَ [مِثل فعلنا]، عَلَى قوله: ﴿يَفْعَلُونَ﴾: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل فعلنا ﴿يَفْعَلُونَ﴾. ولصار ما لهم حُجَّة إلا التقليد الأعمى فقطْ، أَنَّهُم وجدوا آباءهم عَلَى هَذِهِ المِلَّة فسَلَكُوها.



الآيات (٧٥- ٨٦)

• • • •

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ
﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ
﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ
لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي
لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ الضَّآلِّينَ
﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء: ٧٥-٨٦].

• • • •

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ لا أَعْبُدهُمْ ﴿إِلَّا﴾ لكِنْ ﴿رَبَّ الْعَٰلَمِينَ﴾ فَإِنِّي أَعْبُدُهُ، ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ إِلَى الدِّينِ، ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِيٓ أَطْمَعُ﴾ أَرْجُو ﴿أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ الْجَزَاءِ، ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ عِلْمًا ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ النَّبِيِّينَ، ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ﴾ ثَنَاءً حَسَنًا ﴿فِي الْءَاخِرِينَ﴾ الَّذِينَ يَأْتُونَ بَعْدِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَة، ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ مِمَّنْ يُعْطَاهَا، ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ الضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ بِأَنْ تَتُوب عَلَيْهِ فَتَغْفِر لَهُ وَهَذَا قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ كَمَا ذُكِرَ فِي سُورَة بَرَاءَةَ] اهـ[1].

(١) لم يوجد تسجيل صوتي لتفسير هذه الآيات، ولهذا نُقل تفسيرها من تفسير الجلالين رحمهما الله تعالى.

الآيــة (٨٧)

• ● ● •

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء:٨٧].

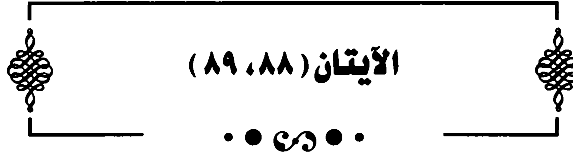
• ● ● •

فَوائِدُ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فِي الآية إِثْباتُ البَعْثِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفيها أيضًا أنَّ كلَّ إِنْسانٍ مُفْتَقِرٌ إِلَى الدُّعاءِ حَتَّى الأَنبياء؛ لِأَنَّ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دعا اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بذلك.

• ● ● •



الآيتان (٨٨، ٨٩)

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].



ذكر الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ مُبَيِّنًا أَنَّهُ لا ينفعُ الْإِنْسَانَ يومَ القيامةِ إِلَّا مَن أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ، فالمالُ والبنونَ لا ينفعونَ إِلَّا مَن أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ، وفي هَذَا الاستثناءِ دَليلٌ عَلَى أنَّ المدارَ عَلَى القَلْبِ، وَهُوَ أن يكونَ سَليمًا، وسلامتُهُ يقولُ المُفسِّر: [مِنَ الشِّرْكِ والنِّفَاق]، ولكن هُوَ أعمُّ مِن ذلكَ: سلامتُهُ منْ كلِّ عملٍ أو قولٍ، وللقلبِ قولٌ وعملٌ، أمَّا قولُه فإقرارُهُ، وأمَّا عَمَلُه فهو تَحَرُّكُهُ مِن رجاءٍ، وخوفٍ، ومحبَّةٍ، وغيرِ ذلكَ.

فوائدُ الآيتينِ الكريمتينِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فِي ذلكَ دَليلٌ عَلَى أَنَّهُ فِي يومِ القيامةِ لا تنفعُ الأموالُ ولا البنونَ؛ لقولِهِ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾، خلاف ما كَانَ النَّاسُ عليه فِي الدُّنيا؛ فإن الأموالَ والبنينَ تنفعُ، لكن فِي الآخرةِ لا تنفعُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفيهما كذلكَ دَليلٌ عَلَى فضيلةِ القلبِ السَّليمِ؛ لِأَنَّهُ سببٌ لاستفادةِ الْإِنْسَانِ من مالِهِ وبَنِيهِ، بِناءً عَلَى أنَّ الاستثناءَ مُتَّصِلٌ، وَهُوَ كذلك.



الآيات (٩٠- ٩٣)

• • ❧ • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء:٩٠-٩٣].

• • ❧ • •

قوله: ﴿تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يقول المُفسِّر: [أي غيره]؛ لِأَنَّ (دون) تأتي بمَعْنى: غير وسوى، وتأتي بمَعْنى: أقلّ، فعِندَما تقول: هَذَا دونَ هذا، يعني: أقلّ منه، حَسَبَ السِّياق.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ بِدَفْعِ العذابِ عنكم]، والجَواب: لا، معَ أَنَّهُم يَزْعُمُون أَنَّهَا تَنفَعُهم، ولكنَّها فِي الواقعِ لا تَنْفَعُهُم، بل تَضُرُّهُم [﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ بِدَفْعِهِ عن أنفسِهم؟ لا].

فإذا كانوا لا ينصرون ولا يَنْتَصِرون، فلا خيرَ فيهم ولا فِي عبادتهم.

وفي قوله: ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ دَليلٌ عَلَى أنَّ هَذِهِ الأصنامَ تُعذَّبُ وتُلْقَى فِي جهَنَّمَ، كما جاءَ فِي الآيَاتِ الأُخْرَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨]، لكن إذا كَانَ الَّذِي يُعبَد مِن دونِ اللهِ ممَّا كُلِّفَ فإنْ رَضِيَ بعبادتهم فهو معَهُم، وإنْ لم يرضَ فقدْ قالَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١]، أي: لا يدخلون النارَ.

فإذا قيل: ما فائدةُ إدخالِ الأصنامِ النارَ وتعذيبها معَ أَنَّهَا لا تَفْهَم؟

قلنا: إهانةً لعابديها؛ لِأَنَّ هَذَا فيه من الإهانةِ وبيان أَنَّهَا لا تنفعُ ما هُوَ ظاهر.

فوائدُ الآياتِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى والثَّانيةُ: فِي ذلكَ دَليلٌ عَلَى إِثْباتِ الجنَّةِ؛ لقولِهِ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾، وأنَّ أهلها هم المتَّقُونَ، وهم الَّذين فَعَلوا ما يَقِيهم من عذابِ اللهِ بفعلِ الأوامرِ واجتنابِ النواهِي.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفي ذلك دَليلٌ عَلَى إِثْباتِ النارِ؛ لقولِهِ: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فرّق اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بينَ التعبيرينِ فِي إزلافِ الجنةِ وإظهارِ النارِ، وَهُوَ دَليلٌ عَلَى أن الرحمةَ سَبقَتِ الغَضَبَ؛ لِأَنَّ الجَنَّةَ تُدنَى للمُؤمنينَ، أمّا أولئك فتَظْهَر لهم فيرونها من بعيدٍ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢]؛ لأجلِ أن يكونوا فِي خوْفٍ وذُعرٍ من قبْلِ أنْ يَصِلوا إليها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وفي ذلك دَليلٌ عَلَى أنَّ أصحاب الجَحِيمِ: كلّ غاوٍ، والغِوَايةُ ضدُّ الضَّلالِ، والغوايةُ: ضدُّ الرُّشْد، فالمُرادُ بالغاوينَ هم الَّذينَ جَانَبُوا الصراطَ المستقيمَ، جانبوه لا ضَلُّوا عنه، يعني: عَلِمُوه ولكن جَانَبُوه، وَالْعِيَاذُ بِاللهِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وفي ذلك دَليلٌ عَلَى التعذيبِ البدنيِّ والقلبيِّ لأصحابِ النارِ؛ البَدَنِيّ: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾، والقلبيّ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾.



الآيتان (٩٤، ٩٥)

• • ෴ • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء:٩٤-٩٥].

• • ෴ • •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَكُبْكِبُوا۟﴾ أُلْقُوا ﴿هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾]، (هُمْ) الضَّميرُ يعودُ عَلَى ما يَعْبُدُونَ من دونِ اللهِ، وقولُه: ﴿فَكُبْكِبُوا۟﴾ بمَعْنى: أُلقوا، ولكن هَذَا التكرارُ يدلُّ عَلَى معنًى أدقَّ من الإلقاءِ فقطْ، يعني: كأنَّهم يُكَبُّون فيها عَلَى وُجُوهِهِم، وبدون أيضًا ترتيبٍ، وبدونِ نظامٍ، كأنما يحثون حثيًا -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- ويُلقَون.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾: أتباعُه ومَن أطاعَهُ مِنَ الجِنِّ والإنسِ ﴿أَجْمَعُونَ﴾]، أعوذُ باللهِ! جنودُ إبليسَ هم الَّذين يَتَّبِعُونَه ويُغْوُونَ النَّاسَ، فكلُّ مَن سَعَى فِي إغواءِ النَّاسِ والإفسادِ بينهم؛ فإنهم جنودُ إبليسَ، ومعلومٌ أن جنودَ إبليسَ عَلَى عكسِ جنودِ الرَّحْمنِ، فجنودُ الرَّحْمنِ يَدْعُون إِلَى الخيرِ، ويأمرونَ بالمعروفِ ويَنهونَ عنِ المُنْكَر، وأولئك يَدعونَ إِلَى الشرِّ، ويأمرونَ بالمنكرِ وينهونَ عن المعروفِ.

وفي هَذَا دَليلٌ عَلَى أنَّ كلَّ مَن نَصَرَ أحدًا فهو من جُنُودِهِ ولو بالاتباعِ؛ فَإِنَّهُ يكونُ من جُنْدِهِ، ولهذا قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»[١].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب علامة حب الله عَزَّوَجَلَّ، رقم (٦١٦٨)، ومسلم: كتاب البر والصلاة والآداب، باب المرء مع من أحب، رقم (٢٦٤٠).

ومنْ أحبَّ شخصًا أطاعَهُ واتَّبعَهُ.

قوله: ﴿هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ المُراد بـ(الغاوون) هنا الغاوونَ الأوَّلونَ الَّذين سَبقَوا، ولكن كَرَّرَ ذلك الوصفَ، ما قَالَ: فكُبْكِبُوا فيها هم وأولئك، كَرَّرَهُ لإظهارِ ذمِّ الغوايةِ، ولكن قوله: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ هَذَا هل هُوَ من بابِ عطفِ المتغايرينِ وأن الغاويَ لَيْسَ من جنودِ إبليسَ، أم أَنَّهُ من بابِ عطفِ المترادفينِ؟

نقول: الأَصْلُ فِي العطفِ: التغايُرُ، والظَّاهرُ أنَّ الغاويَ هُوَ الفاسِدُ فِي نفسِهِ، وأنَّ جنودَ إبليسَ عَلَى اسمِهِم جنود يَنْصُرُونَه ويَدْعُونَ لِـمَا يَدْعُو إليه، يقول المُفسِّر: [أتباعه ومَن أطاعَهُ]، يقيّد بمَن أطاعه فِي إغواءِ النَّاسِ ودَعوتهم إِلَى الضَّلالةِ، فيصيرُ هنا من بابِ عطفِ الخاصِّ عَلَى العامِّ؛ لِأَنَّ كلَّ مَن دعا النَّاسَ إِلَى الباطلِ فهو غاوٍ ولا عَكْس.

فوائدُ الآيتينِ الكريمتينِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فِي قولِهِ: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ دَليلٌ عَلَى إغاظةِ هَؤُلَاءِ العابدينَ للأصنامِ بإهانةِ أصنامِهِم، ويُسْتَثْنَى من ذلكَ مَن عُبد وَهُوَ صالحٌ، فَإِنَّهُ لا يُكَبْكَبُ؛ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء:١٠١-١٠٢].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفي هَذَا دَليلٌ عَلَى أنَّ مَنِ اتبعَ الشيطانَ لم يَكُنْ مِن أتباعِهِ فحَسْب، بل من جنودِهِ المناصرينَ له؛ لقوله: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾؛ وذلك لِأَنَّ المُتَّبعَ للشخصِ مقوٍّ له، وناصرٌ له، وناشرٌ لما يريدُ، فيكون كالجنديِّ المسخَّرِ له.



الآيات (٩٦- ٩٨)

• • • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٦-٩٨].

• • • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالُوا۟﴾ أي الغَاوُونَ ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ معَ مَعْبُودِيهم ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾]، لكن هَذَا الإقرار يَنْفَعُ لو كَانَ فِي الدُّنيا، فهم يَتَخَاصَمُونَ: العابد والمعبودُ، والتابعُ والمتبوعُ يومَ القيامةِ، كما قالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [البقرة:١٦٦]، وكذلك أيضًا: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟﴾ [سبأ:٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٦٤]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨]، وهكذا ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧].

فهَؤُلَاءِ الَّذين كانوا فِي الدنيا عَلَى ضلالٍ وعلى باطلٍ يومَ القيامةِ كما قالَ الخليلُ: ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٢٥]، ونحنُ نَسْتَعْرِضُ مثلَ هَذِهِ الآياتِ ونعِظ النَّاس بها، ونقول لكلِّ قوم اجتمعوا عَلَى فسادٍ: سَتزُولُ يومَ القيامةِ هَذِهِ المَحبَّةُ بينَهم، وهذه الرابطةُ، ويَتبَرَّأُ بَعْضُهم مِن بعضٍ، ويَلْعَن بعضُهم بعضًا، ونذكّرهم بهذا الأمرِ الَّذِي فِي الحَقِيقَةِ لَيْسَ ببعيدٍ، فما بينَهم وبينَه إلَّا أنْ تَخْرُجَ أَرْوَاحُهُم من

أَجسامِهم، ثم يَجِدونه، وخروجُ الرُّوحِ منَ الجَسَدِ لَيْسَ بِبَعيدٍ، فقد يكونُ قَريبًا جِدًّا، وكما قال أبو بكرٍ[1]:

كُــلُّ امْــرِئٍ مُصَــبَّحٌ فِي أَهْلِــهِ وَالْمَـوْتُ أَدْنَـى مِـنْ شِرَاكِ نَعْلِـهِ

وقد يكونُ غير قَريب جدًّا، ولكنَّه مؤخَّر لِأَجَلٍ مَعدودٍ، فإذا كَانَ اللهُ تعالى يقولُ فِي يوم القيامةِ: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٍ﴾ [هود:١٠٤]، فكيفَ إذن بِأَجَلِ الْإِنْسَانِ نفسِهِ فيكون من باب أَولى!

قال: ﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ٩٦ تَٱللَّهِ﴾ (تَاللهِ) هَذَا قَسَمٌ بحرفِ التاءِ. وحروفُ القَسَمِ ثلاثةٌ: الباءُ والواوُ والتاءُ، والأَصْلُ الباءُ، فهذه الحروفُ لَيْسَتْ كُلُّها أُصُولًا، فكلُّها يُقْسَمُ بها، لكن بعضها أَصْلٌ وبعضها غيرُ أصلٍ، مثل أَنْ يُقال: كَانَ وأَخَوَاتُها مثلًا.

والدَّليلُ عَلَى أنَّ الباءَ الأَصْلُ أنَّ الباءَ تأتي معَ القَسَمِ وبدونِهِ، وتكون فِي الضَّمير والظَّاهر: (أُقْسِمُ باللهِ) و(أُقْسِمُ به) و(أُقْسِمُ بكَ يا ربِّ).

فلهذا نقولُ: هِيَ الأَصْلُ، حَتَّى ما تأتي إلا مَعَ الظَّاهِرِ وبدونِ فِعْلِ القَسَمِ، وأيضًا ليستْ معَ كلِّ ظاهرٍ، وإنَّما تكونُ باللهِ فقطْ، وقد يُقْسَمُ بالرَّحْمنِ، فيُقال: (تَالرَّحْمنِ) وقد يُقْسَمُ بربِّ الكَعْبَةِ، لكن عَلَى قِلَّةٍ، والواوُ تدخُلُ عَلَى كلِّ ظاهِرٍ، فيُقْسَم بِهَا بكلِّ اسمٍ ظاهرٍ، سواء الله أو الرَّحْمن أو العَزيز، وما أشبهَ ذلكَ، ولكنْ لا يُقْسَمُ بِهَا فِي الْمُضْمَرِ، ولا يأتي مَعَها غير القَسَم، وبهذا يَتَبَيَّنُ أنَّ الأُمَّ من هَذِهِ الثلاثةِ: الباءُ، ثُمَّ الواوُ، ثُمَّ التاءُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل المدينة، باب كراهية النبي ﷺ أن تعرى المدينة، رقم (١٨٨٩).

قال: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (إِنْ) يقولُ المُفسِّرُ: [مُخَفَّفة مِنَ الثَّقيلة، واسمها محذوفٌ، أي: إنه]، أي: الفعل [﴿كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بيِّنٍ]، كلها بفعلٍ ماضٍ، ولم يُسْلَبْ منها الدلالة عَلَى الزمنِ؛ لِأَنَّ المُرادَ: كنَّا فِي الدنيا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بيِّنٍ ﴿إِذْ﴾ حَيْثُ ﴿نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فِي العِبَادَةِ]، وهذا صحيحٌ، فهذه غاية ما يَكُونُ مِنَ الضَّلالِ أَنْ يُسَوِّيَ الْإِنْسَانُ المخلوقَ بالخَالِقِ فِي العِبَادَةِ، وليستِ العبادةُ هِيَ الركوعَ والسجودَ فقطْ، بل حَتَّى مَن أطاعَ أحدًا فِي تَحريمِ ما أحلَّ اللهُ، أو تحليلِ ما حَرَّمَ اللهُ؛ فَإِنَّهُ عابدٌ له، كما قال الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة:٣١]، قال عَدِيُّ بنُ حَاتِمٍ للنبيِّ ﷺ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ -يعني: ما نعبدُ أَحبارنا ورُهْبَانَنا، يعني: عُلماءنا وعُبَّادنا- فقال النبي ﷺ: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، ويُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟». قال عَدِيٌّ: بلى. قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»[1].

فهَؤُلَاءِ الَّذينَ يُطَبِّقُونَ أَنْظِمَة وضعيَّة معَ مُخَالَفَتِها للشَّرع، فيكون مآلهم يومَ القيامةِ كهَؤُلَاءِ، يعني: يَتبَرَّءُونَ منهم ويُخاصِمُونهم، ويقولون مُقِرِّينَ عَلَى أنفسهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فمثلًا: الْإِنْسَان يقولُ له اللهُ فِي كِتَابِهِ وعلى لسانِ رسولِهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: هَذَا حلالٌ، فيقول له الحاكِمُ: هَذَا حرامٌ ممْنُوعٌ، فيَمْنَعُه، ويَرَى أَنَّهُ محَرَّمٌ؛ مع تحليلِ اللهِ له، فلا شكَّ أَنَّهُ اتَّخَذَ هَذَا الحاكِمَ إلهًا معَ اللهِ مُشَرِّعًا، كذلك يقولُ له مثلًا ربُّه:

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٩٥)، واللفظ للطبراني فِي الكبير (١٧/ ٩٢، رقم ٢١٨).

هَذَا حرامٌ، فيأتي هَذَا الحاكِمُ ويقـولُ: النِّظَامُ أو الدُّسْتُورُ يَقْتَضِي الحِلَّ، فيُحِلّه، فلا شكَّ أيضًا أَنَّهُ اتَّخَذَ هَذَا الحاكِمَ إلهًا معَ اللهِ، وسيكونُ مآلُهُ مآلَ هَؤُلَاءِ القومِ، سَيُخَاصِمُهُ يومَ القيامةِ ويقولُ له: ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

ولهذا جاء فِي الحديثِ الصَّحيحِ أنَّ النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ**»(١)، يعني طاعة وَلِيِّ الأمرِ فِي المعروفِ، الَّذِي عَرَّفَهُ الشرعُ.

فَإِنْ قِيلَ: كيف يتصوَّر أن أصحاب النارِ يَتجادلون حالَ العذابِ؟

فالجَواب: أحوالُ الآخِرَةِ لا تُقاسُ بأحوالِ الدنيا، أليستِ الشَّمْسُ تَدْنُو مِنَ الخَلائقِ يومَ القيامةِ بِمِقْدَارِ مِيلٍ؟! لو قُرِّبَتِ الشَّمْسُ مِقْدَار أُنْمُلَة عن مَكانها، لَأَحْرَقَتِ الدنيا إِحراقًا، وتكون يومَ القيامةِ بمقدارِ مِيلٍ ولا تُحْرِق النَّاسَ! فلا يُمْكِن أنْ تُقاسَ أحوالُ الآخِرَةِ بأحوالِ الدنيا أبدًا، كما أنَّ أحوالَ البَرْزَخِ إذا ماتَ الْإِنْسَانُ وأُقعِدَ وسُئِلَ وعُذِّب، فلا تُقاسُ بأحوالِ الدنيا.

الحاصلُ أنَّ اللهَ تعالَى يقولُ لِهَؤُلَاءِ الَّذينَ اتَّخَذُوا معبودينَ سِواه، سواء كانتْ عبادةَ التذلُّل، أم عبادة الحُكْم، يقول لهم: إنهم يُكَبْكَبُونَ فِي نارِ جَهَنَّم، ويَخْتَصِمون فيها، ويقول التابعونَ للمتبوعينَ: ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، رقم (٧١٤٥)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء فِي غير معصية، وتحريمها فِي المعصية، رقم (١٨٤٠).

فوائدُ الآياتِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فيها دَليلٌ عَلَى نَدَمِ أهل النارِ نَدَمًا عَظيمًا، حين قالوا وهم يَختصِمون -يُخاصِم بعضُهم بعضًا-: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ﴾، وهنا أقسموا وأكَّدوا: ﴿تَٱللَّهِ﴾ قسَم، ﴿إِن كُنَّا﴾ إنْ مُخَفَّفة منَ الثقيلة، وتفيد التَّوكيدَ، واللام، و﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ كذلك، وإن كَانَ بعض النَّحْويين يُسمِّي اللامَ هنا الفارِقَةَ، ولكنها معَ كَونها فارقةً هِيَ أيضًا مؤكِّدة، ومَعْنى فارقةٍ أَنَّهَا تُفَرِّق بين (إنِ) النافيةِ و(إنِ) المخفَّفة؛ لِأَنَّ الصورةَ واحدةٌ، ولا يَتبَيَّن أنَّ المُرادَ هَذِهِ أو هَذِهِ إلَّا بوُجودِ اللامِ؛ فإن عُدِمَتِ اللامُ امتنعَ الكَلامُ إلَّا إذا دلَّتِ القرينةُ عَلَى خلافِ ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفي قولهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم﴾ اعترافٌ ضِمْنِيٌّ بأنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا شَبيهَ له؛ لأنَّهم أنكروا وبيَّنُوا أنَّهُم فِي ضلالٍ مُبينٍ حينَ سَوَّوْا هَذِهِ الأصنامَ بالربِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الَّذِي لا يُماثِلُه أحدٌ فِي هَذَا الوصفِ؛ ربِّ العالمينَ، هَذِهِ الأصنام الَّذين يَعْبُدونها يَعْتَقِدون أنَّ رُبُوبِيَّتَها، أو أُلُوهِيَّتَها بالأصحّ، أَنَّهَا محصورةٌ فِي عَابديها، أمَّا ربُّ العالمينَ فهو ربٌّ لكلِّ أحدٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فِي قولِهِ: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارة إِلَى بيانِ الضَّلالِ؛ إذ لا يمكِن التسويةُ بينَ مَن هَذَا وصفه -ربِّ العالمين- بِمَن لم يَسْتَحِقّ من هَذَا الوصفِ شيئًا، وهذه الأصنام لا تَسْتَحِق وَصْفًا منَ الربوبيَّة إطلاقًا، فضلًا عن الربوبيَّة العامَّة لجميعِ العالَمِينَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فِي ذلكَ أيضًا اعترافُهم البالِغ بضلالِهم: ﴿إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يعني: بيِّن ظاهِر، حيثُ نُسَوِّيكُم، ولكن هَذَا الاعترار وهذا الإقرارُ بالربِّ،

وهذا التنزيهُ له عن المساواةِ فِي ذلكَ المكانِ لا يَنْفَعُ؛ لِأَنَّهُ فاتَ الأوانُ -وقت العمل فِي الدنيا- أمَّا الآن فهو وَقْتُ الجزاءِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: انتفاءُ التَّشْبِيهِ عنِ اللهِ؛ يُؤْخَذُ من قَوْلِهِم: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ففي هذا نفيُ تشبيهِ المخلوقِ بالخالِقِ.



الآيـــة (٩٩)

• • ✿ • •

۞ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الشعراء:٩٩].

• • ✿ • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ﴾ عنِ الهُدى ﴿إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: الشياطين]، يعني: شياطين الإنس والجِنِّ، هكذا يَجِبُ، والمُجْرِمُ: فاعلُ الإجرامِ، ويُطْلَقُ كثيرًا فِي القُرآنِ عَلَى الكافرِ، والمَعْنى: ما أَضَلَّنَا إلَّا أهل الكُفْر والإجرام، الَّذين اعْتَدَوْا علينا بهذا الإضلالِ، ولكن حقيقةً هم ما اعْتَدَوْا عليهم؛ لأنَّهم هم الَّذين انقادوا لهذا الكُفْرِ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر:٤٧-٤٨]، وفي سُورةِ سَبأ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٣٣].

فالكفَّار الَّذينَ تَبِعُوا المُسْتكبِرِينَ لا عُذْرَ لهم عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حَتَّى وإنْ سبُّوهم، وقالوا: إنهم مُجْرِمُونَ؛ فإن ذلكَ لَيْسَ بِعُذْرٍ، فإنهم قد أعطاهم اللهُ تعالى العقولَ والإدراكَ، وأرسلَ إليهم الرُّسُلَ، وأنزلَ عليهم الكتبَ، فما بَقِيَتْ لهم حُجَّة فِي أنْ يَحْتَجُّوا بأن هَؤُلَاءِ أضلُّوهم.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: الشياطين، أو الأَوَّلون الَّذين اقْتَدَيْنَا بهم]، فهذا إذا كَانَ المُراد بالمجرِمِ الضالّ، سَوَاء اعتدى أو لم يَعْتَدِ؛ لِأَنَّهُ إذا كانوا آباءهم الَّذين اقتدوا بهم فإنَّهم لم يُضِلُّوهم، ولم يُجْرِمُوا عليهم، فهَؤُلَاءِ هم الَّذين أَجرموا عَلَى أَنْفُسِهِمْ.

ولا يَبْعُدُ أنْ يُرادَ بالآياتِ المعنيانِ جَميعًا؛ فإنهم ضَلُّوا بأمرينِ:

الأوَّل: بِمَن يدعونهم وهم أحياءٌ إِلَى الضَّلالِ.

والثَّاني: بِمَن يُقَلِّدُونهم وهَؤُلَاءِ من الأموات.

لكن فِي المسألةِ الأُولى يكون الجُرْمُ عليهم وعلى مَن أضلَّهم، وفي الثَّانية عليهم وَحْدَهم؛ لِأَنَّ أولئكَ الأموات فِي الحَقِيقَةِ ما جَنَوْا عليهم؛ إذ إن الرُّسُل جاءتهم وبيَّنَتْ لهم.

ويستفاد من الآية:

سبُّ هؤُلاءِ بعضهم بعضًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، فهذا قَدْحٌ فيهم من جهةِ أنَّهم أَضَلُّوهم، ومن جهةِ أنَّهم مُجْرِمُون.



الآيـة (١٠٠)

• ● ● •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ [الشعراء:١٠٠].

• ● ● •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ كما للمُؤْمِنينَ منَ الملائكة والنبيِّين والمُؤْمِنينَ].

كلمة (ما) نافية وليستِ استفهاميَّة، والدَّليلُ إتيانُ (مِن) المؤكِّدة: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾، وأصلها: فما لنا شافعونَ، ولكن أُتِي بـ(مِنْ) للتَّوكيدِ.

والشَّافع: هُوَ المتوسِّطُ للغَيْرِ بِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ أو دَفْعِ مَضَرَّةٍ، فشفاعةُ النبيِّ ﷺ لأهلِ المَوْقِفِ أنْ يُقضَى بينهم من بابِ الشَّفاعةِ؛ لدفعِ المضرَّةِ والمشقَّة، وشفاعته لأهلِ الجنَّة أن يَدْخُلوا الجنَّة من باب جَلْبِ المنافِعِ، فالشَّفاعةُ هِيَ التوسُّطُ للغَيْرِ بِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ أو دَفع مَضَرَّة، وإنْ شئتَ فَقُلْ: لِدَفْعِ الضَّيْرِ أو جَلْب الخَير، فهذه هِيَ الشَّفاعةُ.

فهم لَيْسَ لهم شافعونَ؛ لِأَنَّ من شَرط الشَّفاعةِ أنْ يكونَ المشفوعُ له مؤمنًا، والدَّليلُ ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]. وهَؤُلَاءِ لا يَرْتَضِيهِمُ اللهُ، فهم يقولونَ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ يعني: ما لنا أحدٌ يَشْفَعُ إطلاقًا لا منَ الأَنْبياءِ ولا من غيرهم؛ لِأَنَّ من شرطِ الشَّفاعةِ أنْ يرضى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عنِ المشفوعِ له، وعنِ الشافِعِ من باب أَولى، فإذا كَانَ لا بدَّ مِن رِضَا الله عن المشفوعِ له، فعن الشافِعِ من باب أَولى.

وأمَّا الإذنُ فهو شَرْطٌ أيضًا حَتَّى معَ رضا اللهِ عن هَذَا وهذا، فلا بدَّ أيضًا منَ الإذنِ، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يأْذَنُ بالشَّفاعةِ إلَّا لِمَن يَرضاه، فصارَ لا بدَّ منَ الشَّرطينِ، فلا يُقال مثلًا: إنه إذا ارتضى شخصًا فَإِنَّهُ لا بدَّ أن يأذنَ له، فقد يأذَنُ وقد لا يأذنُ، ولكن نَعْلَم أَنَّهُ لن يأذنَ إلَّا لِمَنِ ارْتَضَى، وهَؤُلَاءِ لا يَرْتَضِيهم اللهُ.

فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: انْتِفَاءُ الشَّفاعَةِ عن المكذِّبين للرُّسل وأنَّه لا يُشفع لهم، وتُؤْخَذ من قَوْلِهِ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إِثْبات الشَّفاعَة للمُؤمِنينَ، ويُؤْخَذ من قولهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾، فنَفَوْا أن يكونوا منَ الشافعينَ، ومفهومُ هذا أن المُؤمِنينَ لهم شفاعة، كَأَنَّهم لَـمَّا رَأَوْا أن المُؤمِنينَ يَشفعونَ بعضهم لبعضٍ، قالُوا: نحن ما لنا مِن شافعينَ ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء:١٠١].



الآيــة (١٠١)

• ● ◦ ● •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء:١٠١].

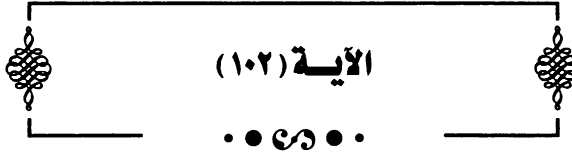
• ● ◦ ● •

قوله: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ معطوف على: ﴿شَٰفِعِينَ﴾ باعتبارِ اللفظِ، ولو عَطَفْتَ الآيَةَ هنا باعتبارِ المَحَلّ لكانتْ: (وَلَا صَدِيقٌ)؛ لأن: (شَافِعِينَ) فِي مَحَلّ مبتدأٍ.

قال: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ الصَّديق: مَن صَدَقَكَ الوُدَّ، يعني: الصَّاحب الصَّادق فِي وُدِّه يُسَمَّى صَديقًا، وَهُوَ أخصُّ مِنَ الصَّاحِبِ، فكلُّ صديقٍ صاحبٌ، وليسَ كلُّ صاحبٍ صَديقًا، وأمَّا الحَمِيم فَإِنَّهُ القَريب، أو أَنَّهُ البالِغُ فِي الصَّداقةِ، بحيث يَحْنُو عليكَ كما يحنو القريبُ.

والمُفسِّر يقولُ: [﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ يُهِمُّهُ أَمْرُنا]؛ لِأَنَّ الصَّديقَ الحميمَ الحانيَ العاطفَ أوِ القريبَ يُهِمُّهُ أمرُ صَاحِبِهِ وصَدِيقِهِ، وهل هَذِهِ الصِّفَةُ -حميم- صِفَة كاشفةٌ أمْ صفة مقيِّدة؟

هي صفة كاشفةٌ، إذا قلنا: ما من صديقٍ إلا وَهُوَ حميمٌ، فهي صفةٌ كاشفةٌ، وإذا قلنا: قد يكون صَديقًا لكنه لَيْسَ بِحَمِيمٍ، فهذه تكونُ صفة مقيِّدة، بشرطِ أنْ نجعلَ الحميمَ هنا بمَعْنى القريبِ؛ لِأَنَّهُ قد يكونُ صَديقًا وليسَ قريبًا، فإذا جعلنا الحَمِيم بمَعْنى الحانِي الَّذِي يكونُ كالقَريبِ بِحُنُوِّهِ وعَطْفِهِ، فهي صفةٌ كاشفةٌ، لكن إذا قلنا: حَميم قَريب، صارَتْ مقيِّدةً؛ لِأَنَّهُ ما كلُّ صَدِيقٍ يكون قَريبًا.



الآية (١٠٢)

• قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٠٢].

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ رَجْعَة إِلَى الدُّنيا ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (لو) هنا للتمنِّي، و(نكون) جَوَابُه]، يعني: ليتَ لنا كَرَّة، أي رَجْعَة إِلَى الدنيا، (فَنَكُونَ) الفاء للسببيَّة، و(نكون) مَنْصُوبةٌ بأَنْ مُضْمَرَةً بعدَ فاءِ السَّببيَّة بتقدُّمِ التمنِّي، ولهذا يقول: [(لو) هنا للتمنِّي و(نكون) جوابه].

قال: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ يعني: ليتَ أنَّ لنا كَرَّة ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقولوا: (ليتَ)؛ لِأَنَّ المَقامَ مَقَامُ تَذَلُّلٍ وخُضُوعٍ، و(لو) للتمنِّي أقلّ مِن (ليت)؛ لِأَنَّ (ليتَ) صَريحةُ الطَّلَب، و(لو) فيها نوعٌ منَ اللِّين والعرْض، مثلما تقول للإِنْسانِ الَّذِي تَتَمَنَّى أنْ يَزُورَكَ: (لو أنَّك تَزُورنا)؛ فإن (لو) هَذِهِ للتمنِّي بلا شكّ، لكنها تَمَنٍّ بلِينٍ وعَرْض ولُطفٍ، والمَقامُ هنا يَقتضيه؛ لِأَنَّهُم فِي مَقامِ ذُلٍّ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- وخُضُوع، فلم يَقُولوا: لَيْتَنا نَرْجِع، ولكنهم يقولون: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

عَلَى أَنَّهُ فِي سُورةِ الأنعام يقولون: ﴿يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧]، فيُقال: الجمعُ بينهما أن لهم حالاتٍ، فأحيانًا يقولون بهذا وأحيانًا يقولون بهذا، لكن أيُّهنَّ أوَّل؟ ليت أم لو؟

الظَّاهر (ليت) هِيَ الأُولى، يعني: كأنه يكونُ بالأوَّل بِعَزْمٍ عَلَى التمنِّي، ثم إذا لم يَحْصُلْ لهم رَجَعُوا إِلَى الخُضُوعِ والخُنُوعِ والعَرْض.

ولو أَنَّهُم رُدُّوا هل يَرجعون؟

يقول الله تعالى فِي سُورَة الأنعام: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨]، هَذَا الخبرُ الصادقُ، يعني: لَيْسَ قولهم: إننا إذا رجعنا نكون من المؤمنين، فهذا خبرٌ كاذبٌ، والخبرُ الصادقُ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فِي قولهم: ﴿نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧].

فَإِنْ قِيلَ: فِي نَفْسِ المَقامِ يَسْتَشْعِرُونَ أَنَّهُم كاذبونَ أم فِي عِلم اللهِ أَنَّهُم لو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه؟

فالجَواب: الظَّاهرُ أَنَّهُ فِي عِلم اللهِ، فيمكِن أَنَّهُم حِينما يقولونه فِي تلك الساعة يقولونه صِدقًا، ولكن الله أخبر بأنَّهم إذا رَجَعوا فسيعودون إِلَى الكفرِ.

قال: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: من المصدِّقين المُقِرِّينَ المُلْتَزِمِينَ بالعملِ؛ لِأَنَّ الإيمانَ وَحْدَهُ لا يَنفَعُ، فإذا لم يَسْتَلْزِمِ العملَ فليسَ بإيمانٍ، ولهذا نقول: إن الكفّار الَّذين أتتهم آيات الله كان بها مؤمنين ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤]، ولكن لكونهم لا يَنقادون لم يَنْتَفِعوا بإيمانهم، فإبليسُ بمَعْنى التصديقِ مؤمنٌ، لكنه مستكبِر، فلم يَنْفَعْهُ إيمانه.

وأذكر أَنَّهُ حينما صَعِدَ أوَّلُ رَجُلٍ إِلَى الفضاءِ مِنَ الرُّوس وشاهَدَ الكونَ أعلنَ أن هَذَا الكونَ له مدبِّر، فجاء أصحابُه الروس وقالوا: ما تقول؟!

فإذا لم يَنْقَدِ الإنسانُ فليسَ بمؤمنٍ، ولهذا نقولُ: إنَّ الإيمانَ هو التصديقُ المستلزِمُ لِلْقَبُولِ وللانقيادِ: قَبُول الخَبَرِ والانقياد للأَمْرِ والنَّهْيِ، هذا هو الإيمانُ. وأمَّا مُجَرَّد أنَّ الإِنْسانَ يقول: أنا مُؤْمِن بالله، وأنا أَعْتَرِف بأنَّ اللهَ موْجودٌ، وأن له رُسُلًا، لكنَّه لا يَعْمَل، فلا يَنْفَعُهُ هذا الإيمانُ.

فالإيمان الَّذي يَنْفَعُ هو ما ذكرتُ، وقد يُطْلَقُ الإيمانُ لغةً على مجرَّد التصديقِ، ويُقال: هذا مؤمنٌ بشيْءٍ، لكنَّه كافرٌ بأشياءَ، فهذا ليسَ الإيمانَ الشرعيَّ.

وكلُّ مَن كَانَ مُسْتكْبِرًا فهو أشدُّ؛ لأنَّ الَّذي يَتبَيَّن له الحقُّ ويَسْتكْبِر عنه، يكون كُفْرُه كفرَ عِنادٍ، والذي لا يَعْرِف الحقَّ وهو الآن يَعْمَل بعملِ أهلِ الكُفْرِ، هذا كُفْرُه كُفْرُ جَهْلٍ.

فالنَّصارَى في عهدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قبلَ بَعْثَتِهِ يُعْتَبَرُونَ ضالِّينَ، وبعد أنْ بُعِثَ وتَبَيَّنَ لهمُ الحقُّ يكونونَ مَغْضُوبًا عليهم؛ إذ لا فرقَ بينهم وبينَ الْيَهُودِ، فكلٌّ مِنهم بُشِّر بمُحمَّدٍ ﷺ، واللهُ تَعالَى يقولُ في وَصْفِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧]، معروفٌ، وكُفْرُهم على حدٍّ سواءٍ، ولهذا لا يَصْلُحُ أنْ نقولَ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة:٨٢]، فهذه لا تَنْطَبِق على زَماننا هذا، ولا على ما قبله بأزمنةٍ؛ لأنَّ اللهَ بَيَّنَ هذه العِلَّة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ المائدة: [٨٢-٨٣]، الآن منهم قِسِّيسُونَ ورُهبان مُسْتكبِرون عنِ الحقِّ، داعونَ إلى الضَّلال -والعياذُ باللهِ- فلا يُمْكِن

أن يَنْطَبِقَ عليهم هذا الوصفُ، وعداوتُهُمُ الآنَ لِلمسلمينَ والَّذينَ آمنوا أيضًا، خاصَّةً للذين آمنوا لا للمسلمينَ فقطْ، ظاهِرَةٌ، وهم لا يَنْسَوْنَ أبدًا غَزَواتِ المسلمينَ لهم في عُقْرِ دارهم، ولا يَنْسَوْنَ أبدًا الحروبَ الصليبيَّة، ولا يَنسونَ الافتتاحَ العظيمَ الَّذي حَصَلَ في دارهم؛ فإنَّ بلاد الرُّوم كلّها أُخِذَتْ، والروم كُلّهم نَصارَى، فأخذت على أيدي المسلمينَ.

وفي الآية الكريمة دَليلٌ على النَّدَمِ البالغِ الَّذي يُصيبُ هؤُلاءِ في ذلكَ اليومِ، وتمَنِّيهم لو أَنَّهم رَجَعُوا إلى الدُّنيا؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهذا التمنِّي ليسَ بصَحِيحٍ؛ فإنَّهم لو رَجَعُوا لما كَانوا مُؤمنينَ؛ والدَّليل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨].



الآيتان (١٠٣، ١٠٤)

• • ••• • •

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١٠٣-١٠٤].

• • ••• • •

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذْكُور مِنْ قِصَّة إبْرَاهِيم وَقَوْمه].

يقول اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المُشار إليه هو المذكورُ مِن قِصَّة إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه ﴿لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، وقد سبق الكلام عليها.

لكن يجبُ علينا أنْ نَعرِفَ أنَّ اللهَ تَعالَى إذا قالَ عن شَيْءٍ: إنَّ فيه آيةً، يجب ألَّا نَأْخُذَه مَأْخذَ الظَّاهِرِ فقطْ، بل يَجب أنْ نَتأَمَّل ما هذه الآيات.

وقَوْلُهُ: ﴿فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ هل المُـرادُ بذلكَ جُملةُ القِصَّة، أم في كلِّ جـزءٍ مِنَ القِصَّة؟

فنقول: إنَّ الإشارةَ إلى المجموعِ بلا شَكٍّ، ففي كلِّ قطعةٍ منها آيةٌ، وفي اجتماعِ هذه القِطَعِ بَعْضها إلى بعضٍ أيضًا آيةٌ، فتكون الآيةُ مُوَزَّعَةً على كلِّ قطعةٍ، ويكون أيضًا اجتماعُ هذه الأشياءِ جميعًا فيه آيةٌ.

وإنَّما المهمُّ أن الله تعالَى إذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ يجبُ عليك أنْ تَتأَمَّلَ وتَتَفكَّرَ وتَعْتَبِر؛ لِتَظْهَرَ لكَ هذه الآيةُ.

وقَوْلهُ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الضَّميرُ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ الراجِح أنَّه يعودُ إلى مَن كَانوا في عَهْدِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

و(ما) فيها قولانِ:

الأوَّل: أنها حِجَازِيَّة على الصَّوابِ، وليستْ هي العاملةَ، بلِ الصَّوابُ أنَّ الَّذي عَمِلَ (كان)؛ لأنك إذا جعلتَ (ما) هي العاملة صارت (كان) زائدةً، والأَصْلُ عَدَمُ الزيادةِ.

والثَّاني: أنها نافيةٌ، فيكون قَوْلهُ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يَعْنِي: لم يكنْ أكثرُهُمْ مُؤْمِنًا.



الآية (١٠٥)

• • • •

❁ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥﴾ [الشعراء:١٠٥].

• • • •

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ بِتكْذِيبِهِمْ لَهُ لِاشْتِرَاكِهِمْ فِي المجِيءِ بِالتَّوْحِيدِ، أَوْ لِأَنَّهُ لِطُولِ لُبْثه فِيهِمْ كَأَنَّهُ رُسُل، وَتَأْنِيث (قَوْم) بِاعْتِبَارِ مَعْنَاهُ وَتَذْكِيرُه بِاعْتِبَارِ لَفْظِهِ].

قَوْلُهُ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ﴾ ذكَرَ المُفَسِّر جوابًا على تأنيثِ الفعلِ معَ أنَّ الفاعلَ مذكَّر.

قَوْلُهُ: ﴿نُوحٍ﴾ نوحٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو أوَّل رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إلى أهلِ الأَرْضِ، يُؤْخَذُ من قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النِّساء:١٦٣]، أما آدمُ فهو أوَّل نَبِيٍّ نُبِّئَ؛ فإِنَّه كَان نبيًّا بلا شَكٍّ، ونوح كَان أَوَّل رَسُولٍ، وإنَّما كَان آدمُ نبيًّا للضَّرورَةِ؛ لأنه لا بُدَّ أنْ يَتَعَبَّد لله، ولا عِبادَة لله إِلَّا بما شَرَعَ، ولا شَرْعَ إلا بوحيٍ، لكنَّه لم يرسَلْ؛ لعدمِ دعاءِ الحاجَةِ إلى ذلكَ؛ إِذِ النَّاسُ كَانوا مُتَّفِقِينَ، فلمَّا اختلفوا بعثَ اللهُ الرُّسُلَ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، في قِراءَة ابن عباس: «كَانَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً فاخْتَلَفُوا»(١)، وهذه الجُملة لا داعيَ لها؛ لأنها مأخوذةٌ مِن قَوْلِهِ: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٩٦، رقم ٤٠٠٩).

فعلى كُلِّ حالٍ، في عَهْد آدمَ لم يكنْ حاجةٌ إلى الرِّسَالَةِ، إنَّما النبوَّة فقطْ، وهو يَتَعَبَّد لله وأبناؤُه، بل أولاده يَتَّبِعُونَه في ذلك على وجهِ الاتِّفاقِ بينَهم.

ولـمَّا كَثُرَتِ الأُمَّةُ وانتشرتْ في الأَرْض اختلفوا، فصارتِ الحاجةُ والضَّرورَةُ داعيةً إلى إرسالِ الرُّسُلِ، فبعثَ اللهُ تَعالَى نوحًا، وهو أوَّلُ رَسُولٍ أرسلَهُ اللهُ إلى الأَرْضِ، كما يُشيرُ إلى ذلك قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النِّساء:١٦٣]، وكما هو صَحِيحٌ صريحٌ في حديثِ الشَّفاعَةِ: «وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحًا، فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ»(١).

وإذا قلنا: إنَّه أوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَه الله إلى أهلِ الأَرْضِ، فهل نقولُ: إنه أُرسِلَ إلى النَّاسِ كافَّةً، فيُحتاج حينئذٍ أنْ نجمعَ بينَه وبينَ قَوْلِ النَّبيِّ ﷺ: «وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً»(٢)؟

قلنا: هو أوَّلُ رَسُولٍ؛ لأنه لو شارَكَهُ غيرُه ما كَان هو الأوَّلَ، لكَانَ هو وغيره هو الأوَّل. وقد يقول قائلٌ: لعلَّ أحدًا بُعِثَ في حياة نُوحٍ، لكن في غيرِ مكانِه، وقد نقولُ بظاهرِ الأوَّل، وإنه إنَّما بُعِثَ إلى النَّاسِ لأن النَّاس كَانوا في ذلكَ الوقتِ أُمَّةً واحدةً قليلينَ، لم يَنتشروا كثيرًا في الأَرْض، فكَان هؤُلاءِ النَّاس بمنزلةِ القومِ في الرُّسُلِ الَّذينَ بعدَهم، وعلى هذا الطريق نَسْلَمُ منَ الإشكالِ الآخرِ، وهو أنَّ الله تَعالَى أغرقَ جميعَ أهلِ الأَرْضِ في عهدِ نوحٍ، إلا مَن آمَنَ معه، إذ يُقالُ: كيف يُغْرَقُونَ ولم يَبْعَثْ إليهم رسولًا؟ فلولا أنَّ نوحًا كَان رسولًا إليهم ما أُغرقوا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٦٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «جُعِلَتْ لِيَ الأرضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»، رقم (٤٣٨)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٢١).

جميعًا، وإنْ كَان منَ الجائزِ أنْ يُقال: لعلهم أيضًا -الَّذين بُعِث إليهم في زَمَنِه- كذَّبوا رُسُلَه، لكنْ ظاهرُ الآيَاتِ أنَّ الَّذينَ غَرِقوا إنَّما غَرِقوا بسؤالِ نوحٍ.

وعلى كُلِّ حالٍ، هذا إشكالٌ دائرٌ بين العُلَماءِ من قَدِيم، وقد أجابوا عنْ ذلكَ بأنَّ نوحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كَانت رسالتُه إلى النَّاسِ كافَّةً في ذلكَ الوقتِ؛ عرَضًا لا أصلًا.

وفرْقٌ بينَ ما يأتي إلى أُمَمٍ مُخْتَلِفَةٍ أُرْسِل إلى كلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ، ثم يُقال لهؤُلاءِ الأمم كلِّهم: يجب أن تَتَّبِعوا هذا الرَّسُولَ، لتكونَ الأُمَّةُ واحدةً، وبينَ مَن لم يُبْعَثْ إلَّا في قومِه فقطْ؛ في أُمَّة واحدةٍ فقطْ، فإنَّ كونَه مبعوثًا إليهم جميعًا على سبيلِ الاتِّفاقِ والعُرْف لا على سبيلِ القصدِ، وبهذا تَظْهَرُ المَيْزَةُ بينَ مُحَمَّدٍ ﷺ وبين نوحٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ونَسْلَمُ منَ الإشكالِ.

فنقول: نوح أُرْسِل إلى قومِهِ وليس هناك أُمَمٌ مختلفةٌ يجبُ أنْ يَتوحَّدُوا على رَسُولٍ كما كَان في عهدِ النَّبيِّ مُحمَّد ﷺ، وكونه مُرْسَلًا إلى جميعِ النَّاسِ في ذلك الوقتِ ليسَ من بابِ القَصْدِ، بل هو من بابِ الاتِّفاقِ والعَرَض، أي أنَّه اتَّفَقَ أن النَّاسَ كلَّهم انْحَصَرُوا في قومِ نوحٍ، فهنا ما قصدَ من رسالتِهِ أن تكونَ شاملةً لجميعِ الأُمَمِ، بخلاف رسالةِ النَّبيِّ ﷺ فإنَّه قصدَ أن تكونَ شامِلَةً، وأن يتوحَّد الْيَهُودُ والنَّصارَى والمَجُوسُ والوَثَنِيُّونَ، كلهم يَتَوَحَّدُون في أُمَّةٍ واحدةٍ، بفرق بين الْعُمومَيْن: الْعُموم القَصْدي والْعُموم الاتفاقي.

فهذا نوحٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول لهم: إن قومَه كذبوا الْمُرْسَلِينَ، ونحن نعلمُ أنَّهم ما كذَّبوا إلا رَسولًا واحدًا، فليسَ قبلَ نوحٍ أحد حتى نقول: كذبوا هذا وهذا.

وكيف نَجْمَعُ بينَ ما جاء في حديثِ الشَّفاعَةِ: «فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ»(١)، وبين قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]، مع أنه أوَّل الرُّسُلِ؟

يقول المُفسِّرُ في الجَوابِ عن هذا: [بِتَكْذِيبِهِمْ لَهُ لِاشْتِرَاكِهِمْ -أي: المرسلين- فِي المَجِيءِ بِالتَّوْحِيدِ]؛ إذِ اشتركوا كلُّهم في المجيءِ بتوحيدِ الله عَزَّوَجَلَّ والقيام بطاعتِه، فصاروا جنسًا واحدًا، وتكذيبُ واحدٍ منَ الجنسِ تكذيبٌ للجميعِ؛ إذ إنهم لم يُكَذِّبوا نوحًا لأنه نوحٌ، لكن كذَّبُوه لأنه جاء بالتوحيدِ، فلو جاءَ كلُّ نبيٍّ بالتوحيدِ لَكَذَّبُوه، وعلى هذا فإذا جاءهم هُودٌ كذّبوه، إذ لا فرق، وإذا جاءهم صالحٌ كَذَّبُوه، وإذا جاءهم مُوسَى كذَّبوه، وإذا جاءهم مُحَمَّدٌ كذَّبوه؛ لأنَّهم كذَّبوا الجِنْسَ لا الشخصَ؛ لأنه أَتَى بما يُخالِفُ ما هم عليه فكذَّبوه، لذلك يكونونَ مكذِّبين لجَمِيعِ الرُّسُلِ.

ولهذا نقولُ للنَّصارى الَّذينَ يَدَّعُونَ أنَّهم مُؤْمِنُونَ بِعِيسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: إنكم كافرونَ به، مكذِّبون له؛ لأنَّهم كذَّبوا مُحَمَّدًا ﷺ، لا سِيَّما وأن رسولهم عِيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بشَّرَهُم به كما حَكَى عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]، ولا شكَّ أنه لن يُبَشِّرَهُمْ بمَن ليسَ لهم.

أرأيتَ لو أنَّ مَولودًا لِفلانٍ وُلِد فهل آتي إليك وأقول: أَبْشِرْ بمولودِ فلانٍ وليس بينك وبينه ارتباطٌ؟!

(١) سبق تخريجه.

ولو أن إِنْسانًا قدِمَ لِيُوَزِّعَ جوائزَ على آلِ فلانٍ، فهل أُبَشِّرُكَ بقُدُومِهِ؟! ولو حدثَ هذا لكان سَفَهًا.

إذن لم يُبَشِّرْهُمْ عِيسى إِلَّا لأنه رَسُولٌ إليهم، ولهذا قال: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]، يَعْنِي: عَيَّنه بالاسمِ حتى لا يَبْقَى فيه إشكالٌ فيما بعدُ، ولكن -والعياذُ باللهِ- هم كَفَرُوا، وكفروا بالنَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فيكونونَ كافرينَ بعِيسى بنِ مَرْيَمَ.

وكذلكَ الْيَهُودُ كُفْرُهم بمُحمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كفرٌ بِمُوسى وبالتَّوراة الَّتي وُجِد فيها رَسُولُ الله مكتوبًا عندَهم: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦]، مثلما أنَّ الإِنْسان يَعْرِف ابنَه فهم يَعرِفونَ مُحَمَّدًا ﷺ بوصفه، ولكنه الاستكبارُ والعياذُ باللهِ.

فإن سأَلَ سائلٌ: إن كانَ نوحٌ نُبِّئَ ولم يُرْسَلْ برسالةٍ، فكيف اتَّبَعَهُ أولادُه؟

فالجَوابُ: رَأَوْا ما يفعل ففعلوا؛ لأَنَّه عادةً أنَّ الإِنْسانَ يُقَلِّدُ مَن هو أكبرُ منه، وليسَ هناك موانِعُ وفوارقُ تَمْنَعُهُم وتَصرِفُهُمْ عن تقليدِهِ.

فإن كانَ في عِبادته أشياءُ قَوْلِيَّة تَحتاج إلى تفسيرٍ، فإِنَّه سَيُفَهِّمُهُمْ مِن فِعْلِهِ ومن قولِهِ، لكن هذا لا يَعْنِي أنه صارَ رسولًا؛ لأن المرسَلَ هو المبلِّغُ المكلَّفُ، أمَّا هذا فليسَ بمكلَّفٍ، ولهذا نقول مثلًا: إن الجنَّ لم يَنتفعوا برسالةِ نوحٍ؛ إذِ المعروفُ عند أهلِ العِلْمِ أنه لم يُرسَلْ إليهم، وأنه ما أُرْسِلَ إلى أحدٍ من الجنِّ إلا مُحَمَّدٌ ﷺ، مع أنَّهم يقولونَ: ﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأحقاف:٣٠]، وهذا يدلُّ على أنَّهم كانوا مُنْتَفِعِينَ بكتابِ موسى.

فإنْ قيلَ: وما دَليلُ أهلِ العِلْمِ على أنَّ الرُّسُلَ السَّابقينَ لم يُرْسَلُوا إلى الجنِّ ما دامَ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقولُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]؟

قلنا: هم يقولونَ: إنَّ النَّبيّ يُبعَث إلى قومِه، وقومُه قبيلتُه وما يَتَّصِل بهم، والجنُّ ليسوا من جِنْسِهِ حتى يكونوا من قومه.

لكن رسالة النبي ﷺ إلى الجنِّ لا تدلُّ على عُمومِ رسالتِهِ إلى الجنّ؛ لأن الجنَّ لَيسوا منَ النَّاسِ، لكن في كونِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يجتمِع بهم ويُواعِدُهُمْ، ويَقْرَأُ عليهم القُرآنَ، ويُخْبِرُهم بما فيه يدلُّ على أنه مُرْسَلٌ إليهم.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، هل يَعْنِي أنَّ الجنّ يَعْبُدُونَ بِشَرْعٍ؟

قلنا: الأَصْلُ أنَّ مَن يعبدونَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أنَّهم يَعبدون بالشرعِ، فهم يَتَعَبَّدُونَ بالشرعِ بلا شَكّ.

وهل منهم رُسُلٌ أو ليسَ منهم رسلٌ؟

هذه المسألة موضع نزاع بين العلماء؛ فمنهم من قال: منهم رُسُلٌ؛ لقَوْلِهِ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي﴾ [الأنعام:١٣٠]، فقال: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، والرَّسُول لا بُدَّ أنْ يكونَ من جِنس مَن أُرْسِلَ إليه؛ لقَوْلهُ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩]، ولا يمكن أن يرسل إلى الجِنّ بشرٌ.

ومنهم من قال: إن قَوْلَهُ: ﴿مِّنكُمْ﴾ يعود إلى المخاطَبينَ باعتبارِ المجموعِ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يخاطب اثنينِ، والضَّميرُ في: ﴿مِّنكُمْ﴾ يعود إلى أحد الاثنين،

مثلما قالُوا -على زعمهم-: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرَّحمن:١٩-٢٢]، وزَعَمُوا أنَّ اللُّؤْلُؤَ والمَرجان لا يخرجانِ إلَّا مِنَ المالِحِ.

وعلى كُلِّ حالٍ فإن عَوْد الضَّميرِ على واحدٍ من المجموعِ إذا خُوطِبَ الجميعُ شائعٌ في اللُّغة.

وبعضهم يقول: إن المُرادَ بالرُّسُلِ هنا النُّذُر، فقلنا: رُسُل؛ لِمُشَابَهَتِهِم له، والنُّذُر لا شكَّ أنَّهم يأتونَ إلى الجنِّ كما يأتونَ إلى الإنسِ.

والراجحُ أنه ليسَ منهم رَسُولٌ؛ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ [يوسف:١٠٩]، والجنُّ ليسوا من (رِجَالًا).

والنَّبيُّ غيرُ الرَّسُولِ، فالنَّبيُّ مَن أُوحِيَ إليه؛ لأنَّ الوحيَ الَّذي يُشَبَّه بوحيِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو مِن نوحٍ فأقلَّ فما دُونَه، فالوحيُ المشبَّه بوحيِ اللهِ إلى رسولِه مُحَمَّد ﷺ هو ما كَانَ إلى نوحٍ ومَن بَعْدَه؛ لأنه وحيٌ مَقرونٌ بالإرسالِ.

ونقول: إنَّ اللهَ تَعالَى بَشَّرَ النَّصارَى على لسانِ عِيسَى نَبيِّكم بمُحمَّدٍ، فالذي لا يَعتقِد إلَّا أنه مُخْبِر بأنه سوفَ يُبْعَثُ رَسولًا؛ فإن هذا من ضلالِ قومِه الَّذينَ أَضلُّوه، وإلَّا ما عندنا شك أن عيسى بشَّر قومه بمُحمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حتى يَتَّبِعُوه، وإلَّا ما الفائدةُ من البشارةِ؟!

ومَن كذّب أيَّ رَسُولٍ فهو منكِرٌ لله، أو واصفٌ اللهَ بما لا يَسْتَحِق؛ لأنَّ اللهَ تَعالَى يؤيِّد الرَّسُولَ بالآياتِ، فإذا كَان كاذبًا لزِمَ أنْ يكونَ اللهُ تَعالَى غيرَ موْجودٍ، أو أنه تَعالَى -والعياذ بالله- خائن أو ما أشبهَ ذلك.

فوائدُ الآيةِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أنَّ التَّكذيبَ بالحقِّ من شخصٍ تكذيبٌ به من جميعِ الأشخاصِ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، معَ أَنَّهم ما كَذَّبُوا إِلَّا واحدًا، لكن في الحَقِيقَةِ هم كَذَّبُوا الحقَّ، سواء جاءَ به نوحٌ أو غيرُه، ولهذا صاروا مُكَذِّبِينَ لِجَمِيعِ الرُّسُلِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فيها دَليلٌ على أنَّ نوحًا أُرسلَ إلى جميعِ النَّاسِ في وقتِه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وجه الدلالة أنَّهم قد كَذَّبوا عامَّةَ الْمُرْسَلِينَ، ونوح هو أوَّل الرُّسُلِ، وليس من رسولٍ قبله.

وقد تَقَدَّمَ أنَّ هذا لا يُنافي عُمومَ رسالةِ الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأن في ذلك الوقت لم يَكُنْ في الأرضِ إلَّا قومه: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧]، وهذا أمرٌ ليس قصدًا، وإنَّما هو وَقَعَ اتِّفَاقًا، ومَعْنى وقعَ اتِّفاقًا أنَّ اللهَ تعالَى لَـمَّا أرسله لـم يكنْ في الأَرْضِ سِوَى قومِه. أمَّا الرَّسُول ﷺ فإن الأقوام كثيرونَ: بنو إسرائيلَ، والعرب، والأجناس الأخرى، ومع ذلك فإِنَّه مبعوثٌ إليهم جميعًا.



الآيات (١٠٦- ١١٠)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٠٦-١١٠].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ نَسَبًا ﴿نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ اللهَ، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ عَلَى تَبْلِيغ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فِيمَا آمُرُكُمْ بِهِ مِنْ تَوْحِيد اللهِ وَطَاعَته، ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ عَلَى تَبْلِيغه ﴿مِنْ أَجْرٍ إِنْ﴾ مَا ﴿أَجْرِيَ﴾ أَيْ ثَوَابِي ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كَرَّرَهُ تَأْكِيدًا].

قَوْلُهُ: ﴿أَلَا﴾: في الأَصْلِ تكونُ للعرضِ، وهو الطلبُ برِفْقٍ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات:٢٧]، ولكنِ المُرادُ به هنا التَّحْضِيضُ، وهو الطَّلَبُ بحثٍّ.

قَوْلُهُ: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا تَتَّقُونَ اللهَ، يَعْنِي أنه يَحُثُّهم على أنْ يَتَّقُوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ ويَتَّخِذُوا وِقايةً مِن عذابِهِ بفعلِ أوامرِهِ واجتنابِ نواهيهِ.

ثم بَيَّنَ لهم أنَّه إنَّما قامَ بهذه الموعظةِ لأنه رَسُولٌ أمين: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، فقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾ يَعْنِي: لا لِغَيْرِكُم، والخطابُ لِقَوْمِهِ، وفي قَوْلِهِ: ﴿لَكُمْ﴾ ولم يقل: إني رَسُولٌ، حَضٌّ لهم على قَبولِهِ؛ لأنه إذا كَان رسولًا مُطْلَقًا قد يقولونَ: إنَّكَ لـم

تُرْسَلْ إلينا، فإذا قال: ﴿لَكُمْ﴾ تَعيَّن.

ثمَّ إنَّه إذا قال: ﴿لَكُمْ﴾ يُشْعِرُهم بأنَّ الله تَعالَى قد اعْتنَى بهم، حيثُ بَعَثَ إليهم هذا الرَّسُول، فيكون فيه هنا حَمْلٌ على أن يَقْبَلُوا رِسالته.

وقول: ﴿رَسُولٌ﴾ أي: من الله، وهذا معروفٌ مِن سِيَاق هذه الآيَاتِ، ومن غيرِها منَ الآيَاتِ الأُخرى.

وقَوْلُهُ: ﴿أَمِينٌ﴾ الأمين: هو مَن كَانَ محَلّ أمانةٍ، والرُّسُلُ -عليهم الصلاة والسلامُ- كلُّهم محَلُّ أمانةٍ لِرِسَالَتِهِم، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [على تَبليغِ ما أُرْسِلْتُ به]، واضحٌ، فالذي ائْتَمَنَهُ على ذلكَ هو اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ إظهارٌ لِوَصْفِهِ الخاصِّ المناسِبِ لِلْمَقَامِ، وهي الرِّسالَةُ، بأمانةٍ لا خِيَانةَ فيها، لا بزيادةٍ ولا بنقصٍ.

وقد يقولُ قائلٌ: أيُّ فائدةٍ لِوَصْفِهِ نَفْسَهُ بأنه: ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ وهو يُخاطِبُ قومًا قد أَنْكَرُوه، فإذا كَانوا قد أَنْكَرُوا رِسَالَتَهُ فبالأَولى يُنكِرون أمانَتَهُ؟

والجَواب: أَنَّه لم يَدَّعِ أنه رَسُول أَمِينٌ فقط، ولكنه جاءهمْ بآياتٍ، فـ«مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدِ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ»[1]؛ لأن الله

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، وأول ما نزل، رقم (٤٩٨١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته، رقم (١٥٢).

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عليمٌ حكيمٌ، ولا يُمْكِنُ أنْ يُرْسِلَ أحدًا إلى أقوامٍ فيُسَفِّه أحلامَهم، ويُفْسِد أديانَهم، إلَّا ومعَه منَ الآيَاتِ ما يُؤْمِنُونَ على مِثْلِهِ لو لم يَسْتَكْبِرُوا.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ هذا في المَعْنى مُكَرَّر مع ما قبلَه، لكنَّه في الأسلوب أشدُّ منَ الأوَّل، فالأوَّل حضٌّ بصفةِ العَرْض: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، وهنا أمر: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، وفي هذا دليلٌ على قوَّة جانبِ الأَنْبياءِ -عليهم الصلاةُ والسلامُ- بحيثُ تَوَصَّلُوا إلى أنْ يَأْمُرُوا أقوامَهُم، معَ أنَّهم في الواقعِ يَتَحَدَّثُونَ من مصدرِ المُلْتَمِسِ، لكن هم بأنفسِهِمْ أَعِزَّاء، وقد يكونُ أنَّهم يَتَكَلَّمُونَ من مصدرِ القُوَّةِ، أمَّا هم بالنِّسبةِ لإخوانهم فإنَّ أقوامَهم مُسْتَكْبِرُونَ عنهم، ليسوا مُبالِينَ بِهِم.

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾، وهم إذا اتَّقوا اللهَ وأطاعوا رسولَه، فقد حَقَّقُوا شهادةَ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ هذا رَسُولُ اللهِ، وهو أمرهم بهذا، ولا يَتِمُّ الإسلامُ في أيِّ زمانٍ أو مكَانٍ إلَّا بذلكَ -شهادة أن لا إله إلا الله، وأن هذا رَسُولُ الله- أمَّا بعدَ بَعْثَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فتعَيَّنَ: وأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله.

قال المفسِّر: [فيما آمُرُكُمْ به]، أي: من توحيدِ اللهِ وطاعتِهِ. وفي أَمْرِهم بهذا إشارةٌ إلى أنه أُرسِلَ بذلكَ، أي: أُرْسِلَ بأنْ يَأْمُرَهُمْ بِتَقْوَى اللهِ؛ لأنَّه قال: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، والفاءُ لِتَرْتِيبِ ما بعدَها على ما قَبْلَها، يَعْنِي: هذه الرِّسالَةُ الَّتي أُرْسِلْتُ بها تَتَضَمَّنُ التَّقْوَى، وطاعةَ الرَّسُولِ؛ لأن طاعةَ الرَّسُولِ طاعةٌ لِلْمُرْسِلِ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

قَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على ما قلتُ، أي: على تبليغِ الرِّسالَةِ، و(مِنْ): زائدةٌ، و(أَجْرٍ): اسمٌ منصوب على أنه مفعول ثانٍ لـ(أَسْأَلُكُمْ)، وهو منصوبٌ بفتحةٍ مُقَدَّرَةٍ على آخِرِهِ، منعَ مِن ظُهُورِهَا اشتغالُ المَحَلّ بحركةِ حرفِ الجرِّ الزائدِ.

وأتت (مِنْ) هنا في سياق النفي داخلة على نكرةٍ؛ للتنصيصِ على الْعُمومِ، يَعْنِي: من أجرٍ قليلٍ أو كثيرٍ، والمُرادُ بالأجرِ هنا أجرُ الدنيا، وهو المعاوَضَةُ، يَعْنِي: ما قلتُ لكم: أَعْطوني أَجْرًا، ولو أَمَرْتُكُمْ بهذا لقِيلَ: هذا رجلٌ يريدُ أَنْ يَسْتَجْدِيَ بما يَدَّعِيهِ منَ الرِّسالَةِ.

وهناك أُناسٌ يَتكَلَّمُونَ في المساجدِ، ويَعِظُون النَّاسَ ويُوَجِّهُونَهُم؛ فإذا انْتَهَوْا مَدُّوا أَيْدِيَهُم يسألونَ النَّاسَ، وهؤلاء حالُهم خلافُ حالِ الرُّسُلِ، ولهذا تجدونَ النَّاسَ لو كَانوا قد تَأَثَّروا بِمَوْعِظَتِهِمُ الأُولى، فإِذْا مَدُّوا أَيْدِيَهم بعدَ أَنْ وُعِظوا ذهبَ كلُّ ما كَانَ في نُفُوسهم من هذا التأَثُّرِ؛ لأنَّ الإِنْسانَ إذا طلبَ الدنيا بما يُرَاد به الآخرةُ، فسَدَ أَمْرُه، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ [هود:١٥-١٦].

ويُسْتَفَادُ من هذا: أنَّ مَن طَلَبَ العِلْمَ الَّذي جاءتْ به الرُّسُلُ لِيَنالَ به أمرًا منَ الدُّنيا، فليسَ طريقُه طريقَ الرُّسُل؛ لأن الرُّسُلَ إنَّما يَأْمُرُونَ النَّاسَ ويَنْهَوْنَهُم؛ لِمَا يرجونه منْ ثوابِ اللهِ لا لـما ينالونه من الأجرِ، ففي هذا دليلٌ على وُجُوبِ تصليحِ النيَّة لِمَنْ قامَ مَقَامَ الرُّسُلِ بالدعوةِ إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

يقول المُفَسِّر: [﴿إِنْ﴾ ما ﴿أَجْرِيَ﴾]، ففَسَّرَ (إنْ) بـ (ما)، فهي نافيةٌ، وفسَّرَ ﴿أَجْرِيَ﴾ بقَوْلِهِ: [ثَوَابِي]، فالمَعْنى: ليسَ أَجْرِي عليكم ولا على غَيْرِكُم منَ الخلقِ، وإنَّما هو: ﴿عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهو اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وفي هذا إخلاصُ المرءِ للهِ عَزَّوَجَلَّ وأنه لا يُريدُ ثوابًا منْ أحدٍ ولا مَنالًا إلَّا منَ اللهِ، وفيه أيضًا دليلٌ على أنَّ عملَ الإنْسانِ لِيَنَالَ الثَّوابَ ليسَ أَمرًا ممْقوتًا، بل هو طريقُ الرُّسُلِ -عليهم الصلاةُ والسلامُ- وأَتْبَاعهم.

وقَوْلهُ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: مالِكِهِم المدبِّرِ لهم بما يشاءُ، وأصلُ المالِكِ: المتصرِّفُ في الشيْءِ، ومنه سُمِّيَ ربُّ البيتِ، وربُّ البهيمة، وربُّ كذا، ويُطلَق بمَعْنى (صاحب) كقولِهِ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات:١٨٠]، وربّ الْعِزَّةِ يَعْنِي: صاحب العِزَّة، ولا يُمْكِن أنْ تكونَ الربُّ هنا مثلَ الربِّ في قولِ: ربّكم؛ لأنَّ العزَّة من صفاتِ اللهِ، ولا تكونُ مخلوقةً.

فهنا: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: خالقهم ومالكهم ومدبِّر أَمْرِهِمْ بما شاءَ، و(الْعَالمينَ) معناها: كلُّ ما سِوَى الله.

وقَوْلهُ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كُرِّر تأسيسًا؛ لأنه بناهُ على قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يَعْنِي: فإذا انتفى ذلك فأنتم اتَّقُوا اللهَ وأطيعوني، فيكون هذا تأسيسًا، ولا يُستفاد المَعْنى المقصود منه لو حُذِفَ.

والفرقُ بينَ التَّأكيدِ والتأسيسِ: أن التَّأكيدَ لو حُذِفَ لاستُفِيدَ المَعْنى منه ممَّا بَقِيَ دونَ التَّأكيدِ، أي أن المؤكِّد لا يُستفاد منه سِوَى التَّأكيدِ، فلا يَحْمِلُ معنًى جديدًا، أمَّا التأسيسُ فيحملُ معنًى جديدًا، وهو: وعلى أنني لا أريدُ الأجرَ، وإنَّما ألتمسُ الثَّوابَ منَ اللهِ، فيَجب عليكم أنْ تتَّقُوا اللهَ وتُطِيعُوني.

ويُستفاد من قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أنَّ التَّقوَى لا تُضافُ إلى المخلوقِ، بخِلاف الطَّاعةِ، فلا بأس أن أقولَ: أنا أطعتُ فلانًا، لكن لا يجوزُ أنْ تقولَ: اتقِ فلانًا، بمَعْنى التَّقْوى المُسْتَلْزِمَة للتَّذَلُّل.



الآيات (١١١- ١١٥)

• • ● • •

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الشعراء:١١١-١١٥].

• • ● • •

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ﴾ نُصدِّق ﴿لَكَ﴾ لِقَوْلِكَ ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾ وَفِي قِراءَةٍ: «وَأَتْبَاعك»[1] جَمْع تَابع مُبْتَدأ ﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ السَّفِلَة كَالحَاكَةِ وَالْأَسَاكِفَة، ﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي﴾ أَيّ عِلْمٍ لِي ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ﴾ مَا ﴿حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ﴾ فَيُجَازِيهِمْ ﴿لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ مَا عِبْتُمُوهُمْ، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ﴾ مَا ﴿أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ بَيِّن الْإِنْذَار].

قوله تعالى: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ﴾ إجابةٌ صريحةٌ قَبيحةٌ في الواقعِ؛ لأنَّ الاسْتِفهامَ هنا من إنكارٍ، وإتيانُ الاسْتِفهامِ منَ الإنكارِ والنفيِ أبلغُ منَ النفيِ المجرَّدِ، يَعْنِي: كيف نُؤْمِنُ لك، ولا يُمْكِنُ أَنْ نُؤْمِنَ لكَ؟ وقَوْلُهُ: ﴿لَكَ﴾ ما قال: بِكَ، وقولُ المفسِّر: (لِقَوْلِك) فيه نَظَرٌ؛ لأنَّهم يُرِيدُونَ الاستكبارَ لا نفيَ مجرَّد التصديقِ، فيكون قولُهم: ﴿أَنُؤۡمِنُ﴾ ضُمِّن مَعْنى (ننقاد).

قَوْلُهُ: ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾ حاليَّة على تقديرِ (قد)، يَعْنِي: وقدِ اتَّبعَكَ الأرذلونَ، يَعْنِي:

---

(١) النشر في القراءات العشر (٢/ ٣٣٥).

لا يُمْكِن أنْ نُؤْمِنَ لكَ.

قوله: ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ أي الأنقصون من الخلق، وقَوْلُهُ: ﴿وَاتَّبَعَكَ﴾ فيها قراءتان: (وأتباعك) جمع: تابع، مبتدأ، و(الْأَرْذَلُونَ) خبرُه، أمَّا على قِراءَة ﴿وَاتَّبَعَكَ﴾ فـ(الأرذلونَ) فاعلٌ.

والمَعْنى: أنَّهم قالُوا: لو كَان أتباعُكَ المَلَأَ والأشراف لاتَّبَعْنَاكَ، لكن أَتْبَاعك أراذلُ النَّاسِ، مِنَ الفُقَرَاءِ والسُّوقة، والَّذينَ لا يُقَدِّرُونَ الأمورَ ولا يَعْرِفُونها؛ فهم أراذلهم من حيثُ المالُ -على زَعْمِهِم- ويُمْكِنُ أنْ نقولَ: إنَّهم أراذلُهم من حيثُ الثقافةُ أيضًا والجاهُ والشرفُ، فهم أرذلُ الأراذلِ عندهم.

وهل هذا مانعٌ، فهو يوجه الخطابَ إليكم أيها الأكملونَ، فكيف تقولونَ: لا نؤمن وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ؟ فالخطابُ موجَّه لكم؛ لأنكم لو آمنتم ما احتيجَ إلى توجيهِ الخطابِ والأمر لكم بتقوى اللهِ، وطاعته، ولكنَّكم مُعانِدونَ.

وهنا قالُوا: ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ على سبيلِ الإطلاقِ بدونِ إضافةٍ إلى أحدٍ، وفي سُورةِ هُود قالُوا: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود:٢٧]، فكَانت العبارةُ هناك أهونَ من هذه من جهتينِ:

أوَّلًا: لأنَّهم أَضافوا الأمرَ إليهم، وهنا أَطلقوا.

ثانيًا: أنَّهم هناكَ قالُوا: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ يَعْنِي: ولعلَّه عند التأمُّل لا يكونُ الأراذلُ همُ الأتباعَ، وهنا أَطلقوا فما قالُوا: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ ولا آخر الرأيِ، فإمَّا أن تكونَ هذه الآيةُ قبلَ تلكَ أو تلكَ قبلَ هذهِ.

ويَحتمِل أنَّ هذا قولُ طائفةٍ، وهذا قالَتْهُ طائفةٌ أُخرى، لكن حمْله على حالينِ

أحسنُ من حملِهِ على طائفتينِ، فأوَّلُ التبليغِ يكونُ الإنكار أَشَدّ، و﴿ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ على الْعُموم، ثم قالُوا: ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ للتخصيص.

قال الْمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا عِلْمِى﴾ أيّ عِلْـم لـي ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾]، فقد يُقال في بادئ الأمر: إن اعتذارهم منه يَعْنِي: كَوْنهم آمنوا وهم على زَعْمِكم ﴿ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ أنا لا أدري أنَّهم الأرذلون؟ يَعْنِي: فأنا ما قَصَدتهم حتَّى آمنوا لعلمٍ بهم، ولكن هكذا جَرَتِ الدعوةُ، فاتَّبعها هؤُلاءِ، فهذا ما يَتَبادَرُ إلى الذِّهن في أوَّل الأمرِ.

ولكن الظَّاهر -واللهُ أعلمُ- أن نفيَه العِلْم هنا نفيٌ للتَّبَعِيَّةِ، يَعْنِي: أيّ شَيْء يكون عليَّ وأيّ شَيْء يلحقني بعملهم؟ فلـو كانوا هـم الأراذلَ على زَعْمِكُم، فأنا لا يَضُرُّنِي ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عِلْمِى﴾ أي: ما حسابي، وما التَّبِعَةُ الَّتي تُلحِقوني بها فيما كَانوا يَعْمَلُونَ؟

وقال المفسِّر: [﴿وَمَا عِلْمِى﴾ أيّ علم لي ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾]، أي أنَّهم يَدَّعُونَ أنَّهم إنَّما تابَعُوه لِيَنَالُوا بذلك جاهًا ومالًا، فيكونون غيرَ مخلصينَ في إيمانهم، فالمَعْنى: بما كَانوا يَعْمَلُونه من أعمالِ القلوبِ، على أنَّ هذا ليسَ بظاهرٍ، ولكن هذا خلاف الظَّاهرِ فيما يَبْدُو.

بل إن المَعْنى: إن عَمَلَهُم هذا ليس عليَّ فيه تَبِعة مهما عَمِلوا، ولو كَانوا في زَعْمِكُمُ الأراذلَ؛ فإن ذلك لا يلحقني بشيْءٍ ما دامتْ رِسالتي قائمةً، وآياتي بيِّنة، فالحُجَّة عليكم قائمةٌ، أمَّا هم حتى وإن كَانوا الأراذلَ عندكم، فحِسابُهم على رَبِّي.

و﴿إِنْ﴾ بمَعْنى (ما): فما حِسَابُهُمْ -كما قال المُفَسِّر- ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾ فيُجَازِيَهم، وأمَّا أنا فما عليَّ مِن حِسابهم مِن شَيْءٍ، كما أنه ليْسَ عليَّ أيضًا من حسابِكم مِن شَيْءٍ.

أمَّا كونُ عَمَلِ هؤلاءِ بالقلوبِ فليسَ بظاهرٍ؛ يَعْنِي: حِسَابهم على ربِّي حتى لو عَمِلُوا هذه الأعمالَ؛ لأنَّ أعمالَ البواطنِ لا يُمْكِنُ أنْ يُقدَحوا بها، ولو قُدِحُوا بهم ما قُبلَ، فيقول: حسابُهم على اللهِ ليس عليَّ، وأنا ما عليّ إلا تبْلِيغ الرِّسالة.

وقَوْلهُ: ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ الشُّعورُ هنا بِمَعْنى: العِلْم، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ما عِبتموهم]، يَعْنِي: ما قَدَحْتُم فيهم، يَعْنِي: لو أنَّكم تَشْعُرُونَ بالأمرِ وتَعْلَمُونه ما عِبْتُمُوهم بِقَوْلِكُمْ: أَرَاذِلُنَا، ولكن عَيبهم إيَّاهم في الواقعِ لأنَّهم آمَنُوا بِنُوحٍ، فهم أراذلُ عنْدَهُم لأنَّهم آمَنُوا بمَن يَرَوْن أنَّه ليسَ على حقٍّ، ومعلومٌ أنَّ مَنِ اتَّبعَ مَن ليسَ بحقٍّ فهو مِن أراذلِ النَّاسِ معنًى، وإنْ لم يكنْ من أراذلهم حِسًّا، فالذي يَتَّبعُ مَن لم تَقُمْ عليه البيِّنَةُ، فهو من أراذلِ النَّاسِ معنًى، وإنْ كَان فيما بينَ النَّاسِ قد يكونُ له جاهٌ، ويكون عزيزًا.

فالمَعْنى: لـو تَشْعُرون بالأمرِ على حقيقتِهِ لَعَرَفْتُم أنَّهم ليسـوا بأراذلَ، وأن حِسَابَهم ليسَ عليَّ، وأنَّ عليَّ واجبًا وعليهم واجب.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا يُشْعِر بأنَّه عَلِم إخلاصَهُم، وأنَّهم إنَّما قالُوا: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ تلميحًا لِطَرْدِهِمْ بلا شكّ، فهذا الَّذي قالُوه كأنَّهم يقولون: نحنُ نَأْنَفُ أن نكونَ معَكَ ومعك هؤُلاءِ الأرذلونَ، فنكون نحنُ على اليمينِ وهم على اليَسارِ، أو على اليسارِ وهم على اليمينِ، فلا بُدَّ أنْ تَطْرُدَهُمْ لِنُؤْمِنَ،

فقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فأكَّد قولَه بالباءِ، يَعْنِي: لا يُمْكِن أنْ أَطْرُدَهُمْ أبدًا؛ لأنني أنا دَعَوْتُهم إلى الإيمانِ فآمَنُوا، فكَانَ حَقّهم عليَّ الإكرام.

وهذا الَّذي قالَه قومُ نوحٍ، وهو أوَّل الرُّسُل، قالَه قومُ مُحَمَّدٍ ﷺ وهو آخِر الرُّسُلِ، فقال الله تَعالَى له: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الكهف:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الأنعام:٥٢]، فهذا دَأْبُ الْمُكَذِّبينَ للرُّسُلِ، ما عنْدَهُم شَيْءٌ يَعْتَمِدُونَ عليه سِوَى التَّمْوِيهِ والتضليلِ وزخارِفِ القولِ، الَّتي لا تَنْطَلِي إلَّا على العُميانِ.

قال الْمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنۡ﴾ ما ﴿أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾]. والنَّذيرُ هو الْمُخْبِرُ بما يخوِّف، يَعْنِي الإعلامَ المَقْرُون بالتَّخْوِيف.

وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٞ﴾ قال الْمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بيِّن الإِنْذَار]، فجعلَهُ الْمُفسِّر مِن (أبَانَ) اللازِمِ، معَ أنه يحْتَمِل أنه مِن (أبانَ) المتعدِّي، فتكون بمَعْنى: مُظْهِرٍ، يَعْنِي: إني مُظْهِرٌ لِـمَا جِئتُ به، فأنا نَذير مبيّن للناسِ.

فوائدُ الآياتِ الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: وفي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دليلٌ على أنه يَنْبَغي للإِنْسانِ أنْ يقرّبَ منه كلَّ مؤمنٍ، وأنْ يختارَ لنفسِه أصلحَ الأصحابِ، كما جاء في السنَّة في الحثِّ عليه، فهذا اختيارُ الجليسِ الصَّالحِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفيه أيضًا دليلٌ على أنه يَنْبَغي موالاةُ الْمُؤمنينَ، والقُرب منهم، وأن هذا دأبُ الأَنْبياءِ؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفيه أيضًا الصبرُ على ما يَجِدُ من المؤمنِ من الجفاءِ، ومن دَناءة المهنةِ، وغير ذلك؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾..

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وفيه أيضًا التواضُعُ للمُؤْمِنينَ، وعدمُ إبعادِهِمْ ولو كَانوا مَن كَانوا فيما بينَ النَّاسِ؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. فالرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أشرفُ الخلقِ جاهًا عندَ اللهِ، وأعظمُهم منزلةً، عاتبه الله في رجل أعمى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ [عبس:١-٤].



الآيات (١١٦- ١١٨)

• • ● • •

❁ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١١٦-١١٨].

• • ● • •

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ عَمَّا تَقُول لَنَا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ بِالحِجَارَةِ أَوْ بِالشَّتْمِ، ﴿قَالَ﴾ نُوحٌ: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أَيِ احْكُمْ، ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾].

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾ يَعْنِي: لـمَّا رَأَوْا تَصْمِيمه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأنه لنْ يَطْرُدَ المُؤمنِينَ لِقَوْلِهِم، وأَنَّ هؤُلاءِ الأراذل ليس عليهم من حِسَابِهِم مِن شَيْءٍ، وإنَّما حِسَابُهم على اللهِ وهم مؤمنونَ، فلجَئُوا إلى القُوَّةِ، فقالُوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عمَّا تقولُ لنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ بالحجارةِ أو بالشَّتم].

وقَوْلُهُ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ في الآية إشكالٌ من حيثُ الإعرابِ؛ لأنَّ فيها قَسَمًا وشَرْطًا، وكلاهما يَحتاجُ إلى جَوابٍ، فأين جَوابُ الشَّرطِ؟ وأين جَوابُ القسمِ؟

والجَواب: أن ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ جَوابُ القَسَمِ، وابنُ مالِكٍ يقولُ[1]:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ ... جَـوَابَ مَـا أَخَّـرْتَ فَهْـوَ مُلْتَـزَمْ

---

(١) ألفية ابن مالك - عوامل الجزم، (ص:٥٩) ط. دار التعاون.

وأيضًا: ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ لا تَصْلُح جَوابَ شرطٍ؛ لأن اللامَ لا يُمْكِن أنْ تَقْتَرِنَ بجَواب الشَّرطِ، إنَّما تَقترن بجَوابِ القَسَم.

والقاعدةُ عند أهلِ العِلْم في النحوِ يقولون: إنه إذا اجتمعَ شَرْطٌ وقَسَمٌ، فاحذِفْ جَوابَ المتأخِّر، فإذا قلت: «إنْ قمتَ واللهِ ضَرَبْتُكَ»، جاز أن تقول: «لَأَضْرِبَنَّكَ»؛ لأن الشَّرطَ متقدِّم، ولكن لو قلتَ: «واللهِ إنْ قمتَ ضَرَبْتُكَ» فلا يجوزُ أن تقولَ: «لَأَضْرِبَنَّكَ».

وقولهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ أكدوا فيه -والعياذُ باللهِ- ما أرادوا من رَجْمِهِ بثلاثةِ مُؤَكِّدات: القَسَم، واللام، ونون التَّوكيد، ثم أَوْغَلُوا في الوَعِيد والتهديدِ، حيث قالُوا: ﴿مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ ولم يقولوا: لَنَرْجُمَنَّك، كأنَّهم يقولون: هناك مَن سبَقَكَ فرُجِم، فنحنُ نَرْجُمُكَ معَهم، فهذا أبلغُ مِن لو أنَّهم قالوا: (لَنَرْجُمَنَّكَ)؛ لأن فيه تَخويفًا؛ حيثُ إنه ليس أوَّلَ مَن يُرْجَم، بل هناك مَن رُجِمَ قبلَه.

وهل يَقصِدون أنَّهم يَرْجُمُونه بالحجارةِ أو بالقولِ؟

الظَّاهرُ والأقربُ أنَّهم يَقْصِدون رَجْمَه بالحجارةِ؛ لأنَّ الرجمَ بالقولِ قليلُ الاستعمالِ، ثم إنَّ التهديدَ به من هؤُلاءِ الَّذينَ يَرَوْنَ أنَّهم يَتكَلَّمُونَ من مصدرِ القُوَّة ليس بلائقٍ في المَقامِ، فالصَّوابُ أنَّهم يُهَدِّدُونه بالرَّجْم بالحجارةِ، واللهُ أعلمُ.

حينئذٍ لجأَ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ﴾، وهذا الدُّعاءُ جمَعَ بين أسبابِ الإجابةِ الثلاثةِ، وهي:

الأوَّل: دُعاء الله تعالَى باسمِ الربوبيَّة: ﴿رَبِّ﴾.

الثَّاني: ذِكْر الحالِ الداعيةِ المُقْتَضيةِ في الدُّعاءِ: ﴿إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾.

الثالثُ: الطَّلَب، ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أولًا: قَوْلهُ: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي﴾، والربوبيَّة تَنقسِم إلى قِسمينِ: عامّة وخاصّة، وهذه من الربوبيّة الخاصّة، بل هي من أخصِّ الرُّبُوبيَّات؛ لأنّها رُبوبيّة اللهِ تَعالَى في رُسُلِه.

ثانيًا: قَوْلهُ: ﴿إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ إظهارٌ للأضعفِ، يَعْنِي: لما هو أضعفُ؛ لأن قَوْلهُ: ﴿إِنَّ قَوْمِي﴾ كَان مُقتضى الحالِ أن يكونوا مُصدِّقين له؛ لأنَّهم قومه، ولكنهم -والعياذُ باللهِ- صاروا مُكذِّبين له، فصارتْ حالُه تَقتضِي رأفةً أكثرَ، حيثُ إنَّ قومَه هم الَّذينَ كَذَّبوه، ثم إنه يَقتضي أن تكونَ النِّكاية فيهم أعظمَ أيضًا؛ لأنَّهم قومُه.

وهذه الإضافةُ فيها فائدتانِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: بيان أنه مُسْتَحِق للرأفةِ أكثر؛ لأنَّ قومَه هم الَّذينَ كذَّبوه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ قَومَه مستحِقّون للتنكيلِ بهم أكثر؛ لأنَّهم قومُه، وكَان عليهم أنْ يُصدِّقوه ويَمنعوه، يَعْنِي: من أنْ يُؤْذَى، فكيف يكونون هم الَّذينَ يُؤْذُونه؟!

وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم:١-٢]، ولم يقلْ: «ما ضلَّ النَّبيّ أو الرَّسُول»، بل قال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾، يَعْنِي: الَّذي تَعرِفونه، وتعرِفون رَجَاحَةَ عقلِهِ، وتعرفون أمانتَه، فكيف تُنكِرون ما جاءكم به منَ المِعراج؟!

قال: ﴿إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾ يَعْنِي: نَسَبُونِي إلى الكَذِب، وقالُوا: كذَّبه، وكذَبه، والفرق بينهما أن (كذَبه) أخبره بخلافِ الواقعِ، و(كذّبه) أنه لم يُصَدِّق ما جاء به.

ثالثًا: الفاءُ للسببيَّة في قَوْلِه: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ﴾، وهذا القولُ ظاهِرُهُ الأمرُ، لكنَّه في جانبٍ له يُسمَّى دُعاءً؛ إذِ الأمرُ لا يكونُ إلَّا ممَّن يَستعلي على المأمورِ، وليس الطالبُ بمُسْتَعْلٍ على مطلوبِه، ثم إن الله جَلَّ وَعَلَا فوقَ كلِّ شيْءٍ.

وقَوْلُهُ: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أي: احْكُمْ، وسُمِّيَ الحُكْمُ فتحًا؛ لأنه يَنْفَتِحُ به الأمرُ ويَتَبَيَّن، فينفصِل هذا عن هذا، وهذا الفتحُ بأنْ يُنْجِيَه ومَن معَه من المُؤمنينَ، ويُهْلِكهم، أمَّا نجاتُه ومَن معه من المُؤمِنينَ فمصرَّح بها، وأمّا إهلاكُهم فلا نجاةَ إلَّا مِن هَلَكة، هذا هو الفتحُ الَّذي سأله نوحٌ أن يُهْلِكَ الله تَعالَى قومَه وأن يُنْجِيَه هو ومن معَه منَ المُؤمِنينَ.

وقد قال تَعالَى عنه في سُورَة نوح: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٦-٢٧].

وقد يقول قائلٌ: هل يُخبِرُ نوحٌ اللهَ تَعالَى بالواقِع؟ أليس الله تَعالَى عالمًا به؟

فالجَوابُ: بلى، هو عالـمٌ به، لكن قَصْده عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بيانُ الحاملِ له على هذا الدُّعاءِ أنه يَعتقِد أنه إذا أبقاهم لا يَلِدُوا إلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا، وإلَّا فاللهُ تَعالَى عليمٌ به، فيكون هذا كالاعتذارِ عن هذا السُّؤالِ العامّ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾.

قَوْلُهُ: ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذه المَعِيَّةُ لَيْسَتْ مَعِيَّةَ اختلاطٍ كما هو معروفٌ، بل هي مَعِيَّةُ اشتراكٍ في عملٍ وعقيدةٍ؛ فإنَّ الَّذي معَ نوحٍ من المُؤمِنينَ

كَانوا مشارِكينَ له في العقيدةِ والعملِ، وهذا مِمَّا يدلُّ على أنَّ المعيَّة ليستْ كما فَهِمَه المحرِّفون في معيَّة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنها تَقتضي المشاركةَ في المكَانِ، أو الاختلاط، فهذا ليسَ بلازمٍ.

وقَوْلُهُ: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لِبيانِ المُبْهَمِ فيمَن معي؛ لأن (مَن) اسمٌ موصولٌ، والاسمُ الموصولُ يَحتاجُ إلى بيانٍ، وبيانُه إمَّا من صِلَته وإمَّا من غيرِها.

ويُستفادُ منه أنه عندَ اليأسِ يجوزُ أنْ يدعوَ الإِنْسانُ على المكذِّبين والمعانِدِينَ.

وهل أقرَّ شَرْعُنا هذا أم خالَفَه؟

الجَواب: إنَّ شرعنَا أقرَّه، لكنَّه فضَّلَ عدمَ الدُّعاءِ، إلَّا إذا كَان ثَبَتَ أنَّهم لا يَستقيمون، ولا يُؤمِنون، فيُشْرَع الدُّعاء، والدَّليلُ على ذلك أنَّ الله رأى النَّبيَّ ﷺ عِندَما نادى عليه جِبريلُ وقال له مَلَكُ الجبالِ: إنْ شِئْتَ أَنْ أُطبِقَ عَلَيهِمُ الأَخْشَبَيْنِ. فقال: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»(١). لكنه لم يمنعْ أحدًا.

ودليلٌ أصرحُ منه أن النَّبيَّ ﷺ لـمَّا دعا عليهم في الصلاة قال: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، وَاجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ... اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا» لأحياءٍ منَ العَرَبِ؛ نزل عليه قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ [آل عمران:١٢٨](٢) فكفَّ عن هذا، فشَرْعُنا أمرَ بالصبرِ، وعدمِ الدُّعاءِ عليهم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه، رقم (٣٢٣١)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾،

ولكن قد يُقال: إنَّ نوحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ شَريعته تخالِف شَريعَتَنَا، ولا مانعَ منْ أنْ تختلفَ الشرائعُ بمثلِ هذا، وأيضًا فإن نوحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مكَثَ في قومِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، وكلَّما دَعَاهُم ازدادوا إصرارًا واستكبارًا، فما كانَ للصبرِ عليهم فائدةٌ، لكنَّه لم يهاجرْ منهم كما فعل يونسُ، بل بَقِيَ فيهم، حتى عَذَّبَهُمُ اللهُ.

وهل كون الرَّسُولِ ﷺ دعا على المَلَأِ من قُريشٍ، يدلُّ هذا على جوازِ الدُّعاءِ؟

نقول: نعم، لكنَّه مُنِع منه في آخِرِ الأمرِ، وهو دعا على الملأِ من قريشٍ في مكَّة قبلَ أن يُهاجِرَ، ففي الأخيرِ مُنِع ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨].



= رقم (٤٥٦٠)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، رقم (٦٧٥).

الآيات (١١٩- ١٢٢)

• • ❊ • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١١٩-١٢٢].

• • ❊ • •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ المَمْلُوء مِنَ النَّاس وَالحَيَوَان وَالطَّيْر، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ بَعْد إِنْجَائِهِم ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ مِنْ قَوْمِه، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾].

قال الله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ الفاءُ للسببيَّة، أي: فبسبب دعائِهِ أنجيناهُ، وهي معَ إفادتها السَّبَبيَّة تفيد أيضًا التَّعْقِيبَ، ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ معَ أنَّ دعاءه: ﴿وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١١٨]، فكلمة: ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ أعمُّ.

فما هي الحكمة في ذلك؟

ذلك لأنَّه صَحِبَ معه بعض الحيواناتِ والمخلوقات، وأخذَ من كلِّ زوجينِ، فهذه لا تلصقُ في الإيمانِ أو عَدَمه.

وقد نقول: لعلَّه ما قَصَدَها أيضًا من نوحٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في دُعائه، فما كَان -فيما يظهر- يَدُور في ذِهْنِهِ أن الله يُنجي هذه المخلوقاتِ الأخرَى، بل قال: ﴿وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقد نقول: إن قَوْلَهُ: ﴿وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من بابِ التَّغْليب؛ لأنه هو أيضًا إنَّما دعا مَن معَه، فكأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غلَّب جانبَ العُقَلاء؛ لأنه هو إنَّما دعا بإنجائهم، فصار هذا أنسبَ لمطابقةِ الإجابةِ للطلَبِ.

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾، الفُلْك الَّذي بناه أو صنعه نوحٌ بأمرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر:١٣]، وهنا قال: ﴿فِي ٱلْفُلْكِ﴾.

وأيُّهما أخطر؛ قَوْلُهُ: ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾، أم قَوْلُهُ: ﴿فِي ٱلْفُلْكِ﴾؟

الفُلك بلا شك أخطر من: ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾، لكن في السُّورة: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١]، كما هو معروف في تَوَاصُل آياتها ومَقاطعها وجُمَل الآيات المناسِبة لها: ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾.

كما أنَّ فيه فائدةً معنويةً، وهي بيان موادّ هذه السَّفينة، أنَّها منَ الألواحِ والمَسَامير، ليكونَ في ذلك دليلٌ على أنَّها مُحْكَمة، ولأجلِ أنْ يَتعَلَّم صناعةَ السُّفُن مَن لم يَعْرِف، والصناعةُ في ذلكَ الوقتِ ما تَطَوَّرَتْ إلى هذا التطوُّرِ.

وقَوْلُهُ: ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المملوء منَ النَّاسِ والحيوانِ والطَّير]، فهو مشحونٌ مملوءٌ منَ الحيوانِ، ومِن النَّاس، والطير، والطيرُ مِن الحيوانِ، لكن عطْفُه عليه من باب عَطْف الخاصِّ على العامِّ، وكَأنَّه يريدُ أنَّ الحيوانَ هو ما يَمشي على رِجْلَيْهِ، والطير ما يَطِير بِجَنَاحَيْهِ، وإلَّا لو قالَ: الحيوان لَكَفَى.

وقَوْلهُ: ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ اسمُ جِنسٍ يَشمَل بلفظِه الواحدَ والجمعَ، يَعْنِي هذا اللفظ صَالِحٌ للجمعِ والمُفرد، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ

طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢]، فقال: ﴿وَجَرَيْنَ﴾ هنا أراد بالفُلْكِ الجمعَ، وقال في موضعٍ آخر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [لقمان:٣١]، فهنا أرادَ المفردَ، ولو كان بالجَمْع لقالَ: تَجْرِين.

فإنْ قيلَ: وهل هذا الفُلْك يَشْمَل الطائراتِ والسياراتِ؛ لِقوله تعالى: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [يس:٤١]، ولم يقلْ: أنّا حَمَلْناهُم؟

قلنا: الَّذي يَمْنَع من هذا هو قَوْلُهُ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، والذُّرِّيَّة تأتي بعدُ، فكيف تكونُ آيةً لهم وهم سابقونَ عليها، ولذلك أكثر المُفَسِّرين على خلافِ هذا الرأيِ، يقول: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ يَعْنِي ذُرِّيَّةَ أبيهم، أي نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وبعضُهم قال: إنَّ الذُّرِّيَّة هنا بِمَعْنى الآباءِ، لكن استعمال الذريَّة بمَعْنى الآباءِ بعيدٌ في اللُّغة العربيَّة، لكن استعمالها بمَعْنى الذُّرِّيَّة الَّتي نَشئوا منها، ليس في الإضافة للذرية الَّتي نشأتْ منهم، وهي ذُرِّيَّة أبيهم نُوح، وهذا أنسب؛ لأن الحَقِيقَة أننا لو جعلنا: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ لِذُرِّيَّةٍ ما بعدُ جاءَت تكون آيةً لَمِن قد ماتَ، فهذا بعيدٌ.

لكنَّها ربما تُطْلَق على الطائراتِ وغيرها من وسائلِ النقلِ الحديثةِ؛ لأن الفُلْكَ هو كلُّ مركوبٍ مخلوقٍ، ولهذا حصرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المركوباتِ في هذا: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف:١٢]، فالْفُلْك ما نَصْنَعُه نحنُ، وَالْأَنْعَامُ ما يَخْلُقُه الله.

لكن الكَلام هُنا على كونِ هذه الوسائلِ آيةً لهم، وهم موْجودونَ، والذُّرِّيَّة ما بعدُ أتتْ، فنفسُ الآياتِ المَوْجودةِ في عهدِه إذا حَمَلْنَاها نحن على الطائراتِ والسياراتِ وسائرِ المراكبِ، لا يكون آيةً لهؤُلاءِ.

ثم إن كلمة: ﴿حَمَلْنَا﴾ يُحتاج إلى تَأْوِيلها إلى: سَنَحْمِل، وحينئذٍ إذا كَانتْ سَنَحْمِلُ لا تَصيرُ آيَةً لهم إلا باعتبارها وعدًا منَ اللهِ ليس مشاهدًا، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يخاطب هؤُلاءِ المعاندين بما يقتضيه وعده فقطْ، وإنَّما يُخاطِبُهُم بآياتٍ يُشاهِدونها، أو تكون معلومةً لديهم، بحيثُ لا يُتمكَّن مِنَ الإنكارِ.

فالقولُ بأنَّ الفُلْكَ المشحونَ هنا يُراد به الطائراتُ وغيره ليسَ له وجهٌ، والصَّوابُ أن نقول: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس:٤١]، يَعْنِي الذُّرِّيَّة الَّتي كَانوا منها، فالإضافةُ -كما يقولُ النحْويُّون- لِأَدْنَى مُلابسةٍ، فآباؤهم بالنِّسبةِ لنوحٍ ذُرِّيَّة، وأمَّا عادةُ الإطلاقِ أنَّ الذريَّة تأتي بالمَعْنى الحقيقيِّ للآباءِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ أي: بعد إنجائِهم ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ من قومه]، والَّذينَ هم نَجَوْا كما قال الله تَعالَى في سُورَةِ هودٍ: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠]، وابنُه -أحد أبنائه- ما نَجا؛ لأنه كَان كافرًا، وهو قد سأَلَ: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١١٨].

وفي الآيَات الأُخْرَى أنَّ اللهَ تعالَى قال له: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ ثم استثنى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود:٤٠]، ولكنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ دَعا الله تَعالَى مُشْفِقًا وراجيًا رحمتَه: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود:٤٥]، فقال اللهُ تَعالَى له: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود:٤٦]، والجَوابُ هنا فيه إشكالٌ، إنَّما قال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾؛ لأنه كَان مُقْتَضَى ما سبق أن يقولَ: إنه ليس من أهلِكَ؛ لأنَّه استثنى قبلًا: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾.

لكن لو قيل كذلك -لأنه سبق عليه القول- لقالُوا: ولماذا سبقَ عليه القولُ؟

فذكر النتيجةَ الأخيرةَ، وهو أنه: ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ إلى آخره، ولها توجيهانِ:

التوجيهُ الأوَّل: أنه، أي: سؤالك ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾؛ لأنك سألتَ ما لا يجوزُ في عِلْمِ اللهِ.

التوجيه الثَّاني: أنه، أي: الولد ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ من بابِ المُبالغةِ، يَعْنِي: عاملٌ غيرُ صالحٍ، فأطلق عليه المصدر كما يُقال: فلانٌ عدْل، وفلانٌ رِضًا، بمَعْنى ذي عدلٍ ورِضًا، فالمَعْنى أنه ذو عَمَلٍ غَيْرِ صَالِحٍ، ويؤيِّد هذا الاحتمالَ قِراءَةُ: (إنَّه عَمِلَ غيرَ صالحٍ)[1].

فإنْ قيلَ: هؤُلاءِ الَّذينَ نَجَوْا هل هُمُ الَّذينَ بَقُوا منْ أهلِ الأَرْضِ؟

قلنا: لا، ليسوا هم، بل ذُرِّيَّة نوح هم الَّذينَ بَقُوا، وأمَّا مَن كَانَ معَه منَ المُؤمِنينَ فإنَّهم فَنُوا، وما بَقِيَ لهم نسلٌ، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧].

ولهذا يُقال: إنَّ نُوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو الأبُ الثَّاني للإِنْسانِ؛ فالأبُ الأوَّلُ آدمُ، ونوحٌ هو الأبُ الثَّاني؛ لأن جميعَ بني الإِنْسانِ ماتُوا، وما بَقِيَت إلَّا ذُرِّيَّتُه: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾، و﴿هُمُ﴾ ضميرُ فصلٍ يفيد الحصرَ والاختصارَ، فهم الَّذينَ بَقُوا.

ويقول المؤرِّخون: إنهم ثلاثة: سامٌ، وحامٌ، ويَافِثُ، واللهُ أعلمُ إنْ كانتْ هذه أسماءَهم أم لا؟ وهل هم ثلاثة أم أكثرُ أو أقلُّ؟ إنَّما هذا كَلام المؤرِّخِينَ.

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:١٨٧).

والمهمُّ أنَّ المتيقَّنَ أنه ما بَقِيَ أحدٌ منْ أهلِ الأَرْضِ إلَّا ذُرِّيَّة نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيكون هو الأبَ الثَّانيَ.

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي أنَّ إغراقَهم آيةٌ عظيمةٌ، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ [القمر:١١]، وفيها ﴿فَفَتَحْنَا﴾، و«فَفَتَّحْنَا»[1]: قراءتانِ سبعيَّتانِ، و(فَفَتَّحْنَا) أبلغُ من ﴿فَفَتَحْنَا﴾. ففتحَ اللهُ أَبْوَابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ، يَعْنِي: نازِلٍ بقوَّة وشدَّة وكثرةٍ.

قال تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر:١٢]، المعرِبون يقولون: إن الأَصْل: (فجرنا عيونَ الأَرْض)، وإنها تمييزٌ مُحَوَّلة عن مفعولٍ، وفي الحَقِيقَةِ أن ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أبلغ وأعظم، يَعْنِي: كَأَنَّ الأَرْضَ كلها صارتْ عُيُونًا، فهو أبلغُ من: (فجّرنا عيونَ الأَرْضِ)، فعيونُ الأَرْضِ نَفرِضُ أَنَّها عشرُ عُيُونٍ، فلا تفيدُ لو كَانت: (فجَّرنا عيونَ الأَرْضِ)، لكن ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ كلها، حتى إن التَّنُّور بدأَ يفورُ منَ الماءِ، والتنورُ أبعدُ ما يكون عن الماءِ؛ لأنه مَحَلُّ تفجيرِ النارِ، ومحلُّ تفجيرِ النارِ يكونُ يابسًا يُبُوسًا بالِغًا، ولكن مع ذلك صارَ بإذنِ اللهِ يفورُ.

قال تعالى: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١٢]، حتى بلغ قِمَمَ الجبالِ، وغَرِقَ النَّاسُ كلُّهم إلَّا مَن في هذه السَّفينة، وحينئذٍ صَدَقَ قولُ نوحٍ لقومِه: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود:٣٨-٣٩]، فصارتِ السُّخْرِيَةُ السخريةَ الحقيقيَّةَ لهؤلاءِ

---

(١) حجة القراءات (ص:٦٨٩).

الَّذينَ على السَّفِينَةِ، وكَأَنِّي بهم يَطَّلِعُونَ إليهم من نوافذها، وهم يَعُومُونَ في هذا الماءِ ويَغْرَقُون، وهؤلاءِ في مَنجاةٍ منه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ على رأي المُفَسِّر المُراد أكثر قوم نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكن الأصح: ﴿أَكْثَرُهُم﴾ أي: الَّذينَ بُعِثَ فيهم الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، (ما) نافية، و(كَان) أصليَّة، فالعملُ لـ(كَان)؛ لأن الأَصْلَ عدمُ الزيادةِ، وإذا جعلتَ العمل لـ(مَا) لزِم أنْ تجعلَ (كَان) زائدةً، وإذا جعلتَ العملَ لـ(كَان) بقِيت (ما) نافيةً على ما هي عليه.

قَوْلهُ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الجامع بين العزَّة الغالبة القاهِرة والرَّحمة البالغة، لكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِجمعِهِ بينَ العزّ والرحمة صارتِ الرحمةُ تكون في مواضعها، والعزّ يكون في مواضعِهِ.

وأقسامُ العِزَّةِ الَّتي يَتَّصِفُ الله بها ثلاثةٌ: عِزَّة قَدْر، وعِزَّة قهْر، وعزة امتناعٍ.

وعزة القَدْر: هي أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له القَدْر العالي، وهو الَّذي لا يُشْبِهُهُ أحدٌ منَ المخلوقاتِ؛ لأنه إذا صار عزيزَ القَدْر يَعْنِي أنَّ قَدْرَه لا نظيرَ له، مثل أن تقولَ: هذا عَزيزٌ، يَعْنِي: لا يوجدُ له مَثِيلٌ.

وعِزَّة القَهْر: هي أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قاهرٌ لِمَن سواهُ منَ المخلوقاتِ، وغالبٌ له.

وعزةُ الامتناعِ: هي أنه لا يُمْكِن لأحدِ المخلوقاتِ أن يَتوصَّل إليه، يَعْنِي: يَمْتَنِع عليه دون سوء أو نقص.

وقالُوا في المَعْنى الأخير: منه قولُهم: أرضٌ عَزازٌ، يَعْنِي: صُلبة قويَّة مُمتَنِعة، ليستْ رِخْوَةً ليِّنة.

وأمَّا الرَّحِيمُ فمعناهُ: ذو الرحمةِ الواصلة إلى خَلْقِه؛ لأن: (الرَّحِيم) غيرُ (الرَّحْمن)، وأهل السنَّة والجماعة يُثْبِتُون الرحمةَ للهِ حقيقةً، وغيرُهم يُؤَوِّلُها بأنَّ المُرادَ بها الإحسانُ، أو إرادة الإحسانِ، يَعْنِي أنَّهم يُثْبِتُونها إلى لازِمِها؛ لأن الرحمةَ هي الرِّقَّة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منزّه عن الرِّقَّة! فيُقال: مَن قال لكم: إن اللهَ منزَّه عن رِقَّة الرحمةِ؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَرْحَمُ عبدَه، بمَعْنى أنَّه يَعْطِف عليه، وأيّ مانعٍ يَمْنَع اللهَ منَ العطفِ؟! فالقاسي ليس بمحمودٍ، أمَّا اللَّيِّن فهو المحمودُ لا شكّ.

ثم إننا نقول: إنَّ لِينَ الإِنْسانِ غيرُ لينِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنَّ لِينَ الإِنْسانِ سَبَبُه الضعفُ أحيانًا، وعدمُ القُدْرَةِ، ولهذا يَرْحَمُ الإِنْسانُ أحيانًا مَن لا يَسْتَحِقّ الرحمَةَ؛ لأنه ما عنده إلا مجرَّد العاطفة؛ عاطفة اللِّين، الَّتي سببها الضعفُ، أمَّا الله عَزَّوَجَلَّ فإنّ رحمته رحمةُ قوّةٍ، ورحمة حِكْمة، ولهذا يُعذِّبُ أهلَ النارِ ذلك العذابَ العظيم، وهو أرحمُ الراحمينَ.

فإن الأدلَّة على رحمة الخالِقِ ليستْ كرحمةِ المخلوقِ.

فوائدُ الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنجى مَن معَه منَ المُؤمِنينَ بناءً على دعائِه، وأنجى غيرَهم أيضًا ممَّا يحتاجونَ إلى وُجودِهِ ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود:٤٠].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الإشادة بهذا الفُلك، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾، وهذا من وجوهٍ:

أولًا: وَصْفُه بالمشْحُون، وكونه مَشحونًا يدلُّ أيضًا على قوَّته؛ لأنَّ ما ليس بقويّ لو شُحِنَ لَغَرَقَ.

ثانيًا: تعريفُ (الفُلك) بـ(أل) التعريف الدالَّة على الكمالِ.

ثالثًا: وفي قَوْلِهِ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ يَعْنِي: كان من على مَتْنِهِ كثيرينَ، ومع ذلك استقامَ، وأنجى اللهُ فيه مَن معَه.



الآيات (١٢٣- ١٢٨)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء:١٢٣-١٢٨].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ﴾ ما ﴿أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ ﴿ءَايَةً﴾ بِناءً عَلَمًا لِلْمَارَّةِ ﴿تَعْبَثُونَ﴾ بِمَنْ يَمُرّ بِكُمْ وَتَسْخَرُونَ مِنْهُمْ، وَالجُمْلَةُ حَالٌ مِن ضَمِير (تبْنُونَ)].

قَوْلُهُ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عادٌ هم قومُ هُودٍ، ولهذا قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾، ومَحَلُّ هؤُلاءِ القومِ في الرَّبْعِ الخَالِي في الأَحْقَافِ، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف:٢١]، فهؤُلاءِ القومُ معروفونَ بالقُوَّةِ والشدَّة إلى حَدِّ أنَّهم قالُوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]؛ فإنَّهم مُسَيْطِرونَ.

وأمَّا المبالغةُ الَّتي يَذْكُرها المُفَسِّرون والمؤرِّخون في كِبر أَجسادِهِم وقوَّتِهم، فاللهُ أعلمُ بها، ولكنَّهم بلا شَكٍّ قومٌ أقوياءُ، وعُتَاة، يَعْنِي: جُفاة القُلوب، أقوياء الأبدان، فهم مَعروفونَ بالقُوَّة، ولكن الله تَعالَى أرادَ أنْ يوبِّخهم ويُقِيمَ الحُجَّة عليهم في قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾ [فصلت:١٥]، جعلهم يَطْمَئِنُّونَ، يَعْنِي: يُخْفِضُون رُءُوسهم، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾ فهم مخلوقونَ، وهو خالِق، فلا بُدَّ ضرورةً

أن يكون الخالِقُ أعلى منَ المخلوقِ، وأنْ يكونَ المخلوقُ في قَبْضَتِه، وهذه هي الحكمةُ في قَوْلِهِ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾، ولم يقلْ: إنَّ الله الَّذي خلق السماواتِ والأَرْضَ، مع أن ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]، لكن لأجلِ أن يُخفِضَ رُءوسَهم أكثر ﴿خَلَقَهُمْ﴾، فهم بأنفسهم مخلوقون مَرْبُوبُونَ ذَلِيلُونَ.

وكلٌّ منَ القومينِ كذَّبَ نبيَّه، كذب قومُ نوحٍ نوحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكذَّب قومُ هودٍ هودًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، معَ أنَّه نَصَحَهُمْ هذه النصيحةَ: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، وهذا الاسْتِفهامُ إمَّا للتحضيضِ، أو أنه استفهامٌ بمَعْنى التوبيخ، يَعْنِي: يُوَبِّخُهُم على عدم التَّقْوَى.

وقَوْلُهُ: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أيِ اللهَ؛ لأن هذه الجُملة مُخْتَصَرَة، ومعروفٌ أنه كَان يَأْمُرُهُم ويقول: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يؤيِّد أنَّ قولَه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]، ليسَ المقصود أنه أرسلَ للناسِ كافَّة.

قَوْلُهُ: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، أي: مُرْسَلٌ من قِبل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتقديم ﴿لَكُمْ﴾ يدلُّ على الاختصاصِ، أي: مُرْسَلٌ لكم خاصَّة؛ لأنَّ كلَّ رَسُولٍ يُبْعَثُ إلى قومِهِ فقطْ.

وقَوْلُهُ: ﴿أَمِينٌ﴾ أي: ذو أمانة، ائتمنني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على رسالته.

فإذا قال قائل: هذان الوصفان: ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ مجرَّد دعوى، وهم ينكرونَ أنْ يكونَ رَسولًا أمينًا، بل يقولون: إنه كاذبٌ خائنٌ، فهل بمجرَّد الدعوَى تقومُ عليهم الحجَّةُ؟

فالجَوابُ: لا، لكن هذه الدَّعْوَى مؤيَّدة من آيات من الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِ النَّبيّ ﷺ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدِ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ»(١)، فهي ليست مجرَّد دَعوى؛ لأنها لو كانتْ مجرَّد دعوى لكانَ سهلًا رفضُها، لكنها دَعوى مؤيَّدة ومدعَّمة منَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بآياتٍ بيِّنة، يُؤمِن على مِثلها البشرُ.

وفي قوله لهم هذا القولَ، جازِمًا به، دليلٌ على قوَّة آياتِه، وأنَّ معه منَ الآياتِ ما جَعَلَه يعبِّر هذا التعبيرَ الجازِمَ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، وفي هذا دليلٌ على أنَّ الرِّسالَةَ أكبرُ دليلًا على أمانةِ الشخصِ؛ لأنه لولا أنه أمينٌ ما ائتمنه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الوحيِ، الَّذي فيه الحُكْمُ على النَّاسِ بالسعادةِ والشقاءِ، بل الحكم عليهم باستباحةِ أموالِهم، واستباحة نِسائِهم، واستباحة دِمائهم.

فلولا أنَّ الرُّسُل -عليهم الصلاةُ والسلامُ- هم أعظمُ النَّاسِ أمانةً ما ائتمنهمُ اللهُ على هذا الوحيِ العظيمِ.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ هذا عَودٌ في المَعْنى على قَوْلِهِ: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:١٢٤]، يَعْنِي: فلأني رَسُولٌ أمينٌ افْعَلُوا ما آمركم به منَ التَّقْوَى، وأَحُثُّكُم عليه.

وإنَّما قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، وما قال: (واتقوني)؛ لأنه لا يَمْلِك لنفسِهِ نفعًا ولا ضَرًّا، لا هو ولا غيرُه، فوظيفة النَّاس بالنِّسبةِ للرسلِ ليستْ تَقْوَى الرُّسُل، بل طاعة الرُّسُل، ولهذا ما جاء على لسانِ أيِّ واحدٍ منَ الرُّسُلِ أنه قال لقومِه: (اتقوني)، بل يأمرونهم بالطَّاعةِ، وأما التَّقْوى والخشية والخوفُ فهي لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) سبق تخريجه.

والتَّقْوى هي اتِّخاذ وِقاية من عذابِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بفعلِ أوامرِه، واجتنابِ نواهيهِ، وهذا أجمعُ ما قيل في التَّقْوى، ولهم فيها عباراتٌ كَثِيرَة.

أمَّا الطَّاعة فأصلُها الانقيادُ، ومنه قولهم: هذه الناقةُ طَوْعُ صَاحِبِها، أي: مُنقادة له وذليلةٌ، وتفسّر بأنها موافقةُ الأمرِ تَذَلُّلًا للآمِرِ؛ لأن موافقةَ الأمر قد تكونُ تَذَلُّلًا للآمرِ، وقد تكون كالإكراهِ، والتي تكونُ كالإكراهِ لا تكونُ طاعةً.

ويُستفاد من قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ وجوبُ تقوى الله، ووجوبُ طاعةِ رسولِه؛ لأن طاعةَ رسولِه من طاعتِه؛ ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النِّساء:٨٠].

قَوْلهُ: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾: أي: على ما أقولُه لكم، أو: على تبليغِ الرِّسالَةِ، والمَعْنى متقارِبٌ، يَعْنِي: أنا لستُ أقولُ: أَعْطوني شيئًا، وإنَّما آمُرُكم بما فيه خَيْرُكم، لو كنتُ أسألكم أجرًا على ذلك لكَانَ لكم الحُجَّة في أنْ تَرُدُّوا، لكنِّي لا أسألكم عليه أجرًا، يَعْنِي ثوابًا وعِوَضًا.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنْ﴾ مَا ﴿أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾]، وفي هذا كمال الإخلاص، يَعْنِي: أنا لا أريدُ الأجرَ إلَّا منَ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وقَوْلهُ: ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يقول العلماءُ: إنَّ (عَلَى) تفيدُ الوجوبَ؛ لأنه ما قال: إن أَجْرِي إلَّا مِن ربِّ العالمينَ، بل قال: ﴿عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وهلِ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يَجِبُ عليه شيْءٌ؟

الجَواب: أمَّا أنْ نُوجِب عليه فلا، وأما أنْ يُوجِب على نفسِه تكرُّمًا، فهذا لا مانعَ منه.

قال ابن القيِّم[(١)]:

مَـا لِلْعِبَـادِ عَلَيْـهِ حَـقٌّ وَاجِـبٌ ... هُوَ أَوْجَبَ الْأَجْـرَ الْعَظِـيمَ الشَّـانِ

كَـلَّا وَلَا عَمَـلٌ لَدَيْـهِ ضَـائِعٌ ... إِنْ كَـانَ بِـالْإِخْلَاصِ وَالْإِحْسَـانِ

إِنْ عُـذِّبُوا فَبِعَدْلِـهِ أَوْ نُعِّمُـوا ... فَبِفَضْـلِهِ، وَالْفَضْـلُ لِلْمَنَّـانِ

قيّد بقَوْلِهِ: «إن كَانَ بِالْإِخْلَاصِ وَالْإِحْسَانِ»، والإحسانُ هو المتابعةُ، أمَّا إذا لم يكنْ بالإخلاصِ والإحسانِ فيَضِيع: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ ﴿ءَايَةً﴾ بِنَاءً عَلَمًا لِلْمَارَّةِ ﴿تَعْبَثُونَ﴾ بِمَنْ يَمُرّ بِكُمْ وَتَسْخَرُونَ مِنْهُمْ]، ففسَّر هنا الآيَةَ بأنها العَلامَةُ، لكنها تَحتمل أن تكونَ عَلامَة على الطريقِ كما قال المُفَسِّر، معَ أن السياقَ لا يؤيِّده، لكنه كذلك لا يَمْنَعُه.

وكذلك قد يكون المُراد آيَة أي: عَلامَة على قُوَّتِكُم ومَقْدِرَتِكُم، وهذا هو الأقربُ، ولهذا قال: ﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾ يَعْنِي أَنَّكم تريدون من هذه البِناياتِ أن تكونَ آيةً ودليلًا وبُرهانًا على قوتكمْ.

وقَوْلُهُ: ﴿تَعْبَثُونَ﴾ تَتَّخِذُونَ ذلك عَبَثًا؛ لأنه لا مصلحةَ لكم فيه إلا مجرَّد العَبَث، وإظهار العَظَمَة، وإظهار القُوَّة، وهذا بلا شَكّ كون الإِنْسان يُظْهِر قوَّته أنه عبَث وفسادٌ.

---

(١) نونية ابن القيم الكافية الشافية (ص:٢٠٨-٢٠٩) ط. مكتبة ابن تيمية.

وعلى هذا يَتبيَّن لنا أن هؤُلاءِ الَّذينَ يحاوِلون أنْ يَصِلُوا إلى الكواكبِ، ويُطْلِقوا هذه الأقمارَ الَّتي لا يَستفيدون منها في الأَرْض مثل قوم عادٍ تمامًا، يَعْنِي: الطريقة هي الطَّريقة، وإنْ كَانَ الأسلوبُ مختلِفًا، يَعْنِي: يفعلون هذه الأشياءَ آيَةً وعَبَثًا؛ إذ لا يَستفيدونَ منها فيما خُلِقَ لهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، وليس الَّذي في السماء، لكن الَّذي في الأَرْضِ هو الَّذي مخلوقٌ لنا، فانْتَفِعُوا به مباشرةً، أمّا الذي في السَّماء فمُسَخَّر لِصالحنا، ولكنَّنا لا نَنْتَفِع به مباشرةً، فالَّذي يُنْتَفع به مباشرةً هو ما في الأَرْضِ.

ولهذا يقول بعضُ النَّاسِ: لماذا تحاولونَ أنْ تَصِلُوا للسماءِ وأنتم عاجزونَ عن حلّ مشاكلكم في الأَرْضِ؟ وهذا صَحِيحٌ، لكنَّهم يَعْمَلُونَ هذا لمجرَّدِ العَبَثِ والفَخْرِ، وأنَّهم أقوياءُ، معَ أنّ قومَ هُودٍ، وهؤُلاءِ القوم أيضًا المعاصرونَ يَخْسَرون على هذه الأمورِ خسائرَ باهظةً، فصارتْ عَبَثًا؛ لأن كلَّ شَيْءٍ يُتْعِب الإِنْسان فيه جِسْمَه ومالَه وفِكْرَه بدون فائدةٍ، فهو عَبَثٌ، ولا فائدةَ منه.

بل إنه إذا أرادَ ما وراءَه من إظهارِ العَظَمَةِ والكِبرياء على الخَلْق، صار أيضًا فَسادًا، فصار إيجابيًّا لا سلبيًّا فقطْ، إيجابيًّا لأنه فسادٌ، وهو ينكِر عليهم هذا الأمرَ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾.

وأمَّا ما سَلَكه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أنَّهم يجْعَلُون علاماتٍ للمارَّة لأجل إذا مرُّوا بهم يَسْخَرُونَ منهم؛ فهذا بعيدٌ عن السِّياق، وإن كَانَ السياقُ لا يَمْنَعُه لكنَّه لا يؤيِّده، فالصَّوابُ في هذه الآيَةِ أنَّهم يبنونَ بناياتٍ عظيمةً، تدلُّ على قُوَّتهم وقُدْرَتهم عَبَثًا؛ لأنَّهم لا يَستفيدون منها سِوَى إظهارِ العَظَمَةِ فقطْ، وهذا لا شكَّ أنه عَبَثٌ.

وإذا تأمَّلتَ الإِنْسان الأوَّل هو الإِنْسان الأخير، أو الإِنْسان الأخير هو الإِنْسان الأوَّل، لكن يَختلف الأسلوبُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٢٩-٣٢]، وهذه الأمورُ إذا طبَّقْناها في الوقتِ الحاضرِ فهي موْجودةٌ.

فقولهم: ﴿لَضَآلُّونَ﴾ قديمًا، يُساويه قولُهُمُ الآنَ: رَجْعِيُّونَ! أو مُحافِظُونَ! أو ما أشبهَ ذلك، وهو نفسُ الشيْءِ، فالفِكْر هو هو، لكن الأسلوب يَختلف مُسايرةً للزمَنِ.

وهل صَحِيحٌ قولُ بعضِ النَّاسِ: إن الحيوانات في زَمَنِ نُوحٍ كانتْ أقلَّ أنواعًا من هذا الزمنِ، وسبب كثرتها بسببِ نزولِ بعضها على شكلِ آخرَ، فتولَّدَتْ منها أشكال؟

أمَّا الآيةُ فلا تُصَرِّح، لكن الذي وَرَدَ أنه حمل معه ﴿مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [هود:٤٠]، يَعْنِي: من كلِّ المَوْجوداتِ، لكن لا شكَّ أنه ما وُجدَ أصلٌ جديدٌ أبدًا، لكن ربَّما صارتْ زيادة الأنواع بالتوالُد، أو بِنُزُولِ بعضها على بعضٍ فاختلفتْ، مع أنَّ المعروفَ عنْدَهُم أنه ما حصلَ من توالدٍ من نَزْو بَعْضِها على بعضٍ أنه لا يتوالدُ، والحاصلُ بالتوالُدِ لا يتوالد، كل شَيْء نشأَ منَ التوالُد لا يتوالدُ، فهذا معروفٌ عندهم، ولهذا البَغْلُ لا يُمْكِن أنْ يَصِيرَ له ذُرِّيَّة أبدًا.

فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: ويُستفاد من هذه الآيةِ ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ جوازُ وصفِ الإِنْسانِ بالثناءِ على نفسِه للمصلحةِ، وهذا أيضًا وردَ عنِ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه

قال: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَلَا فَخْرَ»(١)، وورد أيضًا عنِ الصَّحَابَةِ مثل هذا المَدْح في قول ابن مسعودٍ: «لَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ، تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ»(٢)، لكنْ بِشَرْط أنْ يكونَ غَرَض الإِنْسان مِن ذلك المَصْلَحَة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفي هذا دليلٌ على إخلاصِ الرُّسُل لله في قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفيها أيضًا الاحتسابُ؛ احتسابُ الإِنْسانِ عَمَلَهُ على اللهِ، فليس هذا للإدلالِ على اللهِ بهذا العملِ والمنّة عليه به، ولكن الاحتساب به عليه لرجاءِ ثوابِهِ؛ لقَوْلهُ: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وفي هذا دليلٌ على جَبَروت عاد، ومَحبَّتهم للكِبرياء والعظمة فيما أنكره عليهم نبيُّهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وفيها دَليل على أنه يَنْبَغي للإِنْسانِ أنْ يكونَ غَرَضه من عمله، لا سِيَّما العمل الجبَّار العظيم، أن يكونَ غَرَضُه غَرَضًا صَحِيحًا، لا عَبَثًا ومُباهاةً؛ لقَوْلِهِ: ﴿تَعْبَثُونَ﴾، وهذا هو مَحَطّ الانتقادِ، ليسَ بأن يَبْنُوا ﴿بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً﴾، ولكن كون ذلك عَبَثًا هو مَحَلُّ الانتقادِ ومَحَطّ اللَّوْم.



(١) أخرجه الترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل، رقم (٣١٤٨)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة، رقم (٤٣٠٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، رقم (٥٠٠٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، رقم (٢٤٦٣).

الآيتان (١٢٩، ١٣٠)

• • ✿ • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء:١٢٩-١٣٠].

• • ✿ • •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ لِلْمَاءِ تَحْت الْأَرْض ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ كَأَنَّكم ﴿تَخْلُدُونَ﴾ فِيهَا لَا تَمُوتُونَ، ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ بِضَرْبٍ أَوْ قَتْل ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ مِنْ غَيْر رَأْفَةٍ].

ثم قالَ اللهُ تَعالَى في سِيَاق ما قالَه هود لقومه: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾: جمع مَصْنَع، وهو مَحَلّ الماء، كما قال المُفَسِّر، فالمصانعُ عِبارة عن الخزَّانات الَّتي تحت الأَرْض يَتَّخِذُونها لعلَّهم يَخْلُدُونَ، يَعْنِي: كَأَنَّهم خالدون في هذه الدُّنيا غير مَيِّتِينَ.

وقَوْلُهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ذكر المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أنه أتى بها للتَّشْبِيه: [كَأَنَّكم]، ولكن ما رَأَيْنا أحدًا ذكرَ أنَّها تأتي للتَّشبيه، بل إنَّما قال: إنها تأتي للإشفاقِ والتعليل والترجِّي، هذا هو المعروف من معاني (لَعَلَّ).

وأيُّ هذه المعاني الثلاثة هو أَولى بها؟

الأَولى أنها للتَّرَجِّي، يَعْنِي: يَتَرَجَّوْنَ أنْ يَخْلُدُوا في ذلك، وقد تُفيدُ التوقُّعَ، أيْ أنَّهم يَتَوَقَّعُونَ الخُلُودَ، لكنَّها للترجِّي أقربُ. يَعْنِي أنَّهم يتَّخِذون هذه المساكنَ لأجلِ أنْ يَبْقَوا فيها، كَأَنَّما يَخْلُدُونَ فيها.

وقَوْلُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَصَانِعَ﴾ لِلْمَاءِ تَحت الْأَرْض]، قد يُنازَع فيها أيضًا، بأن يُقالَ: إن المُراد بالمصانِعِ مكَانُ الصناعةِ، يَعْنِي أنَّهم أيضًا اتَّخذوا مصانعَ كَثِيرَةً، كما تدلُّ عليه صِيغة مُنْتَهى الجُمُوع (مَفَاعِل)، ثم إنها قويَّة؛ لقَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾؛ لأنه لا أحدَ يَبني شيئًا للبَقاءِ الكثير إلا ويُحكِمه ويُتْقِنُه.

فيكون هودٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّبهم في أمرينِ:

الأمرُ الأوَّلُ: اتِّخاذ الآياتِ -الأبنية القويَّة العظيمة- عَبَثًا وإظهارًا للقوة والفخر.

الأمر الثَّاني: هذه المصانع العَظِيمة الَّتي اتَّخَذُوها لأجْلِ أن يَخْلُدُوا ويَبْقُوا فيصنعوا فيها، وقد قالَ الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [الفجر:٦-٨]، وهذه العماد العظيمةُ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلَادِ لا بُدَّ أنْ تكونَ ناتجةً عن مصانع قويَّة لِتَوَلَّدَ هذه الموادَّ ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾.

ثم قال: من جَبروتهم أيضًا العدوانيّ ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾؛ لأن الأوَّل جَبَرُوت مِعْمَارِيّ، والثَّاني مَصْنَعِيّ، والثالث الجَبَرُوت العُدواني.

وقِس هذه الأشياء على وَقْتِنا الحاضِرِ، فتَجِدها مُنْطَبِقَةً تمامًا، فهناك مَن يَتَّخِذُونَ من هذه القُوَّة آيةً للفَخْرِ والعَبَث، ثم هذه المصانع أيضًا الَّتي يَتَّخِذُونها -مصانع القنابل الذَّرِّيَّة والنَّوَوِيَّة وغيرها- لأجْلِ أن يَخْلُدُوا؛ حتى لا يَتَسَلَّط عليهم أحدٌ، وحتى تكون لديهم السيطرةُ في هذه المصانعِ.

وكذلك الثالث، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ يَعْنِي: إنكم تَبْطِشُون، فهو موْجودٌ كذلك.

وإنَّما قلت: إنَّكم تبطِشون؛ لأن (إذَا) تُفِيد تحقُّق وُقُوعِ الشَّرط، بخِلاف (إنْ)، فإذا قلت: (إنْ قام زيدٌ فَقُمْ)، لا تدلّ على تحَقُّق وُقُوع الشَّرط، لكن إذا قلت: (إذا قام زيدٌ فقُمْ)، فهذا معناه كَأَنَّه سيقومُ، ولكن لِيَكُنْ وقتُ قِيَامِك وقتَ قيامِه.

فقَوْلهُ: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ يَعْنِي: وأنتم تَبْطِشون، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ بضربٍ أو قتلٍ ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ من غيرِ رأفةٍ]، فهذا الوصفُ الثالثُ -والعياذُ باللهِ- العُدْوَان، والذي حَمَلَهُم على هذا العدوان -الإِنْسان بَشَر- لما رَأَوْا أنفسهم أقوياءَ في البناءِ والصناعةِ، قالُوا: ليس أَحَدٌ فَوْقَنا، فبَطَشُوا -والعياذُ باللهِ- بدونِ رأفةٍ؛ لأن الإِنْسانَ بطبيعتِهِ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢].



الآيات (١٣١- ١٣٤)

• • ෴ • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء:١٣١-١٣٤].

• • ෴ • •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فِي ذَلِكَ، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فِيمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ، ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم﴾ أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ، ﴿بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ﴾ بَسَاتِينَ ﴿وَعُيُونٍ﴾ أَنْهَارٍ].

قَوْلُهُ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في ذلك ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ كرَّره تأسيسًا، إذا كَان يعود على ما بعد قَوْله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، وإذا كَان لا يعودُ عليه، وأنه قال ذلك إبلاغًا للرِّسالَةِ، فإِنَّه يكونُ معَ الأوَّل تأكيدًا.

وفي الحَقِيقَةِ أنّ المَقام يَقتضي التَّأكيدَ، وأنَّ المَقَامَ أيضًا في الأمورِ الثلاثةِ الَّتي وَبّخهم عليها يَقتضي أنْ يُخَصَّصَ بزيادةِ العِنايةِ في قَوْلِهِ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

ثم قال لهم: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي﴾، هنا أتى بالوصفِ لأن ﴿الَّذِي أَمَدَّكُم﴾ الاسم الموصول وَصِلَته بمنزلةِ الاسمِ المشتَقّ، يَعْنِي: واتَّقُوا المادَّ لَكُمْ، والاسم المُشْتَقّ أو اسم الفاعل وَصْف.

وهنا انتقلَ من وَصْف الأُلُوهِيَّة إلى وصف الرُّبُوبِيَّة الخاصَّة، الَّذي نالَه منه، وهو: ﴿الَّذِي أَمَدَّكُم﴾؛ لأن إمداد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالنِّعَم من مُقْتَضَى الربوبيَّة.

وقَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ أتى بهذا الوصفِ أيضًا إقامةً للحُجَّة عليهم؛ لأنَّ مَن أَمَدَّكَ بهذه النعم كَان أَولى بأن تتَّقِيه.

وقَوْلُهُ: ﴿بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ مُبْهَم؛ لأن (ما) اسم موصولٌ، والاسمُ الموصولُ مُبْهَم وعامّ، ثم فصّله بقَوْلِهِ: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ﴾. والتفصيلُ بعدَ الإجمالِ، أو البيان بعد الإبهامِ، له فوائدُ، منها:

١ - تَنبيهُ السامِعِ أو القارِئ؛ فإذا كَان مثلًا يقرأ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ﴾ يشعر براحةٍ ثم بِتَنْبِيهٍ؛ لأن السياقَ تَغَيّر، فمِن المُبْهَم إلى المخاطبينَ بَيِّن وواضح، فهذا فيه تنبيهٌ.

٢- التشويقُ؛ لأن الإِنْسان يحبّ الاستطلاعَ، فإذا أُبهم إليه الأمرُ ووَضَحَ، اشتاقَ إليه ورَسَخَ في ذِهنه؛ ترسيخ الكَلام في الذِّهن؛ لأنه إذا جاء مُبْهَمًا تَشَوَّق له الذِّهْنُ، فإذا بُيِّنَ له بعدَ ذلكَ تَرَسَّخَ فيه.

٣- العِناية؛ لأن كونَه يُبْهِمُه ثم يُبَيِّنه أو يُجْمِلُه ثم يُفَصِّله؛ لأجل أن الإِنْسان يتشوَّق إليه ويَرتقي من معناه أنه أمر يُعتنَى به، كما أنَّ فيه أيضًا تأكيدًا؛ لأنه ذُكِر مرتينِ: مرَّةً مُبْهَمًا، ومرَّةً مُفَصَّلًا أو مُبَيَّنًا.

٤- تأكيده؛ بذِكره مرتينِ: مَرَّةً مُجْمَلًا، ومَرَّةً مفصَّلًا، أو مبهمًا ثم مُبَيَّنًا.

قَوْلهُ: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ ما قال: (أمدَّكم بأنعامٍ وبَنِينَ)، بالنِّسبة لهذه الآية بالذاتِ، فبيَّن لهم أن اللهَ أمدَّهم بأمرٍ لا يُمْكِنُهم إنكارُه؛ لأنَّهم يعلمونَ، فقدَّم: ﴿بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ على ذِكر المُنْعَم به بإقامةِ الحجَّة عليهم، حيثُ إنَّ هذه نِعَم مفهومة ومعلومة لهم، فلا يُمْكِنُهم إنكارُها.

قَوْلُهُ: ﴿بِأَنْعَـٰمٍ﴾ الأنعامُ: جمعُ نَعَم، يَعْنِي الإبل، وإذا قلتَ: إنَّ نِعْمَة جَمْعُها نِعَم، وجَمْع نِعم: أَنْعَام، صار المُراد بالأنعامِ ما هو أعمُّ منَ الإبلِ، يَعْنِي: كَأَنَّه يقول: بنِعَمٍ كَثِيرَة، والمعروف أنها للإبلِ فقطْ، لكن إذا قيلَ: بَهِيمة الأنعامِ، فتَشْمَل الثلاثة، وفي الحديث: «خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»[1].

وقَوْلُهُ: ﴿وَبَنِينَ﴾ الذكور منَ الأولاد، وخصّ البَنين؛ لأنَّهم أبلغُ في شَرَف الإِنْسانِ، ولأنَّ أولادَهم يُكَوِّنون قَبيلةً، لكن أولاد البنات من غَيْرِهم، فلا يكونونَ قبيلةً ولا يكونونَ أسرةً.

وقَوْلُهُ:[(﴿وَجَنَّـٰتٍ﴾ بَسَاتِينَ ﴿وَعُيُونٍ﴾ أنهارٍ]، وهذا ممّا يَدُلُّ على أنّ هذا الرَّبْع الخالِي الآنَ منَ الماءِ أنه كَان فيه بساتينُ، وكَانَ فيه أنهارٌ، ولعلَّ هذا يُوحِي به أيضًا قولُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا»[2]، فإنَّ قَوْلَهُ: «حَتَّى تَعُودَ» العَوْد بعدَ البَدْء، فهذه الجنَّات ليستْ مجرَّد بساتينَ فقطْ؛ لأنه لا يُسَمَّى البستانُ جنَّةً إلا إذا كَان كَثِيرَ الأشجارِ والزُّرُوع، حيث يُجِنّ مَن فيه ويَسْتُرُه، والعيونُ جَمْعُ عَيْنٍ.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّها أنهارٌ فباعتبارِ جَرَيَانِها، وإلَّا فالعُيُون هي الَّتي تَنْبُع من الأَرْض، والأنهار كما هو معروفٌ لا تَنْبُع منَ الأَرْض، وإنَّما تأتي منَ الأمطارِ والسيول وغيرها.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، رقم (٢٩٤٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها، رقم (١٥٧).

فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أنَّ الداعِيَةَ يَنْبَغي له أن يذكِّر المدعوَّ بِنِعَمِ اللهِ عليه، وتُؤْخَذ من قولِه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، والحكمةُ من تذكيرِه بالنعمِ أنَّ النعمَ تَستوجِب الشكرَ وطاعةَ الرَّحمٰنِ، وتضمن ذلك عقلًا؛ لأنَّ مَن أحسنَ إليكَ؛ فإنّه مِنَ الْمُسْتَحْسَن عَقلًا أنْ تُطِيعَه بما يَأْمُرُكَ به.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هذه النعم الَّتي يمدّ الله بها العبدَ تَستوجب أنْ يقومَ بتقوَى اللهِ؛ لأن قَوْلَهُ: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ في التعليلِ للأمرِ بالتَّقْوَى، فتكون النعمُ مُسْتَوْجِبَةً لِتَقْوَى العبدِ لِرَبِّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا للأشرِ والبَطَرِ والبُعْد عن اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم﴾ حيث عَدَل عن قَوْلهُ: (وَاتَّقُوا الله) إلى ما ذُكر؛ إشارةً إلى أن هذا السَّبَبَ كبيرٌ لِوُجوبِ التَّقْوى.



الآيات (١٣٥- ١٣٨)

• • ◦ • •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝١٣٥ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ۝١٣٦ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣٧ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء:١٣٥-١٣٨].

• • ◦ • •

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة إِنْ عَصَيْتُمُونِي، ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ﴾ مُسْتَوٍ عِنْدنَا ﴿أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ أَصْلًا، أَيْ لَا نَرْعَوِي لِوَعْظِك، ﴿إِنۡ﴾ مَا ﴿هَٰذَآ﴾ الَّذِي خَوَّفْتنا بِهِ ﴿إِلَّا خَلۡقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[1] اخْتِلَاقُهمْ وَكَذِبُهُمْ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِضَمِّ الخَاء وَاللَّامِ، أَيْ مَا هَذَا الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ إِنْكَارٍ لِلْبَعْثِ إِلَّا خُلُق الْأَوَّلِينَ، أَيْ طَبِيعتهم وَعَادَتهم، ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾].

قول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة إِنْ عَصَيْتُمُونِي]، يَعْنِي: إِنِ اسْتَمْرَرْتُم على ما أنتم عليه منَ الكُفْر بهذه النِّعَم العظيمة؛ فأخاف عليكم عذابَ هذا اليومِ.

وقَوْلُهُ: ﴿عَظِيمٍ﴾ صفة لليوم، لكن يقول: [في الدنيا والآخرة]، ووَصْف هذا العذاب بالعِظم في الدنيا باعتبارِ ما عداهُ، وأمَّا وصْفه بالعِظَم في الآخرة فظاهرٌ؛

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٦٨).

لأنه عظيمٌ أعظم ما يكون في الآخرةِ.

وإن قيل: قولُه تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ألا يدلُّ هذا على أنه يوم القيامة خاصة؟

قلنا: لا، فإنَّ اليومَ الَّذي يقع عليه العذابُ بالدنيا يُوصَف أيضًا بأنه يَوْم عَظِيم؛ وهو أيضًا لم يُعَيِّن يومًا.

﴿قَالُوا۟﴾ في الجوابِ بعد هذا التذكيرِ بالنِّعم، وبعد هذا الوعظِ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ أعوذ بالله! فهذا كِبرياء عَظيم! و﴿سَوَآءٌ﴾ بمَعْنى مستوٍ، وهي خبرٌ مُقدَّم، و﴿أَوَعَظْتَ﴾ الجُملةُ الاسْتِفهاميَّةُ هذه في تأويلِ مَصْدَر لمبتدأٍ مؤخَّرٍ، يَعْنِي: وَعْظُك وَعَدَمُه سَوَاءٌ.

وهذا من المواضعِ الَّتي تكون مؤوَّلة بالمصدرِ بدون حرفٍ مصدَرِيٍّ؛ مع أنَّ الَّذي دخلَ عليها أداة الاسْتِفهام، لكن بعد (سَوَاءٌ) هكذا تؤول وما بعدها بالمصدر، كقولِهِ تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون:٦]، أي: استغفارُكَ وعدمُه، وكقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦]، أي: إنذارُك وعدمُه.

فهم قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ أي: لا نَرْعَوِي لِوَعْظِكَ، وهذا مِنَ الجَبَرُوتِ ﴿أَوَعَظْتَ﴾ بالفعلِ ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ لم يَكُنْ وَصْفك الوَعْظ، ﴿سَوَآءٌ﴾ تركتَ الوعظَ أم لم تَتْرُكْه؛ لأنَّهم ما قالُوا: سواء علينا أوعظتَ أم لم تَعِظْ بل ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾.

فالمقصودُ من هذا أنه لا يُهِمُّهم أن يكونَ وَاعِظًا، أو غيرَ واعظٍ، ولا أن يَعِظهم

بالفعلِ أو لا يَعِظهم، كلّ الأمرِ عنْدَهُم سواءٌ، وإنَّما قالُوا ذلكَ لأنَّ الإِنْسانَ قد لا يَكْتَرِث بالواعظِ لكونِه غيرَ أهلِه، وقد لا يَكترث به عِنادًا، وهؤلاءِ لما قالُوا: ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ دلّ ذلك على أنَّهم مُعانِدُون، حتى وإنْ كان من غيرِ أهلِ الوعظِ، أو وعظت وأنتَ مِن أهلِ الوعظِ، وفي هذا من بلاغةِ القُرآنِ ما هو ظاهرٌ؛ لأنَّهم قالُوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ﴾ أم لم تعظْ، لكن ربَّما يقولون: إنه قد يَعِظ وليسَ أهلًا للوعظِ، ولكنهم قالُوا: ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ يَعْنِي: لـم تكن ممَّن يَسْتَحِقُّون أنْ يُوصَفوا بهذا الوصفِ.

فيؤخَذ من هذا أنه حُذِف من كلّ واحدةٍ ما يُقابلها؛ اختصارًا للوضوحِ، فيصير التَّقدير على هذا: (أوعظتَ أم لم تَعِظْ، أو أكنتَ واعظًا تَسْتَحِقّ أنْ يَنْصَرِف النَّاس لك، ويأخذوا منك، أم لم تكنْ واعظًا)، وهذه غاية ما يكون من بلاغةِ القُرآنِ، وبالنِّسبة لهم غاية ما يكون منْ الِاستكبارِ، وعدم الاكتراثِ بِوَعْظِهِمْ.

قوله تعالى: ﴿إِنْ﴾ فسرها المفسِّر بـ[ما]، يَعْنِي نافية، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿هَٰذَآ﴾ الَّذِي خَوَّفْتنَا بِهِ ﴿إِلَّا خَلْقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ اخْتِلَاقُهُمْ وَكَذِبُهُمْ]، يَعْنِي: إنَّك أنتَ يا هودُ ما جِئتنا إلَّا بأمرٍ اختلقه مَن قَبْلَكَ، فكذَّبوه هو ومَن قبله أيضًا، وقالُوا: هذا خَلْق الأوَّلين، خَلقُهُم أي: اخْتِلَاقُهم وافْتِرَاؤُهم وكَذِبُهم، كما قال الله تَعالَى عن إبراهيمَ: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت:١٧]، يَعْنِي: تَخْتَلِقُونه وتُزَوِّرُونَه.

قال: [وفي قِراءَةٍ بضمّ الخاءِ واللّام: ﴿خُلُقُ﴾]، وهذه القِراءَةُ سَبْعِيَّة بناءً على قاعدةِ المُفَسِّر، فإذا قال: «قُرِئَ» فهي ليستْ سبعيَّة، وإذا قال: «فيه قِراءَة» فيريد أنها سبعيَّة، قال: [أَيْ مَا هَذَا الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ إِنْكَارِ لِلْبَعْثِ إِلَّا خُلُق الْأَوَّلِينَ، أَيْ طَبِيعتهم وَعَادَتهم].

والمُفَسِّر -على القِراءَة الثَّانية- يَرى أَنَّ اسمَ الإشارةِ يعودُ إلى ما كَانوا عليه، وعلى قِراءَة: (خَلْق) فهو عائد على قولِ هودٍ، وسياقُ الآيةِ يدلُّ على أنه راجعٌ إلى قولِ هودٍ، سواءٌ بضمّ الخاءِ أو بِفَتْحِها، أمَّا فتحها فظاهرٌ: (إن هذا إلا خَلْق الأولين)، وأما ضَمُّها فهو أيضًا ظاهر كَأَنَّهم يقولونَ: إنَّ ما جئت به هو خُلُقُ الْأَوَّلِينَ من قَبْلِكَ -يَعْنِي بعضهم- الَّذي كَانوا عليه، يَعْنِي الأَنْبِياء السابقين، فعلى هذا يكون مَرْجِع الإشارةِ واحدًا.

أمَّا على رأيِ المُفَسِّر: (إن هذا إلا خَلْق الأولين) فيُريد أنَّهم يحتجون به، كَأنَّهم يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف:٢٢]، وهذا ما عليه آباؤنا، فسنبقى عليه، والآيةُ محتمِلة، ولكنها في الأوَّل أظهرُ:

أولًا: لأن القراءتينِ يفسِّر بعضهما بعضًا.

ثانيًا: إنهم يريدونَ أن يَرُدُّوا على قوله هو، لا أن يُبَرِّروا فِعلَهم.

قَوْلُهُ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ هذا إنكارٌ لقَوْلِهِ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ كأنَّهم يقولونَ: ما تَخَوَّفْتَ ليسَ له أصلٌ، فما نحنُ بمعذَّبِين.

وتأمَّل هذا التعبيرَ الَّذي أتى مؤكَّدًا بالباء في قَوْلهِ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ لم يقولوا: «وما نحن معذبون»، وكذلك أتوا بالوصفِ: ﴿بِمُعَذَّبِينَ﴾ في الجُملة الاسميَّة؛ للدَّلَالَةِ على انتفاءِ هذا أبدًا؛ لأن الجُملةَ الاسميَّة تَدُلّ على ثُبُوت مَدْلُولِها، فعليه يكونون قد أَنكَروا أنْ يُعَذَّبُوا، وادَّعَوْا أنَّهم لن يعذَّبوا أبدًا، ولكن هذا كما قال النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «العَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ»[1]، فهؤلاءِ

(١) سبق تخريجه.

-والعياذُ باللهِ- أَتبَعوا أنفسَهم هواها، وتَمَنَّوا على اللهِ الأمانيَّ إن كَانوا مصدِّقين بالبعثِ، ولا ندري ربما يكونونَ مكذِّبين به، وأنه لا بعثَ ولا جزاءَ ولا عذابَ.

فوائدُ الآياتِ الكريمةِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: بيانُ أنَّه يَنبَغي للداعيَةِ معَ القَرْن بذِكْر النِّعَم أن يَقْرِنَ الدعوةَ بالتخويفِ، وتُؤخَذ من قَوْلِهِ: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه يَنْبَغي إذا كَان المَقامُ أنسبَ أن يكون غير مُصَرَّح بذلك؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ ولم يقل: إنكم ستُصابون بيومٍ عظيمٍ، فالمتوقَّع له غير الجازِم به؛ لأن المَقامَ يَقتضي ذلكَ، ولكلِّ مَقامٍ مَقالٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفي الآيات دليلٌ على أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد يَطْبَع على قلبِ العبدِ فلا يَستفيد بموعظةٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾، هذا إذا لم يكنْ هذا القولُ منه كَذِبًا.

فإن كَان كذبًا فلا شاهدَ فيه لذلكَ، يَعْنِي: إنْ كَان الأمر حقًّا كما يقولونَ أنَّهم سَواء وُعِظوا أم لم يُوعَظوا؛ فإِنَّه يدل على أن العبدَ -والعياذُ باللهِ- إذا رانَ على قَلْبِهِ ما يَعْمَل، لم يَسْتَفِدْ من موعظةٍ، أمّا إن كَان كذبًا فإِنَّه يدلُّ على عُتُوّ هؤُلاءِ القومِ، وشِدَّة استكبارهم عن الحقِّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وفي التعبيرِ بقَوْلِهِ: ﴿أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ دليلٌ على بلاغةِ القُرآنِ، حيث الجمع في جملةٍ واحدةٍ بين أربعةِ معانٍ: وَعَظْتَ أم لم تَعِظ.. كنتَ منَ الواعظينَ أم لم تكنْ. وذلك في كلمتينِ؛ لأنه حَذَف من كل كلمةٍ ما يقابلها في دلالة أُخرَى عليها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وفي الآيات دليلٌ على أنه لا حُجَّةَ للمُعانِدِ للرسُل سوى التمسُّك بما كَان عليه أسلافُهم، تُؤْخَذُ من قولِه تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هذا على حَسَب ما فَسَّره المُفَسِّر، وعلى حَسَب ما صارَ عليه.

أما على القِراءَة الثَّانية: «إِلَّا خَلْق الأَوَّلِينَ»؛ فإِنَّه يُستفاد منه أن هؤُلاءِ لم يَقتصروا على تكذيبِ نبيِّهم، بل تَعَدَّوْا إلى تكذيبِ غيرِهِ أيضًا، مع أَنَّهم لم يُطالَبوا به، فلم تُطالِبهم الرُّسُل السابقونَ بذلك، إلا أَنَّهم بعنادِهِمْ واستكبارِهِم كذَّبوا حتى السابقينَ، ولأجلِ أن يقولوا: إن هذا ليس بالأمرِ المجرَّب، وإِنَّما ذلك دَأْبُ مَن كَان من قبلهم.



الآيتان (١٣٩، ١٤٠)

• • ๑ • •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١٣٩-١٤٠].

• • ๑ • •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا بِالرِّيحِ، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾].

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ يَعْنِي: فبهذا القولِ الَّذي صَدَرَ منهم يَصْدُقُ عليهم هذا الوصفُ، أنَّهم كذَّبوا هُودًا، فيكونون مُسْتَحِقِّين للعذابِ، ولهذا أتَى بالفاء ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾.

قال المُفَسِّر: [﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ في الدنيا بالرِّيح]، أهلكهم اللهُ تَعالَى بالريحِ، ومنَ العجائبِ أن الله -سبحانه وبحمده- أهلكهم على حين تَشَوُّق منهم للرَّحمة؛ لأنَّهم أُصيبوا بالجدْبِ والقَحْط، وبقُوا مدَّةً، وصاروا ينتظرونَ الفَرَجَ بالمطرِ، فلمَّا أَرسلَ اللهُ هذه الريح ﴿عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف:٢٤]، استفرحوا بذلك وظَنُّوا أنَّ الفَرَج قريبٌ، ولكنه كَان فَرَجًا لهُودٍ ونِقمةً عليهم.

قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٤-٢٥]، وهذه الريحُ الَّتي بَعَثَها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عادٍ فيها من آياتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ هؤُلاءِ القوم الأشدَّاء الأقوياء

الفخورينَ بقُوَّتِهم على غيرِهم أُهلكوا بألطف الأشياءِ، وهي الرِّيح.

ثم إنهم أُهلكوا في حالِ الرجاءِ؛ لأنَّ النِّقْمَة إذا أَتَتْ والإِنْسان يَتَوَقَّع النعمةَ، فتكون أشدّ، وكذلك إذا أتتِ النقمةُ والإِنْسانُ في نعمةٍ تكون أيضًا أشدَّ وأنكى، والعياذُ باللهِ.

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ إلى آخره موعظةٌ لنا لِـمَا نَسْمَعُه أحيانًا من هذه الأعاصيرِ المدمِّرة الَّتي تُقْلِع الأشجارَ، وتَخْرِب الدِّيارَ، وتُهلِك الثِّمار، وتهلِك الإعمارَ أيضًا، ولكن -مع الأسفِ- فإنَّ الكثيرَ منّا يَصْدُقُ عليهم قولُ الله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤]، فهذا أمرٌ طبيعيٌّ.

والنَّاسُ الآنَ يَسمَعون بالزلازل، ويَسمعون بالأعاصيرِ، ويَسمعون بالفَيَضَانات العظيمةِ، ولكنَّهم لا يرونها أنها غَضَب من اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولكن يرون أنها أمرٌ طبيعيّ، ولهذا لا يتأثَّر الإِنْسان بها إطلاقًا، وكَأنَّها لا شيْء، بينَما ونحنُ صِغار كنَّا إذا سمِعنا أنَّ الأَرْضَ زُلزلت في أُحُدٍ نَرْتَجِف ونحن في بُيُوتنا آمنونَ؛ لأنه ما كَان أحد يقول لنا: إنه هذا أمر طبيعيّ، وهذا أمر لا يُهِمّ، وهذا أمرٌ كائن لا محالَةَ.

ومثل ذلك الكسوفُ، كَان النَّاس في الماضي إذا كَسَفَ القمرُ تَحْصُل منهم رَهبةٌ عظيمةٌ، ويحصُل منهم خوفٌ، ويَحْضُرون بأعدادٍ كبيرةٍ إلى المساجدِ من رجالٍ ونساء، وتحصُل صلاةٌ، وبكاءٌ، وخوفٌ، وقد رأيتُ هذا، أما الآنَ فلا ترى شيئًا من هذا، بل تجد هذا يشاهَد في التِّلفاز أغنيةً، وهذا يسمع أغنيةً من الراديو!

ويُستفاد من الآية أنَّهم قد عَصَوْا وكذَّبوا برسالةِ هودٍ، فهذه الآيةُ فيها العِنادُ،

وفي آياتٍ أُخْرَى ثَبَتَ أنَّهم لم يُصَدِّقوا بهود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾ [هود:٥٩]، رسل الله، ولم يصدقوا عنادًا.

وإن سأل سائل: ما الحِكمة في كونِ بعضِ الرُّسُلِ أو بعض الأُمَم تكَرَّر ذِكرها في القُرآنِ كثيرًا، وبعض الرُّسُل لم يأتِ له ذِكْرٌ قطُّ؟

فالجَواب: ما ذكرَ إلا الرُّسُل المحيطينَ بالعرب، الَّذينَ كَانوا يَعرفون أنباءَهم، فيكون هذا أقوَى، لكن الَّذي يكون بعيدًا عنِ العربِ ما ذُكر، لكن نَعْلَم أنَّ الله بعثَ إليهم رسلًا: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر:٢٤]، لكن ما ذكرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الرُّسُل إلَّا ما كَان حولَ الجزيرةِ.

ولا يدلُّ هذا على أن الَّذينَ ذُكروا في القُرآن أفضلُ من غيرهم؛ لأن غيرَهم ما ذُكروا؛ فلا نعرِف عنهم شيئًا، إنَّما أُولو العزم الخمسة هؤُلاءِ لا شكّ أنَّهم أفضلُ من غيرِهم.

حتى الأماكن والقرى التي ما اكتَشَفُوها إلّا حَديثًا، لكن هي موْجودةٌ من قبلُ، فهي موْجودةٌ من زمانٍ بلا شَكّ، وموْجود فيها أُناسٌ، ويُذكر أنّ شيخَ الإسلام تكلَّم عن هذا، وقال: لا بُدَّ أن هناك أحدًا في المقابلِ لوجهِ الكرةِ الأَرْضيَّة، فلا بُدَّ أن هناك أُناسًا، فلا يُمْكِن أن تُتْرَكَ الأَرْض بدون عِمارةٍ.

وفي قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ دَليل على أن التَّكذيب سببٌ للإهلاكِ، فيَنبغي للمؤمنِ الَّذي يَعتبر بِقصصِ الأَنْبياءِ السابقينَ أنْ يَحْذَرَ من هذا -أي: منَ التَّكذيبِ- لأنه إنْ فَعَلَ أُهلِك.



الآيات (١٤١- ١٤٥)

• • ◦ • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٤١-١٤٥].

• • ◦ • •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ﴾ ما ﴿أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾].

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وهذه هي القِصَّةُ الثالثةُ الَّتي يَذْكُرُها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ دائمًا عندَ ذِكر قصَص الأَنْبياءِ، فهم يكونون في الترتيبِ بعد قومِ هودٍ: يكون هودٌ قبلَ صالحٍ، وصالِحٌ بعدَه.

وثَمُودُ هي القبيلة المعروفة مَساكنهم في شَمالِ المَمْلَكَةِ العربية السُّعُودِيَّة، وتُسمَّى الآن (مَدَائِن صالِح)، وهي تُسَمَّى في الأَصْل (الحِجج)، هؤُلاءِ القومُ أعطاهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قوَّةً وقُدرةً وإبداعًا في الصُّنْع، ولهذا أُوتوا بِآيَةٍ تُناسِبُ حالَهم، وهي الناقةُ؛ كما سيُذكر إن شاء اللهُ.

قال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وهم إنَّما كذَّبوا رَسُولًا واحدًا لكن سَبَقَ أنْ قُلنا: إنَّ المُرْسَلِينَ جاءُوا بدعوةٍ واحدةٍ، وتكذيبُ الواحدِ مِنهم تكذيبٌ للجِنْسِ عُمومًا؛ لأن هؤُلاءِ الَّذينَ يكذّبون رسولًا لم يكذِّبوه لِعَيْنِهِ وشَخْصِهِ، ولكن كذّبوه

لدعوتِهِ، وهذه الدعوةُ الَّتي جاء بها هذا الرَّسُولُ المعيَّن هي دعوةٌ لجميعِ الرُّسُلِ، فكأنَّهم كذَّبوا جِنْسَ هذه الرِّسالَةِ، فصَدَقَ عليهم أنَّهم مكذِّبون لجميعِ الرُّسُلِ.

قَوْلهُ: ﴿إِذْ﴾ هذه إمّا للتعليلِ أو ظَرف للتكذيبِ، يَعْنِي: إنَّ التَّكذيبَ حَصَلَ بهذه القصَّة، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾، وسمَّاه أخًا لهم مع بُعد ما بين المؤمنِ والكافرِ؛ لِأُخُوَّة النَّسَب، لا لأُخُوَّة الدِّين.

قَوْلهُ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، كلُّ هذه الجُمَل تَقَدَّمَ الكَلامُ عليها، وذِكْرُ الإيراداتِ على قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ والجَوابُ عنها.



الآيات (١٤٦- ١٥٢)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء:١٤٦-١٥٢].

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ﴾ مِنَ الخَيْرَات ﴿ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ لَطِيف لَيِّن، ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ بَطِرِينَ، وَفِي قِرَاءَة: (فَارِهِينَ)[1] حَاذِقِينَ، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فِيمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ، ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بِالمَعَاصِي ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ بِطَاعَةِ اللهِ].

قَوْلُهُ: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ﴾ (فِي مَا): أي في الَّذي (هَاهُنَا): الإشارة إلى مكَانِهم؛ لأنَّ مكَانَهم كما وَصَفَهُ صالحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾.

والاسْتِفهام في قَوْلِهِ: ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ للتَّحذيرِ، يَعْنِي: أتظنُّون أن تُتْرَكُوا؟ لا، فلن تُتْرَكوا، فهو للنفيِ المُتَضَمِّن للتحذيرِ.

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٦٨).

وقَوْلُهُ: ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ مبنيٌّ للمجهولِ للعلمِ بالفاعلِ، والفاعلُ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، يَعْنِي: أَيَتْرُكُكُمُ اللهُ ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ﴾؟

وقَوْلُهُ: ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ إلى آخرِهِ، تذكيرٌ بنعمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهم، وأنَّهم لا يُمْكِنُ أنْ يُترَكوا في هذا الحالِ بدونِ أمرٍ ولا نَهْيٍ، فهو كقولِهِ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، وقَوْلِه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥].

وقَوْلُهُ: ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ حالٌ منَ الواوِ في: ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾، يَعْنِي حالَ كونِكم آمِنِينَ، والآمِنُ هو الَّذي أَمِنَ منَ الخوفِ، وفيه دليلٌ على استقرارِهِم في أوطانِهِم، وأَمْنِهِم، والأمنُ معَ الرِّزق الواسعِ هما غايةُ النعمةِ في هذه الحياةِ.

قَوْلُهُ: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ والجنَّات جمع جنَّة، وهي البساتينُ الكَثِيرَةُ الأشجارِ؛ لأنها تَسْتُرُ مَن فيها، وقَوْلُهُ: ﴿وَعُيُونٍ﴾ جمعُ عينٍ، وهي المياهُ الجاريةُ بدونِ دوالٍ ولا نواضِحَ.

قَوْلُهُ: ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ عطفَ ما ذكرَ على الجنَّات من بابِ العطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ للعنايةِ به، وإلَّا فهو داخلٌ في الجنات؛ فإنَّ الزُّروع منها والنخيل كذلك.

والطَّلْع يَعْنِي: ما تطلعه، وقَوْلُهُ: ﴿هَضِيمٌ﴾: يقول: [لطيف لَيِّن]، والأمرُ كذلك؛ فإنَّ طَلْعَ النَّخيل من أَلين ما يكونُ وألطفه.

وقيل: إنَّ الهَضِيم بمَعْنى النَّضِيد، كما قال الله تعالى: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ [ق:١٠-١١]، يَعْنِي أنه منضودٌ ليسَ متفرِّقًا لأجلِ أنْ يَسْهُلَ أخذُه وَجَنْيه.

وإنَّما نصَّ على الطَّلْع دونَ غيره من الفوائدِ معَ كثرةِ فوائدِ النخيلِ؛ لأنه غاية ما يُنْتَفَعُ به منها، وإلَّا ففيها منافِعُ كَثِيرَةٌ، ولهذا شبّه النَّبيُّ ﷺ المؤمِنَ بها؛ لكثرةِ خيراتِه وفوائدِهِ، هذا من حيثُ الزُّرُوعُ والتنميةُ.

أما من حيثُ البناءُ والمساكنُ فقال: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ﴾، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بَطِرين، وفي قِراءَة: (فَارِهِينَ) حاذقينَ].

قَوْلُه: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ المُراد بالنَّحْت منَ الجبال أَنَّهم يَجعلون البيتَ من الجبلِ، وليس معناه أنَّهم يَنحِتُون الحَصَى ثم يَبْنُونَها، ولكنهم يجعلون البيتَ نفسَه منَ الجبلِ، فيكيّفون الجبلَ كما يريدونَ، وهو دَليل على مَقْدِرَتِهِم، وعلى كمالِ مَعْرِفَتِهِم بالهندسةِ؛ لأن شيئًا ليسَ أمامك، بل هو في باطنِ الحصَى والجبال والصخور، فتحتاج إلى تفكيرٍ قويٍّ كيف تَصْنَعُه؟ وكيف تجعلُ مَدْخَلَه؟ وكيف تجعل منه استراحةً؟... إلى آخرِهِ. فهو دليلٌ على قُوَّتِهم، وعلى حَذْقِهم في الهَنْدَسَةِ.

وكلمة: ﴿فَـٰرِهِينَ﴾ يَعْنِي: بَطِرِينَ، فهي صفةٌ مُشَبَّهة، و(فَارِهِينَ) بالمَدّ اسمُ فاعلٍ، والمُرادُ به الحَذْقُ.

واختلافُ القراءَتَيْنِ تكون فيه فائدةٌ، وهي اجتماعُ المعنيينِ من هذه الكلمةِ، فيكونون متَّصِفينَ بالأمرينِ: بالبَطَر بِناءً على قِراءَةِ القَصْرِ، وبالحَذْقِ بناءً على قِراءَةِ المدّ، وهذا من فوائدِ تنوُّعِ القِراءَةِ؛ لأن تنوُّعَ القِراءَةِ له فوائدُ كَثِيرَة؛ منها أن تكونَ الكلمةُ جامعةً لمعنيينِ.

قَوْلُهُ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ هذه الجُملةُ مثلما تَقَدَّمَ في قِصَّة عادٍ؛ إما أنْ تكونَ مبنيةً على ما ذُكِر، وإما أن تكونَ مكرَّرةً لما سَبَقَ، فعلى الأوَّل تكون تأسيسًا، وعلى

الثَّاني تكون تأكيدًا، والمَقام مهمٌّ جدًّا، ويَحتاج إلى أن تُكرَّر فيه هذه الكلمةُ، وهي تقوى الله، وطاعة الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقَوْلُهُ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ هذا أمرٌ ونهيٌ: أمرٌ بِتَقْوَى اللهِ وطاعته، ولكنَّه نهيٌ عن طاعةِ أَمْر المسْرِفِينَ، واحد الأوامر، يَعْنِي: لا تُطيعوا أمرَهم.

ولماذا قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ وما قال: وأَطِيعوا أمري، وهنا قال: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾، ولم يقلْ: لا تُطيعوا المسرفينَ في إفسادِهِمْ؟

والجَواب: أنَّه يَنهاهم عن طاعةِ أمرِ المسرفينَ، في أنَّهم كِبار القومِ ووُجَهَاؤُهُمْ، وأنَّهم يأمرونَ، فهذا أبلغُ مِن لو قالَ: ولا تُطِيعُوهم.

ولو قال: لا تطيعوا المسرفينَ أنفسَهم، ربما يُقالُ: إن هذا لِعَدَاوَةٍ بينه وبينهم، فهو لا يريدُ أن يُطاعوا، وأمرَ بطاعةِ نفسِه، لكن لـما قال: ﴿أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ فكأنَّه يقول: أنا لا يُهِمُّنِي أن يكونَ هذا من فلانٍ أو من فلانٍ، ولكن الكَلام على أنه أمرٌ من مُسْرِف؛ لأجلِ أنْ يُبعِد اتِّهامَه بأنَّه لا يريدُ المسرفينَ أنفسهم، حيث وجّه النهيَ عن طاعتهـم لأنفسِهـم، فجعلَ النهيَ عن طاعةِ أمرِهـمُ الَّذي هـو أمرُ إسرافٍ وفسادٍ.

وقَوْلُهُ: ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ يَعْنِي المُتَجاوِزِينَ للحَدّ، فالمسرِفُ: مَن جاوَزَ حدَّه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف:٣١]، أي لا تَتَجاوَزُوا الحَدَّ كَمِّيَّةً ولا كيفِيَّة.

ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وهذه الصِّفَةُ كاشفةٌ وليستْ قَيْدًا؛ لأن كلَّ مُسْرِفٍ مُفْسِد في الأَرْض، فالصِّفَةُ كاشفةٌ، وقَوْلهُ: ﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: يكونون سببًا في فسادِها، أو أنَّ المعاصيَ نفسَها فسادٌ.

يَعْنِي: إما أنْ تكونَ هي الفسادَ فيفسدون، من بابِ إضافةِ الشيْءِ إلى سببِهِ، وإمّا أن تكونَ المعاصي سببًا للفسادِ، أو أنها هي نفسها فسادٌ.

قَوْلهُ: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ في طاعةِ اللهِ، ولا بغيرِها أيضًا.

وفي قَوْلِهِ: ﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ دليلٌ على فسادِهِم، وأنه ليس فيها صلاحٌ، فالنفيُ هنا يُقْصَدُ به النفيُ للإصلاحِ معَ إِثْباتِ كمالِ ضِدِّه، وهو الفسادُ: ﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بطاعة اللهِ]، الطَّاعة نفسها إصلاحٌ بلا شَكّ، وهي أيضًا سببٌ للإصلاحِ؛ فإنَّ طاعةَ اللهِ تَعالَى سببٌ لِصَلاح كلِّ شيْءٍ: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].



الآيتان (١٥٣، ١٥٤)

• • ● • •

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء:١٥٣-١٥٤].

• • ● • •

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴾ الَّذِينَ سَحَرُوا كَثِيرًا حَتَّى غَلَبَ عَلَى عَقْلِهِمْ، ﴿ مَآ أَنتَ ﴾ أَيْضًا ﴿إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فِي رِسَالَتك].

هذا جَوابُهم، حيثُ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴾ اتَّهَمُوه بأَنَّه مسحورٌ، ومُسَحّر أبلغُ من مَسْحُور أيضًا.

وقَوْلهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ حصرٌ لأعمّ الأحوالِ، يَعْنِي: ما حالُك أبدًا تَخْرُجُ عن هذا الوصفِ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴾.

وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [الَّذينَ سُحِروا كثيرًا حتى غلب على عقلهم]، هذا -والعياذُ بالله- جَوابُهم، مثلما أجابَ به كثيرٌ منَ النَّاس، بل إنَّما كلّ الأَنبِياء يُقالُ لـهم مثلُ هذا: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]؛ وذلك لأَنَّه لا حُجَّة لهم، وكلُّ إِنْسانٍ ليس عنده حُجَّة إِنَّما يَذْهَب إِلى السَّبِّ والشَّتْم، ويظنُّ أنه بذلك يُنَفِّر عَمَّن خَصَمَه وعَجَزَ عن مُقَابَلَتِه، وأَمَّا الإِنْسان الَّذي عنده حُجَّة فإِنَّه لا يَلْجَأُ إِلى الشَّتم، وإلى السبِّ، ولهذا يُعابُ على

بعضِ العُلَماء أن يكونَ دأبُهُ السَّبّ والشتم معَ خُصُومهم.

وكان ابنُ حَزْمٍ -رحِمه الله، وعَفَا عنه- شديدًا في المناقشةِ، ولو كَان يُناقِش بهدوءٍ لكَان أحسنَ له، وأمّا السبُّ والشَّتم في قومٍ هم مثلُه أرادوا أنْ يَصِلُوا إلى الحقّ، فهذا لا يَنبغي، ولا يَليق به، ولا يَليق بالإِنْسانِ العامِّيِّ، فضلًا عن العالِـمِ، فالمقصودُ ليسَ هو التهجُّم على الشخصِ، فالمقصودُ أن يردّ على المقالةِ وتَبطُل، لكن أعداء الرُّسُل ليس عنْدَهُم ما يُقاوِمُون به ما جاءتْ به الرُّسُل، فلهذا يلجَئُون دائمًا إلى السبّ والشتمِ.

ولا شـكّ أنّ اتِّهامه بأنه مِن المسحَّرين كَـذِب، بل هـو من أعقلِ النَّاسِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولولا أنه أعقلُ قومِهِ ما جعلَ اللهُ الرِّسالَةَ فيه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، فهو أعقلُهم، وأكثرُهم أمنًا، وأقواهم صَبرًا.

أما قولهم: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فهذا صَحيحٌ، لكن هذه العِلَّة غير مانعةٍ من أن يكونَ رسولًا، ولهذا قالتِ الرُّسُلُ لقومِهم الَّذينَ احتجوا عليهم بهذه الحجة: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم:١١]، وهذا جَوابُ هذه الشُّبهة، فهي شُبهة جعلوها حُجّةً، فيُقال: وإذا كَان بشرًا مثلكم، فلا مانعَ من أنْ يَمُنَّ اللهُ عليه بالرِّسالَةِ.

وأيضًا لا يُمْكِن أن يرسِلَ اللهُ أحدًا إلى البَشرِ إلَّا مِنَ البَشَرِ، حتى ولو جُعِل مَلَكًا كما اقترحَ لجُعِل بسُورَةِ الرَّجُل، ثم عاد الأمرُ على هؤلاءِ مُلْتَبِسًا مُشْتَبِهًا، فلم يَستفيدوا من ذلك شيئًا.

قَال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في رِسالتك]، لو اقتَصَرُوا على قَوْلِهِم: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾ لكَانَ هذا كَلامًا سليمًا؛ لأنَّ كلَّ إِنْسانٍ يَأتيه بَشَرٌ مثله ويقول: إنني رَسُولُ ربِّ العالمينَ، فسيقول: هاتِ آيةً ودَليلًا، وإلَّا لأمكنَ كلَّ كذّابٍ أنْ يدَّعِيَ النبوَّةَ، وأنْ يَسْتَحِلّ دماءَ غيرِه وأموالهم بهذه الدعوَى الكاذبةِ.

فقولُهم: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾ صَحِيحٌ، لكن ما المُرادُ منه، هل يُرادُ به التحدِّي أم الاسترشادُ؟

يَظهَر من حالِهِم أن المُرادَ به التحدِّي، يَعْنِي أَنَّه لا يُمْكِن أنْ يأتِيَ بآيةٍ، على حدِّ قولهم: إنه مُسَحّر، وقولهم: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ يدلّ على استبعادهمْ أنْ يكونَ كذلكَ، وعلى أنَّهم يُريدون بهذا التحديَ له.



الآيات (١٥٥- ١٥٩)

• • ∽ • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١٥٥-١٥٩].

• • ∽ • •

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ﴾ نَصِيبٌ مِنَ المَاءِ، ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ بِعِظَمِ الْعَذَاب، ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ عقرَها بَعْضُهمْ بِرِضَاهُمْ ﴿فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ﴾ عَلَى عقْرِها، ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المَوْعُودُ بِهِ فَهلَكُوا، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾].

أجابَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ بقَوْلِهِ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ﴾، فهذه الناقةُ آيَةٌ أعظمُ مِمَّا يَصْنَعُونه منَ الحِجَارة، وما يَزْرَعُونه مِنَ الزُّرُوع، ويَغْرِسُونه منَ الأشجارِ؛ لأنها خَرَجَتْ عنِ النُّوق الأُخرى، فلم تكنْ مثلَ النُّوقِ المعروفةِ المألوفةِ.

ووجهُ كَوْنِها آيةً بَيِّنَةً في قَوْلِهِ: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، هذا وجهُ الآيةِ في هذه الناقةِ.

وأمّا ما جاءَ في الإسرائيليَّاتِ مِن أنَّها خَرَجَتْ من صخرةٍ، فهذا لا أصلَ له،

ولو كَانَتْ كذلك لذُكِرَ في القُرآنِ؛ لأن خُرُوجَها من صخرةٍ -وهي من الحيوانِ- أشدُّ وأظهرُ وأجلَى في الآيةِ مِن كونها لها شِرب ولهؤلاءِ شِرب.

والصَّوابُ أن يُقال: إن هذه الناقةَ ناقةٌ وُلدتْ من نُوق، ولكن لها مَزِيّة على غيرِها، وهي هذه المزيّة العظيمةُ: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، يَعْنِي أنها هي تَشْرَب منْ هذا البِئر، فتأتي وتَشرب، واليوم الثَّاني تَذهب وتَرعى، لكن في اليومِ الَّذي تَشرب قال أهلُ العِلْم: إنَّ كلَّ مَن أعطاها دَلوًا منَ الماءِ أَعْطَتْه دَلوًا منَ اللَّبَن، فصاروا هم يَشربون يومًا لَبنًا، ويومًا ماءً، وهذا اللَّبَن يأخذونه من هذه الناقةِ، وهذا بلا شَكٍّ من آياتِ اللهِ؛ إذ لا توجدُ ناقةٌ على هذه الصِّفَةِ.

وقَوْلهُ: ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ كَان هذا الشِّرب مُـؤَقَّتًا بوقتٍ جعَلُـوه لأنفسهم، بحيثُ لا يَلْتَبِس على مَن ليسَ في البَلَد حتى لو كَان الإِنْسان في خارجِ البلدِ يعرف أن اليومَ يومُ الناقةِ، أو أنَّ اليومَ يومُ النَّاسِ، فيأتي ويَرِد هذه البئرَ ويَشرب منها، أو يَرد الناقة بيومها فيَشرب مِن لَبَنِها، وهذه هي الفائدةُ من قَوْلِهِ: ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

قَوْلهُ: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يقول المُفَسِّر: إنه عَظيمٌ في عِظَم العذابِ، يَعْنِي: وليسَ اليوم نفسه هو العظيم، ولكن لِوُقُوع العذابِ فيه صارَ عَظيمًا، و﴿عَظِيمٍ﴾ وصفٌ لليومِ.

وهل هو وصفُ مَدْح أم وصف ذمٍّ؟

هو في الحَقِيقَة وصفُ مَدْح، ودليلٌ على القُوَّة فيما وصف به، حتى إنْ كَان عذابًا فهو دليلٌ على قوّة العذاب، وإنْ كَان خيرًا فهو دليلٌ على قوَّة هذا الخيرِ،

فالعَظَمَةُ مِن حيثُ هي مَعْنى من المعاني تدلُّ على الكمالِ والمدحِ، سواء كَان هذا في عذابٍ أو في نعمةٍ.

وقَوْلهُ: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ كثيرٌ منَ النَّاسِ يَتَحَاشَوْنَ أنْ يَصِفُوا المخلوقَ بـ(العظيم)، ولكن الحَقِيقَة لا وجهَ لهذا، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣]، ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ:١-٢]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٦]، فوصَفَ اللهُ تَعالَى بالعِظَم نفسَه وكَلامَه ووحيَه، ووصفَ به أيضًا بعضَ مخلوقاتِهِ، ممّا يدلّ على أنّه لا بأسَ به.

وقد كَان النَّاسُ يَتحاشَوْن أيضًا قَول (المُعَظَّم)، وهذا أيضًا لا يُتحاشى منه، والسَّبَبُ أنه معظَّم ليس عظيمًا، فـ(المعُظم) قد لا يكون عظيمًا، فقد يُعَظَّم مَن ليس بِعَظيمٍ، وهو أقلّ رُتبةً من العظيم؛ فإذا كَان (العَظيم) جائزًا إطلاقُه، فـ(المعظَّم) من باب أَولى.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: عَقَرَها بعضُهم بِرِضاهم، ﴿فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ﴾ على عَقرها، ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ الموعود به، فهلكوا]، فهو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال لهم: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾، ولكنَّهم مَسُّوها بأسوأ السُّوء -والعياذُ بالله- فعَقَروها، والظَّاهرُ أنّ المُرادَ بالعقرِ القتلُ، وليس قطعَ الأرجُل فقطْ، بل أنّهم أَهلكوها، فعُوقِبوا بمثلِ ما جَنَوْا.

وهل أصبحوا نادمينَ على ما فَعَلُوا من ذنبٍ، أم أنّهم نَدِموا على ما فَاتَهُمْ من مَصلحتها؟

الظَّاهر أنّهم نَدِموا على المصلحةِ؛ لأنّهم ما بعدُ أَتاهمُ العذابُ، فالظَّاهرُ أنّهم نَدِموا على ما فاتَهُمْ منَ المصلحةِ الدنيويَّة؛ لأنّهم لو ندِموا على الذّنب لكَانوا تائبينَ،

ولَمَّا استحقُّوا العذابَ، لكن نَدِموا على مَصْلَحَتِهِم فقد كانوا يَشربون مِن لَبَنِها، ثم فاتَهم هذا.

وقد بَقُوا بعد ذلك ثلاثةَ أيامٍ، والحكمةُ من هذه الأيَّام الثلاثةِ -واللهُ أعلمُ- لعلَّهم يَتُوبُونَ، ولكنَّهم لم يَتُوبوا، وقد أُخِذ منْ هذا استتابة المرتَدّ ثلاثةَ أيّام، فإنْ تابَ وإلا أُجري عليه الحدُّ، على خِلافٍ بينَ أهلِ العِلْم في هذه المسألةِ.

والمهمُّ أن هؤُلاءِ لم يَنْدَمُوا على فِعل المعصيَةِ، ولو ندِموا لكَانَ توبة، ولكنهم ندِموا على ما فاتهم من حَظِّ الدنيا فقطْ.

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ الموعودُ به، فهَلَكُوا]، إلَّا أنَّ اللهَ تَعالَى أنجَى صالحًا ومَن معَه.

وقولُه تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ معلومٌ أنّهم لم يكونوا كلّهم عَقَروها، ولكن لَـمَّا كَان برِضا الجميعِ، ومِن زُعَمائِهم، فنُسِب إليهم جَميعًا، ففِعل الطائفةِ منَ الأُمَّة يُعتبَر فعلًا للجميعِ إذا لم يُنكِروه، فإذا سَكَتُوا ولم يُنْكِروه فهو فِعْل الجَميع، ولهذا يذكِّر اللهُ تَعالَى الْيَهُودَ في عهد الرَّسُولِ ﷺ بما فعلَ أسلافُهم، ويُخاطِبُهم به مُخاطَبَةَ الفاعلِ؛ لأنها أُمَّة واحدة، فإذا لم تُنْكِر ما كَان عليه أسلافُها، نُسب للجميعِ.

وما هو العذابُ الَّذي أَخَذَهُم؟

الجَواب: صَيْحَة ورَجْفَة، يَعْنِي: رَجَفَ اللهُ بهم الأَرْضَ وصاحَ بهم جِبريلُ، فماتوا، ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود:٦٧]، -والعياذُ باللهِ- صَرَعى كنفسٍ واحدةٍ.

وفي هذا دليلٌ على كمالِ قُدرة اللهِ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وأنّ الله تَعالَى قادرٌ على كلِّ شيْءٍ، ولا يُعْجِزُه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي

﴿ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤]، ولو أنَّنا عَقَلْنا -نحن المسلمينَ- وآمنَّا حقيقةَ الإيمانِ، ما كنّا بهذه الحالِ الَّتي نحن عليها، يَعْنِي: ما كنّا نخاف النَّاس أكثر ممّا نخاف الله.

فالإِنْسانُ لا بُدَّ أنْ يخافَ ويَرْجُو، لكن إمّا أن يخاف اللهَ أو يخاف غيرَه؛ فإنْ خافَ اللهَ خافَهُ النَّاس، وإنْ خاف غيرَ اللهِ استولَى عليه هذا الخوفُ، وهذا صَحِيحٌ وحقّ، فإنَّ مَن خافَ اللهَ خافَه كلّ شيْءٍ، ومَنِ اتَّقَى اللهَ اتَّقاه كلُّ شيْءٍ، والعكسُ بالعكسِ.

فعلينا جميعًا أنْ نكـونَ واثقينَ بوعدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ غيرَ ناظرينَ إلى الأسْبابِ الحاضرةِ، ولو نَظرنا نظرةً مادِّيَّة مَحْضَةً، لكنّا لا يُمكِن أنْ نتكلَّم معَ هؤُلاءِ، أو أنْ نَتَحَدَّاهم في تنفيذِ الشريعةِ ومُحاربتهم، لكن يجبُ أنْ لا نَنْظُر إلى هذه الأسْبابِ الحاضرةِ، ويجب أن ننظرَ إلى أسْبابٍ أُخْرَى فوق المادَّة.

ولـهذا مَن نَظَرَ إلى هذه الأسْبابِ -المشاهدة الطبيعيَّة- لا يَستقيمُ له أمرٌ، فالصَّحَابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ عِندَما جاءتِ الفُرْسُ والرُّوم لم يَنْظُروا إلى هذه الأسْبابِ، فقد كَانوا يحاصِرون المدينةَ العظيمةَ لمدَّةٍ، ثم يَخْرُجون في الصَّبَاح، فيكبّرون اللهَ، فإذا كبّروا تصدّعتِ الأسوارُ، وهذا شَيْءٌ مُتواتِرٌ في التاريخِ عنهم، أنَّهم يُحاصِرون المدينةَ مُدَّةً، ثم إذا كبَّروا اللهَ سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ كَأنَّها صَوَارِيخ وقنابل تَصَدّع هذه الجُدران، ولكنه تكبيرٌ يَخْرُج منَ القلبِ.

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فقومُ صَالِحٍ بِغَضِّ النظَرِ عن عَقْرِ الناقةِ قدْ آمَنَ قليلٌ مِنهم باللهِ.

فإنْ قيلَ: كيف أخذت منهم أحكام المُرْتَدّ وهم أصلًا لم يُؤْمِنوا؟

قلنا: أخذ هذا من إمهالِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لهم ثلاثةَ أيام، فصار أننا نُمْهِل الكفّار ثلاثةَ أيامٍ، لكنّ الكفّارَ الأَصْليِّينَ في الشريعةِ الإسلاميَّة لهم أحكامٌ خاصَّة، كإقرارهم بالجِزْيَة مثلًا، وغيرهم ممَّن لا يقرّ على دينه وهو المرتدّ يُنْظَر ثلاثةَ أيّام، والمسألةُ خِلافيَّة، ثم إنَّ الرِّدَّة أيضًا تختلف: فمِن الرِّدَّة ما يمكِن أن يُمهَل، ومنها ما لا يمكن أن يُمهَل.

وهل كان قومُ صالحٍ كلّهم يَشربون من بِئرٍ واحدةٍ؟

نقول: لعلَّ هذه البِئر هي الصَّالحةُ في الشُّربِ، وغيرها لا تَصْلُحُ للشُّرب، المهمُّ أنَّ أصلَ شُربهم من هذهِ البئرِ، ولهذا قسّم وقتها: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، ولا مانعَ أيضًا من أنْ تكونَ هذه البِئْر تَسقي كلَّما أمكن، لكن الأقرب -والله أعلم- أنَّ البساتينَ مُنْتَشِرة فيها العيونُ، وأنَّ هذه البِئر هي الَّتي يأخذون منها ماء الشُّرب.

فإنْ سألَ سائلٌ: لماذا منع الرَّسُولُ ﷺ منَ الشُّرب من مائهم حين مَرَّ بدِيارهم؟

فالجَواب: لأنَّ استعمالَ هذا الماءِ يؤدِّي إلى النزولِ فيه والطُّمأنينة، والرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَـمَّا مرّ بها مرَّ مقنّعًا رأسَه وأسرَعَ، وقال: «**لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ**»[1]، فالمسألةُ ليستْ هيِّنَةً، والعجيبُ أنَّ كثيرًا منَ النَّاس اليومَ يذهبونَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر:٨٠]، رقم (٤٧٠٢)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين، رقم (٢٩٨٠).

إليها مَذْهَبَ الفُرْجَة والنُّزْهَة، وهذا حَرامٌ، لا يجوزُ.

ولا يُعارِضُ هذا قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم:٤٥]؛ لأنَّهم كافرونَ، أي أنّ فِعْلَهم لا يدلُّ على الجَواز.

أو يُقال: إنَّ شَرِيعَتَنَا وردتْ بخلافِ ذلكَ في التحريمِ، وأمَّا قولُ بعض النَّاس: الأَرْض كلّها لا تَخلو من أممٍ مكذِّبة، فأنا أقول: نعم، الأَرْضُ كلُّها لا تخلو من أممٍ مكذِّبة، لكن مَن قال: إن هذا المكَان المعيَّن مكَان أُمَّة مكذِّبة.

والأحقافُ في الأَصْلِ يجوزُ أن نَزُورَها؛ لأننا لا نَعْلَم مَساكِنَهم بعينها، لكن ثَمُود مساكنهم موْجودةٌ بعينها، فإذا دخلها الإِنْسانُ كَأَنَّه داخلها بذلك الوقتِ، ولهذا منعَ الرَّسُولُ ﷺ منَ الدخولِ إلَّا والإِنْسان باكٍ، فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «فَإِنْ لَـمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلاَ تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ»، لكن عندنا اليومَ يدخلون ومعهم آلاتُ التصويرِ.

فإن قيل: وهل شَدُّ الرَّحْل لِزِيَارَةِ مساكنِ ثَمُودَ محرَّم؟

قلنا: شدُّ الرَّحْل لغيرِ التعبُّد ليسَ فيه مانعٌ، فكلُّ النَّاسِ يَشُدُّون الرِّحال للتِّجارة ولغيرِ التجارةِ، لكن شَدّها للنُّزهة فهذا حرامٌ.

أمَّا أنْ يذهبَ للخُشوع والتعبُّد بتذكُّر مآلِ هؤلاءِ الجبَّارين لَـمَّا عَصَوْا أمرَ ربِّهم، فقد يُقال: إن هذا لا بأسَ به، على أنَّ المسألةَ فيها نظرٌ، فقد يُقال: إنّ الاعتبارَ بما في القُرآنِ أبلغُ بما في البُنيان، لكنَّه أهونُ منَ الَّذي يذهب للنُّزهة والفُرجة، فزيارةُ هذه المساكنِ مَشروطةٌ بأنْ يَعْتَبِرَ الإِنْسانُ.

وهل يجوزُ الشُّرب من مائهم؟

يقول العلماء: إنَّه يجوز، حتى من بِئْر الناقةِ؛ لأن المُسلمينَ كَانوا يشربونَ منها، فبئرُ الناقةِ كانتْ معروفةً في الزمنِ السابقِ، أمَّا الآنَ فلا نَدري أمعروفةٌ أم لا، وإلَّا فقد كَانتْ معروفةً في الماضي، وحَسَب كَلام الفُقهاء أنها كَانت بئرًا كبيرةً، يَرِدُها الحجّاج الَّذينَ يَقْدَمُونَ منَ الشامِ.

من فوائد ذِكر قومِ صالحٍ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: فيها دليلٌ على عدمِ البقاءِ في حالِ الرفاهيَةِ عِقابًا لَمِنِ الْتَزَمُوا شِرْكَهم، أيْ أنَّه لا يمكِن أنْ يُتركوا بدونِ رُسُلٍ وشكرٍ للنعمةِ، ويُؤْخَذُ من قولِه تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾، والمُراد بالاسْتِفهامِ هنا للنفيِ والتوبيخِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فيها دَلالةٌ على عِظَم نعمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وأنَّها تَستوجِب الشكرَ العظيمَ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وأنه هو مُعْطِي الأمان وآخِذه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ءَامِنِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عِظَم نِعمةِ الأمنِ، وهذا صَحِيحٌ، فإنَّ نِعمة الأمنِ قد تُقابِل نِعمة الشِّبَع والشُّرب والرِّيّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ النَّخيل من أطيبِ أنواعِ الفواكهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾، فهي ليِّنة وسهلة الهَضم، ووجهُه أنَّها مفضَّلة على غيرِها، وأنها تُؤْتِي أُكُلَها كلَّ حِينٍ.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: بَيان قُوَّة قومِ صالحٍ، ويُستفاد من قَوْلِهِ: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾، إذ بَلَغُوا من القوَّة أنْ كانوا يَنْحِتون بيوتهم في الجبالِ، وأيُّ قوَّةٍ بعدُ؟!

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فيه دليلٌ على دِقَّتِهم في العملِ، والحِذق في الهَندسة؛ لأن

هذا يَتطَلَّب حِذقًا، حيثُ إنه أمرٌ مُغيَّب ليسَ شيئًا أمامَك كي تَحْصُلَ على ما تريدُ، ويُؤْخَذُ من قِراءَة: (فارهين) بمَعْنى حاذِقِينَ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: يُؤْخَذ من قَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ فائدتانِ: لفظيَّة ومعنويَّة، الفائدةُ المعنويَّةُ أنَّهم لا يُشارِكُ فَسادَهم صلاحٌ، فيكون في هذا نفيُ إِثْباتٍ لكمالِ الفسادِ، والفائدةُ اللفظيَّةُ أنّ فيها طِباقًا، فهذا لا شكّ أنه من الأسلوبِ اللفظيِّ الحَسَن، مع ما فيه من معنًى.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ ما أصابهم هو نتيجةُ فَسادهم؛ كما في قولِهِ تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: فيها تَسْلِيَة لكلِّ داعيةٍ إذا دعَا إلى حقٍّ لو أُصيب بمثل هذا، فإنَّ كلَّ مُفْتَرٍ على أهلِ الحقِّ أو رافِض له فِعْلُهُ شَبيهٌ بِعَقْرِ هذه الناقةِ، ولكن الواجب على الداعيةِ أن يَصْبِرَ، وأن يقولَ: جَرَى للأنبياءِ مثلُ هذا وأشدُّ، وَهُمْ أَشْرَفُ عندَ اللهِ منِّي ما هو أَعْظَم.



الآيات (١٦٠- ١٦٤)

••෴••

❁ قالَ اللهُ عزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٦٠-١٦٤].

••෴••

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ﴾ ما ﴿أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾].

قوله تعالى: ﴿قَوْمُ لُوطٍ﴾ هؤلاءِ في قَريةٍ يُقالُ لها: (سَدُوم) من أرضِ فِلَسْطِينَ، ولوطٌ هو -كما يقول المؤرِّخون- ابنُ أخي إبراهيمَ، فيكون إبراهيمُ عمَّه، أرسلهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إلى أهلِ هذه القريةِ.

وكَانوا معَ كُفرهم باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْمَلُون عَمَلًا فاحشًا، يُعْتَبَرُ من أسفل الأعمالِ -والعياذ بالله- وقد سمّاه اللهُ تعالَى خَبيثًا في قَوْلِهِ: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾ [الأنبياء:٧٤]، فهو خَبثٌ ورِجْسٌ؛ لأنه قَبيح عَقْلًا، وفِطرةً، وشَرعًا، والَّذي يعملونه هو أنَّهم يأتون الذُّكران -والعياذُ باللهِ- كما يأتون النِّساءَ.

وهنا يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، وكل هذا تَقدَّم الكَلامُ عليه.

الآيتان (١٦٥، ١٦٦)

• • ❁ • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦].

• • ❁ • •

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ النَّاسِ، ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ أَقْبالِـهِنَّ، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ مُتَجاوِزُون الحَلالَ إِلَى الحَرَامِ].

كلُّ الرُّسُلِ يُرْسَلون أوَّلًا بتحقيقِ التوحيدِ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل:٣٦]، لكن هناك أنواع مُعَيَّنة منَ المعاصي يَرْتَكِبُها بعضُ الأممِ ويركز عليها الرُّسُل عليهم الصلاة والسلامُ، ففيها ذكر في قوم لوطٍ كَان جُرمهم هذه الفاحشة، ولهذا قال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ و هذا الاسْتِفهامُ للتوبيخِ والإنكارِ.

قَوْلُهُ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ﴾ أي: الذُّكور، جَمْع ذَكَر، ﴿مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بيان للذُّكران، أي: منَ النَّاسِ، سواء كَانوا من قَبيلتكم أو من غيرِ قَبليتكم، ولهذا لم يقلْ: «أتأتونَ الذُّكران مِنكم»، بل قال: ﴿مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ إشارةً إلى أنَّهم -والعياذُ بالله- لا يَتَحاشَوْنَ عن أحدٍ، فهم مثل الكِلابِ.

ثم معَ ذلك -زيادةً على قُبحهم- أنَّهم تَركوا النعمةَ الَّتي خَلَقَها اللهُ لـهم ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾، فلو كُنْتُم تأتونَ الذكران من العالمينَ؛ لأنكم مُضْطَرُّونَ لذلك، وليس لكم منَ الحلالِ ما يُغْنِيكم، لكَان الأمرُ أهونَ، لكن لكم منَ الحلال ما يُغنيكم، فكيف تأتونَ الخبائثَ وتَدَعُونَ الطيِّبات؟!

ولهذا قال: ﴿وَتَذَرُونَ﴾ وهي داخلةٌ في مَضمونِ الاسْتِفهامِ، يَعْنِي: وأَتَذرون، بمَعْنى: تتركون ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾، قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أقبالهن]، وهذا تفسيرٌ لِقَوْلِهِ: ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ يَعْنِي: تأتونَ الَّذي خلقَ لكم منَ الأزواجِ، وهو القُبُل، هذا ما ذهبَ إليه المُفَسِّر، والصَّوابُ خلاف هذا، والصَّوابُ أن (مِن) بيانٌ لـ(مَا) أي: ما خلقَ لكم ربُّكم منَ الأزواجِ، يَعْنِي: وتذرون الأزواجَ، هذا هو المَعْنى.

وفرْقٌ بينَ ما ذكرتُ وبينَ ما ذهبَ إليه المُفَسِّر، يَعْنِي: كأَنَّه يقول: تَذَرُونَ فُرُوجَ النِّساءِ، ولكن لو قال: (أتأتونَ أدبارَ الذُّكور) لكَان صوابًا، وتذرونَ فروجَ النِّساءِ، لكن لما قال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ﴾ صار المناسِب أنَّ المَعْنى: وتَدَعُونَ النِّساءَ.

لكن قال: ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ دونَ قَوْلِهِ: ﴿أَزْوَٰجِكُم﴾؛ إشارةً إلى أن الله تَعالَى هَيَّأَ هذه الزوجةَ للذَّكَر يَتَمَتَّع بها كما يشاءُ، إلَّا فيما حرّم اللهُ مِنَ الدُّبُر مثلًا، ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون:٥-٦]، وهذا يدلُّ على إباحةِ استمتاعِ الرَّجُلِ بامرأتِهِ إباحةً مُطْلَقَةً بلا حدودٍ، ما عدا أمرينِ: الدُّبُر، والفَرْج في الحَيْض، وما سِوَى ذلك فكلُّ شَيْءٍ مُباحٌ.

وهذا يزيدُ الأمرَ قُبحًا إلى قُبْحِهِم، حيث يَدعون الطيِّبَ ويأتونَ الخبيثَ.

وفي قَوْلِهِ: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ و﴿وَتَذَرُونَ﴾ الفائدةُ المعنويَّة الَّتي أَشرنا إليها، وهي زيادةُ القُبْح، والفائدةُ اللفظيَّة، وهي الطِّبَاق بذِكْر الأمرِ ومقابِلِهِ.

وقولُه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ اللامُ للإباحةِ أو للتعليلِ، أي: خَلَقَ لِأَجْلِكُم، أو: أباح لكم.

وقَوْلُهُ: ﴿رَبُّكُم﴾ إشارة إلى أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو المتصرِّف فيهم الَّذي يُحْيِيهِم.

وقَوْلُهُ: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾، (بَلْ) للإضرابِ، والإضرابُ هنا كأنَّه قال: لا تأتونَ الذُّكران فِطرةً ولا عَمَلًا عادِيًّا محبوبًا إلى الفِطَر، ولكن الَّذي حَمَلَكُم على هذا هو العُدوان المجرَّد -والعياذ بالله- متجاوزينَ الحلال إلى الحرامِ، فبيّن لهم لُوطٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّ ما فَعَلُوه أمرٌ مُسْتَنْكَرٌ عَقْلًا، ومستنكرٌ شَرعًا وعُرفًا؛ لأن العدوانَ لا شكّ أنّ كلّ أحدٍ يُنْكِره، وهؤُلاءِ مُعْتَدُونَ.

ومنَ الغَريبِ أنّ الفاعلَ مِنهم اليومَ قد كَانَ مَفعولًا به بالأمسِ! والمفعول به اليومَ يكونُ فاعلًا في المستقبَل! وهذا غاية ما يكونُ مِنَ العُدوان.

وسبحان اللهِ! كيف هؤُلاءِ الجماعة -نسأل الله السلامةَ- يرى الإِنْسانُ ولدَهُ أو أخاهُ الصغيرَ تُفعَل به الفاحشةُ ولا يبالي بهذا؟! والظَّاهرُ أنَّهم يَفعلونها جهرًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت:٢٩]، فهم لا يُبالُونَ -والعياذُ باللهِ- أن يَرْكَبَ بعضُهم بعضًا جِهَارًا، وهذا غايةُ ما يكون منَ السُّخْط.



الآيات (١٦٧- ١٧٥)

• • ● • •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى
لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا
عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١٦٧-١٧٥].

• • ● • •

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ﴾ عَنْ إِنْكَارِكَ عَلَيْنَا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ مِنْ بَلْدَتِنا، ﴿قَالَ﴾ لُوطٌ ﴿إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ المُبغِضِينَ، ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ مِنْ عَذابِهِم، ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا﴾ امْرَأَتَهُ ﴿فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ البَاقِينَ أَهْلَكْناها، ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ أَهْلَكْناهُمْ، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ حِجارَةً مِنْ جُمْلَةِ الإِهْلاكِ ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ مَطَرُهُمْ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾].

هذا الجَوابُ القَبيح منهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ﴾ عنِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾، وهذا أبلغُ مِن لو قالوا: (لَنُخْرِجَنَّكَ)، كأنَّهم يُهَدِّدُونَهُ بما هو أعظمُ؛ ترويعًا له، يَعْنِي: إنَّنا أَخرجنا غيرَكَ وستكونُ أنتَ من جملةِ المُخْرَجِينَ؛ لأنَّ لنا قُدْرَةً وسُلطةً على إخراجِكَ.

وفي قَوْلِهِ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ تأكيدٌ بالقَسَمِ واللامِ ونونِ التَّوكيدِ: فاللامُ في

﴿لَئِن﴾ مُوَطِّئَةٌ لِلْقَسَم، أمَّا اللام في ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ فهي واقعةٌ في جَوابِ القَسَم، والجَوابُ الموْجودُ هنا لِلْقَسَمِ، قال ابن مالك[1]:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ   جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

قالَ لهم لوطٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [المُبْغِضِين]، وهذا فيه نوعٌ مِنَ التحدِّي لـهم. يَعْنِي: إنْ أَخْرَجْتُمُونِي فأنا راضٍ بذلكَ، ولا يُهِمُّنِي إخراجي؛ لأني ﴿لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ والإِنْسانُ المبغِض لعملِ قومٍ لا يحب أنْ يَبقَى معَهم، فكَأَنَّه يقولُ: أنا لا يُهِمُّنِي إذا خرجتُ؛ لأنني لا أرغبُ بالمُقامِ معَكم وأنتم على هذا العملِ الخبيثِ الَّذي أُبْغِضُه، والإِنْسانُ أشدّ ما يكونُ عليه أنْ يَبْقَى مع قومٍ يَكْرَهُهُمْ، يقول المُتَنبِّي[2]:

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الحُرِّ أَنْ يَرَى   عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ

وهذا صَحِيحٌ، فأنْ تَبقَى معَ قومٍ تَكْرَه أفعالَهم، هذا صعبٌ على النفوسِ، فكَأَنَّه يقول: أنا أرغبُ بهذا، ومُسْتَعِدٌّ له، ولا أُبالي بإخراجِكُمْ.

وفيه دليلٌ على أنه يَجِبُ على كلِّ مؤمنٍ أنْ يُبْغِضَ عملَ هؤُلاءِ القومِ؛ لأن الرُّسُلَ يُبْغِضُونه، وهذه هي فائدةُ الجمعِ في قَوْلِهِ: ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ أي: من المُبْغِضِين له، وإنْ كَان هو ما فيه إلّا قليل منَ الَّذينَ آمنوا معه: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات:٣٥-٣٦]، يَعْنِي أنه ما آمنَ معه أحدٌ إلا أهلُ بَيْتِهِ، وليس كلّ أهلِه؛ فامرأَتُه كَانتْ من الكَافِرينَ.

---

(١) ألفية ابن مالك - عوامل الجزم، (ص:٥٩) ط. دار التعاون.

(٢) ديوانه (١/ ٣٧٥).

قوله تعالى: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قال المفسِّر: [﴿مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من عَذابِهم]، ولا شكَّ أنَّ هذا التأويلَ قاصِرٌ؛ لأن: ﴿مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي: من فِعْلِهم ومن عذابِهم أيضًا.

ولا يَمْتَنِع أن يَسألَ اللهَ تَعالَى أنْ يُنْجِيَهُ مِن هذا العملِ، وإنْ كَانَ الرُّسُل لا يُمْكِن أنْ يَعْمَلُوهَ؛ لأنَّ الصَّوابَ المقطوعَ به أنَّهم معصومونَ ممَّا يُخِلُّ بالشَّرَفِ والكرامةِ، وعملُ قومِ لوطٍ هذا يُخِلّ بالشرفِ، لكنه هو دعا لنفسِه وأهلِه: ﴿نَجِّنِي وَأَهْلِي﴾، وأهلُه ليسوا مَعصومينَ.

والصَّوابُ أنَّه سألَ اللهَ أن يُنْجِيَه من عَمَلِهم، ومن عَذَابِهم.

قال الله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ الفاءُ للتفريعِ، يَعْنِي: فتفريعًا على دعوتِه أُجيب.

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ امْرَأَتَهُ، ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾ الْبَاقِينَ أَهْلَكْنَاهَا]، وفي بعض النسخ: [أَهْلَكْنَا]، وكَأنَّه يريد أنَّ (أهلكنا) مُسَلَّطٌ على قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ يَعْنِي: إلَّا أنّا أَهْلَكْنَا ﴿عَجُوزًا﴾، و(أهلكناها) أيضًا لها مَعْنى أوضح؛ لأنه إذا قال: (الباقين أهلكنا) قد يظن الظانّ أنَّ المُرادَ أهلكَ الباقينَ. وعلى كُلِّ حالٍ استجاب الله دعوتَه، فنجّاه وأهلَه.

قَوْلُهُ: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ يدلُّ على أنَّ الأهلَ كانوا عددًا كثيرًا، والصَّحِيحُ أننا لا نَدري كم عَدَدُهم، إنَّما أهله، ولكن: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ يدلُّ على الكثرةِ؛ لأن: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ هذه جمعٌ، وأدنى ما يُقال فيه ثلاثةٌ، معَ أنَّ هذه الكلمةَ: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تدلُّ على جماعةٍ مُسْتَكْثَرَةٍ.

وقَوْلهُ: ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ -والعياذُ باللهِ- هذه المرأة عَجُوز كبيرة في السِّنِّ، وكَان الَّذي يَنْبَغي لكبيرِ السنِّ أن يكونَ مُنِيبًا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه قَريبٌ مِنَ الموتِ، وأقرب إلى الموت من الشابِّ، ولكن هي صارتْ خبيثةً -والعياذُ باللهِ- كافرةً باللهِ، لكنَّها كاتمةٌ لذلكَ، ولهذا قال اللهُ تَعالَى في سُورة التَّحريم: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم:١٠]، ليستْ خيانةَ شَهوةٍ وزِنًا، لكن خِيانة كُفْر، ولهذا قال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [التحريم:١٠]، ثم قال: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، لم تُشْعِرَاهُما بالكُفْر، فما عَلِمَا بِكُفْرِهِما.

وهي لَـمَّا كَانتْ مُؤَيِّدَةً لِفعلِ القومِ كانَ هذا إقرارًا بالكفرِ، فهي كافرةٌ ومؤيِّدة أيضًا زيادة.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الباقينَ]، والغابِرُ: يُطْلَق على مَعَانٍ، منها: الباقي، ومنها: الماضي أيضًا، فيكون مِنَ الأضدادِ؛ وهي الكَلِمات التي تَصْلُحُ للشيْءِ ولِضِدِّه.

قَوْلهُ: ﴿ثُمَّ﴾ بعدَ أنْ أَنْجَيْنَا لُوطًا وأهلَه ﴿دَمَّرْنَا ٱلْأَخَرِينَ﴾؛ لأنه بعدَ أَنْ أُمِر أنْ يسيرَ بأهله ليلًا، وأن يخرج من البلدة إلا امرأته، دمر الله هذه البلدة، يَعْنِي: فخرجَ ثمَّ دُمِّرَتْ، وقَوْلهُ: ﴿ٱلْأَخَرِينَ﴾ المُرادُ به قومُه.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أهلكناهم، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ حِجَارَةً، من جملةِ الإهلاكِ]، والظَّاهرُ لي أن قَوْلَهُ: ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ عطفُ تَفسيرٍ على قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا﴾؛ لأنَّ هذا هو الَّذي دُمِّروا بِهِ، أنَّ اللهَ أمطرَ عليهم مَطَرًا، وهذا المطر هو ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود:٨٢]، مُتَتابع، ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ [هود:٨٣]، عندَ اللهِ.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: مَطَر هؤُلاءِ القومِ، وإنَّما قال: ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾؛ لِبيانِ أنها قد قامتْ عليهم الحُجَّة ولم يُنْذَرُوا بالعذابِ إلَّا بعدَ أنْ أعذرَ مِنهم.

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ في هذه الآيةِ وغيرِها منَ الآياتِ ما يدلُّ على أنَّ قومَ لُوطٍ أُهلِكوا بهذه الحِجارةِ: بالتدميرِ بالحجارةِ وليسَ بالقلبِ كما هو مشهورٌ عندَ أهلِ العِلْمِ وكثيرٍ من المُفَسِّرينَ، أنَّ بلادهم حُملتْ إلى عَنانِ السَّماء ثم قُلِبت، فهذا ليسَ في القُرآنِ ما يدلُّ عليه، والَّذي في القُرآنِ قَوْلُهُ: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر:٧٤]، وجَعْلُ العالي سافلًا يكونُ بغيرِ القلبِ؛ فإنَّ هذه الحجارةَ إذا نزَلتْ على المنازلِ وهَدَّمَتْهَا صار العالي منَ المنازلِ سَافلًا، ثم إنها إذا قُلبتْ -مثلًا- وصارَ النَّاسُ في باطنِ الأَرْضِ، فليسَ للحِجارة حِينَئذٍ قيمة.

والمهمُّ أَنَّه ليس في الأمرِ عنِ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما يدلُّ على أنَّ أرضَهم حُملتْ فقُلبتْ، وما دام أَنَّه ليسَ في الأمرِ ما يدلُّ على ذلكَ، فالأَولى أنْ يُقال: إنَّهم دُمِّروا بهذه الحجارةِ.

ويُستفاد من قِصَّة لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: الدُّعاءُ إلى توحيدِ اللهِ والأمر بِتَقْوَاهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الإخلاصُ في الدَّعوة إلى اللهِ تعالى، وأَنَّه لا يَنْبَغي للدَّاعي أنْ يأخذَ على دَعْوَتِهِ أَجْرًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ مِن بني آدمَ مَن تُقلَب طَبِيعَتُه وتُصْرَف حتى يَسْتَحْسِنَ الخبيثَ؛ لأنَّ هؤُلاءِ هذا حالُهم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: زيادةُ الإنكارِ فيما إذا كَان للإِنْسانِ مَنْدُوحَةٌ عنِ الحرامِ، لِقَوْلهِ: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: جوازُ الاستمتاعِ بالزوجةِ استمتاعًا مُطْلَقًا؛ لقَوْلهِ: ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ مَن تجاوزَ الحلالَ إلى الحرامِ، فهو عادٍ ظالـمٌ لنفسِهِ ولغيرِه؛ لقَوْلهِ: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: في الآيات دليلٌ على أنَّ المعانِدِينَ لِلرُّسُل إنَّما يَلْجَئُون إلى قُوَّتِهم وسُلْطَتِهِم، لا إلى العقلِ والإقناعِ، قالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء:١٦٧]، وقال ذلكَ قومُ نوحٍ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء:١١٦]، لكنَّه عذابٌ آخرُ، وكذلك أيضًا قالَهُ فِرعون لِموسى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩]، وقالَه آزرُ لابنِه إبراهيمَ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم:٤٦].

كلُّ هذا ممَّا يدلُّ على أنَّ هؤُلاءِ الَّذينَ يُهَدِّدُونَ بالسُّلطة لا بالإقناعِ والعقلِ، هؤُلاءِ لا حُجَّةَ لهم.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّه يَجِبُ على الإِنْسانِ أن يُبغِضَ ما أبغضَهُ اللهُ؛ لأنَّ هذه طريقةُ الرُّسُلِ؛ قال: ﴿إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ [الشعراء:١٦٨].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنه لا غِنى لأحدٍ عن دعاءِ اللهِ: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:١٦٩]، وأمَّا قولُ بعضِ العارِفِينَ الجاهلينَ: «عِلْمُهُ بِحالي يُغْنِي عن سُؤَالي»[1]،

(١) يُروى عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما ألقي في النار، انظر تفسير البغوي (٥/ ٣٢٧)، وانظر تنزيه

فهذا قولٌ باطلٌ، فالله يعلمُ بحالِ كلِّ أحدٍ، ومع ذلك ما زالتِ الرُّسُلُ وأَتْبَاعُهم يَدْعُون اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: وُجودُ الربِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقَوْله: ﴿رَبِّ نَجِّنِى﴾ [الشعراء:١٦٩]، وقَوْلِه: ﴿فَنَجَّيْنَهُ﴾ [الشعراء:١٧٠]، وهذا دليلٌ حِسِّيٌّ ظاهرٌ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إجابةُ اللهِ للدُّعاء، وهذه الإجابةُ تَتَضَمَّن عِدَّةَ صفاتٍ، فتتضمَّن العِلْمَ، والقُدْرَة، والرَّحمة.

الْفَائِدَةُ الثَّانيةَ عَشْرَةَ: في الآيَات دليلٌ على أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُنْقِذ أهلَ الحقِّ من إهلاكِ الكَافِرينَ، ويُهْلِك الكَافِرينَ ولو كَانوا في أحضانِ أهلِ الحقِّ؛ لأنَّ اللهَ أنجَى لُوطًا، وأهلكَ امرأتَه، وهي في أحضانِهِمْ، وهذا هو السرُّ في قَوْلِهِ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات:٣٥-٣٦]، فالتعبيرُ القُرآنيُّ أنَّ المُؤمِنينَ نَجوْا، لكن البيت المُسْلِم ما نَجا كله، فالمرأةُ الَّتي كَانتْ تَتظاهَرُ بالدِّين وهي مسلمةٌ ظاهرًا؛ ما نَجتْ، ولهذا قال: ﴿غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، فهذا البيت أهلُه مُسْلِمُونَ، لكن ليسَ كلّهم مُؤمِنينَ، بل فيهم هذه المرأةُ العَجُوز كَانت كافرةً، وليسَ في الآيةِ دليلٌ -كما يقول بعضُ النَّاسِ- على أنَّ الإيمانَ هو الإسلامُ؛ لأن فَرْقًا بينَ هذا وهذا.

الْفَائِدَةُ الثَّالثةَ عَشْرَةَ: أنَّ القُربَ من الأَنْبياء والأولياءِ لا يُغْنِي الإِنْسانَ شيئًا، لأنَّ هذه زوجة نبيٍّ، ومعَ ذلك هَلَكَتْ معَ مَن هلكَ، فكونُ الإِنْسانِ قَريبًا من إِنْسانٍ وليٍّ للهِ لا يُفِيدُه شيئًا، فأبو لَهَبٍ عمُّ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ومعَ ذلك ما نزلَ

= الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة (١/ ٢٥٠). وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: ليس له إسناد معروف وهو باطل. مجموع الفتاوى (١/ ١٨٣).

مِنَ القُرآنِ في أحدٍ مُعيَّن منَ الكفَّار سِوَى أبي لَهَبٍ عمّ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وما نزلَ القُرآنُ في تَسْمِيَةِ شخصٍ بعينِه منَ المسلمينَ إلَّا في زَيْدِ بنِ حَارِثَةَ، مَوْلًى منَ الموالي، من أبعد ما يكون عنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وبهذا يَتبيَّن أنَّ قُرب النسَبِ وقرب المصاهرةِ وغيره لا يُغني عنِ الإِنْسان شيئًا.

وتأمَّل ما نزل في سُورَةِ التحريمِ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [التحريم:١٠]؛ لأنَّ عائشةَ وحَفْصَةَ اللَّتَيْنِ تَظَاهَرَتَا على النَّبيِّ ﷺ قد يَغْتَرَّانِ بِقُربهما إلى النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيَعْمَلَانِ ما عَمِلاه، وبيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّه لا تَنْفعُهما صِلَتُهما بالنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ عُقوبة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَتَنوَّع حَسَبَ العملِ؛ لأن هنا تُمْطِر مطرًا حتى هَدَّمَتْ مَنازِلَهم، وصار عاليها سافلها، ثم خُسِف بها فيما بعدُ، ولذلكَ الآن هي بُحيرة اسمها (بُحيرة لُوط) معروفة، وهي البحر الميِّتُ؛ وسُمِّيَتِ البحرَ الميِّتَ لأنه غيرُ مُتَّصِل بالبِحار، ويقولون أيضًا: إنه لا يعيشُ فيه السمكُ والحوتُ بمثل ما يعيشُ فيه غيرُه، فهو فيه سمكٌ لكنه ليسَ مثلَ غيرِه؛ لأنه ليسَ مُتَّصِلًا بالبحارِ العميقةِ، فلا يكون فيه ذلك الشيْءُ الكثيرُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: استدلَّ بعضُ العُلَماءِ -أخذًا من هذه القصّة- أنَّ اللُّوطِيَّ يُقتَل بأنْ يُرمَى بالحجارةِ حتى يموتَ؛ قياسًا على رَمْيِ اللهِ تَعالَى لهؤُلاءِ بالحجارةِ.

وهذه المسألة فيها خلافٌ:

فالقولُ الأوَّل: أنَّ اللُّوطيّ لا يُتعرّض له ولا يُقال له شيْءٌ.

والقول الثَّاني: أَنَّه يُعَزَّر بالضربِ والحَبْس، وما أشبهَ ذلك.

والقولُ الثالثُ: أنه كالزاني: إنْ كَان مُحْصَنًا رُجِمَ، وإنْ كَان غيرَ مُحْصَنٍ جُلِدَ وغُرِّبَ.

والقولُ الرابعُ: أنه يُقْتَل بكُلِّ حالٍ، سواء كَان مُحْصَنًا أم غيرَ مُحْصَنٍ، ولكن اختَلفوا في كيفيَّة قَتلِه، فقيل: بالرَّجْم، وقيل: بالسَّيف، وقيل: بالتَّحْرِيق، وقيل: بإلقائه منَ الشاهِق وإتباعه بالحِجارة، وهذا القولُ هو الَّذي اتَّفَقَ عليه الصحابة أنه يُقْتَل.

وهذا القولُ هو الصَّحِيح المتعيَّن، أنه يُقتل بكُلِّ حالٍ؛ فاعلًا كَان أمْ مفعولًا به، إذا كَان بالغًا عاقلًا؛ لأنَّ هذا ليسَ كالزِّنا، بل أشدّ وأعظم، ولأنه أمرٌ لا يُمْكِن التحرُّزُ منه، بخلافِ الزِّنا، فالزنا يمكن التحرُّز منه، لكن هذا لا يُمْكِن؛ فإنَّه لو أنَّ خبيثًا أمسكَ بيَدِ أمردَ لا أحدَ يقولُ: ما الأمردُ هذا؟ ولماذا تُمْسِك يدَه؟ وما أشبهَ ذلك، فهو أمرٌ لا يُتَحَرَّز منه، فيأتي في نوادي الرِّجال وغيرها.

وقد ذَكَرَ شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ الصَّحَابَة أجمعوا على قَتْلِه[1].

أمّا مَن قال: إنه لا يُتَعَرَّض له، فحُجَّتُه أنَّ هذا ممَّا تَنْفِرُ عنه الطِّباع، وما تنفر عنه الطباعُ يُكتَفَى بالرَّدْع الطبيعيّ، كما أنَّ شاربَ البَوْلِ لا يُتعرّض له، وشارب الخَمْر يُجْلَد؛ لأن الخمرَ تَدْعُو النَّفسُ إليه، وهذا لا تَدعو النفوس إليه.

ولكن هذا قولٌ باطلٌ مِن وجوهٍ:

أوَّلًا: فإن قولَـهم: «إنها لا تدعو النفوسُ إليه» هذا صَحِيحٌ لكن النفوس

---

(١) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ٣٣٤).

السَّليمة بلا شَكّ هي التي لا تَدعو إليه، وتَسْتَهْجِنه وتَسْتَقْبِحه، لكن النفوس الخَبيثة تَهواه أكثر مِنَ النِّساء، فيَهْجُرُونَ نِساءَهم في فُرُشِهِنَّ، ويَذْهَبُونَ إلى فِعْل هذه الفاحشةِ!

ثانيًا: قولهم: «إنَّ البولَ لا يُعَزَّر على شُربه، ويُكتفى برادعٍ طبيعيّ»، هذا باطلٌ أيضًا، بل يجبُ أنْ يُعَزَّرَ على فِعله، ومَن رأيناهُ يَشرب بولًا يجبُ أن نُعَزِّرَهُ؛ لأنه فعَلَ محرَّمًا، والتعزيرُ واجبٌ لكلِّ مَعْصِيَةٍ لا حدَّ فيها ولا كفَّارة، فالصَّوابُ أنه يُقْتَل في كُلِّ حالٍ. واللهُ المستعانُ.

فإنْ قيلَ: كيف أجازَ الصَّحابة تَحْرِيقَه، وقد وردَ النهيُ عنِ التعذيبِ بالنارِ في قولِهِ ﷺ: «**لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ**»(١)؟

قلنا: كَأَنَّهم رَأَوُا ذلك لِعِظَم هذا الفِعل، وأنّ المقصودَ بتعذيبِ النارِ في الأمورِ الَّتي دونَ هذا، وإلَّا فقد وقعَ ذلك من أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢)، وعليّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومن هشام بن عبدِ المَلِكِ بنِ مَرْوانَ، ثلاثة مِنَ الخُلَفاء كلّهم اتَّفقُوا عليه.

والراجِحُ أنَّ حَدَّه القتلُ في كُلِّ حالٍ، يَعْنِي: لو يَتَلَوَّط مَن له سبعَ عشْرةَ سنةً بِمَن له ستَّ عشْرةَ سنةً، قُتِلَا جميعًا، وإن كَانا غيرَ مُحْصَنَيْنِ، أو كانا مُحْصَنَيْنِ.

وقد وردَ في مواطنَ أُخرَى منَ القُرآنِ الكريمِ أنَّ لُوطا عَلَيْهِ السَّلَامُ قالَ لقومِه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الحجر:٧١]، يَعْنِي: تَزَوَّجُوهُنَّ.

وبعضُ المُفَسِّرين قالُوا: ﴿بَنَاتِىٓ﴾ يَعْنِي: بنات الأُمَّة؛ لأن الرَّسُولَ أبٌ لِقَوْمِه،

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار، رقم (٢٦٧٥).

(٢) ذم اللواط للآجري (ص:٥٨).

فيكنّ له بِمَنْزِلَة بناتِه. والَّذي دعاهم إلى هذا أَنَّهم قالُوا: إن بناتِه مسلمات مُؤْمِنات، وهؤُلاءِ كفَّار، والكافرُ لا يتزوَّج بالمؤمنةِ.

فيُقال: الجَواب عن هذا: إمَّا أنَّ شَريعتهم تُبيح ذلك، أو أنَّ مَعْنَى: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ يَعْنِي: فأَسْلِمُوا وتَزَوَّجُوهُنَّ.

وهذا في الحَقِيقَةِ كَأَنَّه يقول: أنا أُحَافِظ على ضيوفي أكثر ممَّا أحافظ على أيّ شيْءٍ آخرَ، يَعْنِي: فإني أَحْمِيهم حتى إني أَتَنَازَلُ عن بناتي وتتزوجوهنّ؛ من أجل المحافظةِ على هؤُلاءِ المسلمينَ.



الآيات (١٧٦- ١٨٠)

* * *

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٧٦-١٨٠].

* * *

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ وَفِي قِراءَةٍ بِحَذْفِ الهَمْزَةِ وَإِلْقَاءِ حَرَكَتِهَا عَلَى اللَّامِ وَفَتْحِ الـهَاءِ[1]، هِيَ غيضَةُ شَجَرٍ قُرْبَ مَدْيَنَ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾، لَـمْ يَقُلْ لَـهُمْ: أَخُوهُمْ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ﴾ مَا ﴿أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾].

قوله: ﴿لْـَٔيْكَةِ﴾، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي قِـراءَةٍ بحذفِ الـهمزةِ وإلقاءِ حَرَكَتها على اللَّام وفتحِ الـهاءِ]: (لَيْكَةَ)، هذه هي القِراءَةُ الثَّانيةُ، وعلى قِراءَةِ الهمزةِ إنَّما كُسِرَتِ الهاءُ لأجلِ (أل) التعريفِ؛ فإنَّ القِراءَةَ الثَّانيةَ الَّتي أشارَ إليها بالتفسير: (كذب أصحاب لَيْكَةَ) حُذِفَتِ الهمزةُ معَ (أل) المعرفة، وعلى هذا تكون ممنوعةً منَ الصرفِ؛ لأنه لم يوجدْ فيها (ألِ) الَّتي تحوِّل غيرَ المصروفِ إلى مُنْصَرِفٍ.

---

(١) حجة القراءات (ص:٥١٩).

وما هي الأيكةُ؟

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هِيَ غيضَةُ شَجَرٍ قُرْبَ مَدْيَنَ]، أي أَرْض مَمْلُوءَة بالشجرِ، والغالبُ أنْ تكونَ هذه الأشجار المُلْتَفَّة بعضها على بعض.

و(مَدْيَن) يَظْهَر أنَّه في طُور سِيناء، من قِصَّة مُوسى.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لم يقلْ: أخوهم؛ لأنه لم يكن منهم]، بينما قالَ في غيرِه ممَّا مَضَى مِنَ القَصَصِ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف:٨٥]، فتبيَّن بهذا أن أصحابَ الأيكةِ لَيْسُوا أهلَ مَدْيَنَ.

ولهذا قال المُفسِّر: [قُرب مَدْيَن]، وليسوا منَ القريةِ الَّتي بُعِث فيها شُعَيْب؛ لأنَّ أهلَ القريةِ الَّتي بُعِثَ فيها مَدْين مِن قَبيلته، ولهذا لـمَّا ذكرَ مَدْيَنَ قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، وأمَّا هنا فقال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقلْ: أَخوهم.

وممّا يدلُّ على أنَّهم ليسوا أصحابَ مَدْيَنَ، أنَّ العذابَ الَّذي أُخِذوا به غيرُ العذابِ الَّذي أُخِذَ به أصحابُ مَدْيَنَ، فأصحابُ مَدْيَنَ أُخِذوا بالصَّيْحَة، وهؤُلاءِ أُخِذُوا بعذابِ الظُّلَّة، كما سيأتي إن شاء الله.

وهل مَعْنى هذا أنَّ شُعيبًا أُرسلَ مرّتينِ؟

الجَواب: لا، بل أُرسل مرَّةً واحدةً، لكن إلى قومينِ؛ إلى هؤُلاءِ وهؤُلاءِ، ويجوزُ أن يكونَ هذا من بابِ التبع، يَعْنِي: هذه القرية صغيرةً مثلًا، وكَانت تابعةً لبلدتِهِ، ويدلُّك على هذا أن عَمَلَهم واحد؛ عمل هؤُلاءِ، وعمل أهل مَدْيَنَ.

قَوْلُهُ: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، هذا المَعْنى عامّ لكلِّ الرُّسُل، فالذّنبُ الخاصُّ لهؤُلاءِ كما سيأتي: [﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أَتِمُّوه ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ [الشعراء:١٨١]، الناقِصِينَ].



الآيات (١٨١- ١٨٤)

• • ● • •

۞ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٨١-١٨٤].

• • ● • •

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ أَتِمُّوهُ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ النَّاقِصِينَ، ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ المِيزَان السَّوِيِّ، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ لَا تَنْقُصُوهُمْ مِنْ حَقِّهِمْ شَيْئًا ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بِالْقَتْلِ وَغَيْرِهِ مِنْ (عَثِيَ) بِكَسْرِ المُثَلَّثَة: أَفْسَدَ، و(مُفْسِدِينَ) حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ لِمَعْنَى عَامِلها، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ﴾ الخَلِيقَةَ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾].

هؤُلاءِ القومُ الَّذينَ بُعث إليهم شُعيب، سواء كَانوا قومَه أو أهلَ هذه القريةِ، كَانوا يَبْخَسُون المِكيال والميزان -والعياذُ باللهِ- فإذا وَزَنُوا للناسِ نَقَصُوه، وإذا اتَّزَنُوا منهم اسْتَوْفَوْهُ، هذا الظاهِرُ، ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين:١-٣]، وقال هنا: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ وبينهما مُقابَلَةٌ؛ لأجل ألَّا يُقالَ: إن مَن أوفَى في أكثر الأعمال يكونُ مُوفِيًا، مِثل قَوْله: ﴿ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء:١٥٢].

فـ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ يَعْنِي: في كلّ فَرْد من أفرادِ معاملاتكم، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ أي: من المتَّصِفين بالإقساط، والإقساطُ بمَعْنى النَّقْص.

قولُه تعالى: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ هذا الوزنُ، والفرقُ بين الوزنِ وبين الكيلِ: أنَّ ما قُدِّر بالحَجْم فهو كيْل، لأنَّ المكيالَ تَضَع فيه الشيْء فيكون حَجْمُه هكذا، وأمَّا ما يُقَدَّر بالثّقل فيُسمى وَزْنًا، وقَوْلُهُ: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ يقول المُفسِّر: [المِيزان السَّوِيّ]، فَعَلى هذا القِسطاس بمَعْنى: المِيزان، والمستقيم بمَعْنى: السَّوِيّ.

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ قال: [لا تَنْقُصُوهم من حَقِّهم شيئًا]، هذا عامٌّ حتى فيما يُزرَع، وفيما يُعَدُّ.

مثل هؤُلاءِ القوم ذَنْبُهم الخاصّ الَّذي بُعِث هذا الرَّسُولُ لإصلاحِه، مع عِبادَة اللهِ، هو بَخْسُ النَّاسِ في الكيلِ والميزان وغيرهما، ولهذا عَمَّمَ: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ لا تَنْقُصُوهم حُقُوقَهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالقتلِ وغيرِه]، ولم نعرِفْ أن هؤُلاءِ القوم -أي: قوم شُعَيْب- كَانوا يَقْتُلون النَّاسَ، بل المعروف من ذَنْبهم أنَّهم كَانوا يَبْخَسُون النَّاسَ أشياءَهم، فيمكِن أن يكونَ المقصودُ هو الإفسادَ بالقتلِ أو غيره. إنَّما الإيعاد سواء بالحَبْس أو بالضربِ أو بغيرهما، فهو من الفسادِ، ومن الفسادِ أيضًا نقصُ النَّاسِ أشياءَهم.

وقَوْلُهُ: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حالٌ مؤكِّدة؛ لأن العُثُوَّ هو الفسادُ، كما لو قلتَ: «لا تَقُمْ قائمًا»؛ فإنَّ قائمًا حالٌ مؤكِّدَةٌ لقَوْلكَ: «لا تَقُمْ».

قَوْلُهُ: [﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ﴾: الخَلِيقَة ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾]، ذَكَرَهُم الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالذي خَلَقَهُم، وخَلَقَ الخَلْقَ الأوَّلَ أيضًا، إشارة إلى أنَّكم سَتَزُولُون كما زالَ مَن قبلَكم، فأنتم مَخْلُوقُونَ مِنَ العَدَمِ، وتعودونَ إلى العَدَمِ.



الآيات (١٨٥- ١٩١)

• • ● • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١٨٥-١٩١].

• • ● • •

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن﴾ مُخَفَّفَة مِنَ الثَّقِيلَة، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيْ إِنَّهُ ﴿نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا﴾ بِسُكُونِ السِّين وَفَتْحِهَا(١): قِطَعًا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فِي رِسالتك، ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ هِيَ سَحَابَة أَظَلَّتْهُمْ بَعْد حَرٍّ شَدِيدٍ أَصَابَهُمْ فَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ نارًا فاحترقوا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾].

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ مثل جَواب قومِ صالحٍ.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ مثلهم تمامًا، فالجَوابُ واحدٌ، و(إِنْ) مخفَّفة منَ الثقيلة، واسمها محذوفٌ، أي: إنه -أي: الشأن- ﴿نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

---

(١) حجرة القراءات (ص:٥٢٠).

والدَّليلُ على أنها مخفَّفة ليستْ نافيةً: أمرانِ:

الأمر الأوَّلُ: لَفظيّ، وهو اللامُ؛ لأن اللامَ لا تَقْتَرِن إلَّا في خبرِ (إنْ) المخفَّفة.

والأمر الثَّاني: المَعْنى: فلو قال قائل: إنّ (إنْ) نافية، قلنا: ليس كذلك؛ لأنَّهم لو قالُوا: ما نَظُنُّكَ مِنَ الكاذبينَ، لكَانوا مُصدِّقينَ به، والأمرُ ليس كذلكَ، بل هم يريدونَ: إننا نظنُّك منَ الكاذبينَ، وهذا الظنُّ حَسَب اعتقادهم إنْ كَانوا جاهلينَ بالأمرِ، أو حسب عِنَادِهِم إنْ كَانوا عالِـمينَ وكاتمينَ، مثل قول فِرعونَ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر:٣٧]، وهو يعلمُ أنه صادقٌ.

قَوْلهُ: [﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾ بسكون السين وفتحها: قِطَعًا: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في رسالتك]، أعوذ بالله! هؤُلاءِ أخبثُ من قومِ صالحٍ؛ لأن أولئك قالُوا: ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ﴾ [الشعراء:١٥٤]، لكن هؤُلاءِ قالُوا: إنْ كنتَ صادِقًا بما تُوعِدُنا به فَأْتِ بالعذابِ: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، كقولِ قريشٍ للرسولِ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حين قالُوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]، وهذا من سَفَاهَتِهِمْ، وكَان الواجب أنْ يقولوا: اللَّهمَّ إنْ كَان هذا هو الحقَّ مِن عندِكَ، فاهْدِنا إليه ووَفِّقْنا.

وما فعله أصحابُ الأيكةِ في تكذيبهم لِشُعَيْبٍ هو ما فَعَلَهُ غيرُهم من أقوامِ الأَنْبياءِ، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [الأنعام:١٤٨]، وهذا التشابهُ تشابهٌ في القلوبِ والأفعالِ.

قوله تعالى: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، (إِنْ) شرطيَّة، والغَرَضُ منها التحدِّي.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فيجازيكم به]، يَعْنِي: أنتم فعلتُم كلَّ قبيحٍ، وقابلتموني بكلِّ إثمٍ صَريحٍ، ولكن الَّذي يَعْلَم ذلك هو اللهُ، وهو يُهَدِّدُهُمْ بلازِمِ العِلْمِ. ولهذا قال المُفسِّر: [فيجازيكم به].

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ قال المُفسِّر: [هي سَحابةٌ أظَلَّتْهُم بعدَ حرٍّ شديدٍ أصابَهم، فأمطرتْ عليهم نارًا، فاحْتَرَقُوا، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾]، فهم -والعياذُ باللهِ- أُصيبوا بحرٍّ شديدٍ عظيمٍ جدًّا ما أطاقوهُ، فأنشأ اللهُ السَّحابة تُظِلُّهُمْ، فخرجوا من بلادهم عن بَكْرَةِ أَبيهم إلى هذا الظلِّ.

ولكن -والعياذُ باللهِ- لَـمَّا وَصَلُوا وإذَا هي نارٌ -والعياذ بالله- أَحْرَقَتْهُمْ عن آخِرِهِم، وهذا من أشدّ ما يكون -والعياذُ باللهِ- منَ العذابِ؛ لأنَّهم جاءُوا هاربينَ من عذابٍ، فوَقَعُوا في أشدّ منه -والعياذُ باللهِ- فكَانوا حينما أقبلوا يظنُّون أنَّهم نَجَوْا من الحرِّ بهذه الظِّلال، ولكنه -والعياذ بالله- صارَ حَتْفَهم: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾.

ولهذا وصف الله عَزَّوَجَلَّ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: هذا العذاب ﴿كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ فصدقَ اللهُ.

وهذه القَصَص عِبَرٌ في الحَقِيقَةِ، يَعْتَبِر بها الإِنْسانُ من عدَّة نواحٍ.

أولًا: يَعْلَم بها صبرَ الرُّسُلِ -عليهم الصلاةُ والسلامُ- وجَلَدَهُم، وإخلاصَهم للهِ، وأنَّهم لا يُبالون بما نالَـهُمْ في ذاتِ اللهِ.

ثانيًا: يُعتبر بها في التَّسَلِّي بما أصابَ الرُّسُلَ؛ لأن الإِنسانَ يتسلَّى بما أصاب غيرَه، بأنْ يَصبِرَ هو على الدعوةِ إلى اللهِ، ولا يَمَلّ ولا يكِلّ؛ لأن العاقبةَ تكونُ

للصابرينَ والداعينَ إلى اللهِ، فكلُّ العواقب الَّتي رأيناها في القَصَصِ للرسُلِ عليهم الصلاة والسلامُ.

ثالثًا: إن فيها عِبْرة تحذِّر المخالفينَ للرسُلِ، فإنّ كلّ المخالِفينَ للرسلِ -كما رأيتم كلهم- عُوقِبوا، وأَخَذَهُمُ العذابُ.

رابعًا: بيان قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ حيثُ يَنزِل العذاب، فينجو منه مَن يَنجو، ويَهلِك به مَن هَلَكَ، وأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على كلِّ شَيْء قديرٌ: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر:٦١].

خامسًا: إن الإِنْسان يَتَعَجَّب كيف يصل بنو آدمَ إلى هذا العُتُوّ والعنادِ والاستكبارِ.

سادسًا: إنك تَقيس حاضِرَكَ بغائبكَ، فإِنَّه يوجد الآنَ أمثال هؤُلاءِ؛ لأن طبيعةَ البشرِ واحدةٌ من آدمَ إلى اليومِ، فيوجد مِن هؤُلاءِ وإنِ اختلفَ الأسلوبُ، فالأسلوبُ قد يَختلف، لكن المَعْنى واحدٌ: العُتُوّ والاستكبارُ.

فيوجَدُ الآنَ مِن بَنِيَ آدمَ مَن يقولُ: إنَّ الدِّين خُرافة!

ويوجَد من بني آدمَ مَن يقولُ: إنَّ الله يَجِبُ أنْ يُوضَعَ في قَفَصِ الاتِّهام! لأَنَّه لماذا يُشْبع هذا، ويُجُوعُ هذا؟! ولماذا يؤَمِّن هذا ويُخوِّف هذا! وهذا يَصِحّ وهذا يَمْرَض؟ والعياذ بالله.

فهذه الأشياءُ يجب أن تَعْتَبِر بها، وأنه ما سبقَ قبل زمانِكَ وُجِد مثلُه في زمانِكَ، والعِظَة من هذا كَثِيرَة.

ولوْ أنَّ الإِنْسانَ كَتَبَ هذه العِبَرَ لكان أفضل، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي

قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١]؛ لأنك كلما استنتجتَ عبرةً ازددتَ عقلًا؛ لأنّ الله جعل العِبَرَ لِأَولي الألبابِ، فكلّما كَان اللُّبُّ أقوى كَانتِ العبرةُ الَّتي تؤخَذ من هذا أكثرَ.

وفي سُورةِ هُودِ الكثيرُ مِن قصصِ الأَنبياءِ، وذَكَرَ اللهُ في آخِرها: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:١٢٠].

ويُستفاد من قِصَّة شُعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: بَيان ما قابَلَ الرُّسُل من صَبرهم، وجلدهم، وتحملهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بلاغةُ شُعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حتى كأَنَّه خَطيب الأَنبياء، لكن لا نقدِر أن نقولَ: إنه خَطيب الأَنبياءِ، فقد يكون منَ الأَنبِياء من هو أخطبُ منه.



الآيات (١٩٢- ١٩٦)

• • ๑ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٦].

• • ๑ • •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أَيِ الْقُرْآنَ ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ جِبْرِيلُ، ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ بَيِّنٍ وَفِي قِرَاءَة بِتَشْدِيدِ «نَزَّلَ» وَنَصْب «الرُّوحَ» وَالْفَاعِل اللهُ[1]، ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ ذِكْرَ الْقُرْآنِ الْمُنَزَّل عَلَى مُحَمَّد ﴿لَفِى زُبُرِ﴾ كُتُبِ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، الضَّميرُ في قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعودُ إلى القُرآنِ -كما قال المُفَسِّر- وإنْ لم يَسْبِقْ له ذِكْرٌ، لكن يعيِّنه السياقُ، ومَرجِع الضَّمير -كما هو معروف- قد يكونُ مَشهورًا وقد يكون مَعلومًا، والمذكور قد يَتَقَدَّم وقد يتأخَّر، إلّا أنه من القواعدِ المقرَّرة أنه لا يعودُ الضَّميرُ على متأخِّر لَفظًا ورُتبةً، إلَّا في مَسائِل معيَّنة.

قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ اللامُ للتَّوكيدِ، فيكونُ هذا الخبرُ مؤكَّدًا بأداتينِ، وهما: (إنّ) و(اللام).

---

(١) حجة القراءات (ص:٥٢١).

و(تَنْزِيل) مصدر، لكنَّه بمَعْنى اسم المفعولِ، أي: لمُنَزَّل؛ لأن القُرآنَ نفسَه ليسَ تَنزيلًا، بل التنزيل فِعل الله، والقُرآنُ عِبارة عن شَيْء منزَّل، كما قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الفرقان:١].

وقَوْلهُ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه الربوبيَّة العامَّة إشارة إلى أنه مِن مُقتضى ربوبيَّته أن يكون منزِّلًا لعبادِهِ هذا الكتابَ المفيدَ لهم.

ويشير أيضًا إلى عُمومِ شريعةِ هذا الكتابِ، كما عمّت ربوبيّة منزلِهِ، فهو أيضًا عامٌّ في التشريع.

قولُه تعالى: ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ هو جِبريلُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقد وُصِف بالرُّوح لأنه يَنزِل بما فيه الحياةُ، وهو الوحيُ الَّذي به حياةُ القلوبِ، ووُصِف بالأمانةِ لأن المَقامَ يَقتضيه، وأمانة جبريلَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من عِدَّة أوجهٍ بالنِّسبة للقرآنِ:

أولًا: أمينٌ بحيثُ لا يَنزِل به إلا على مَن أُمِرَ به، وعلى هذا فيكونُ قولُ الرافضةِ -قبَّحهم الله-: إن جِبريلَ أُمر أنْ يَنزل بالقُرآنِ على عليٍّ، ولكنه خانَ فنزَل به على مُحمَّدٍ ﷺ منافيًا لوصفِ جبريلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالأمانةِ.

ثانيًا: مُقتضَى الأمانةِ أنْ يَنزلَ به كما سمِعه منَ اللهِ؛ لا يزيدُ فيه ولا يَنْقُصُ، ولا يُقدِّم ولا يؤخِّر.

ثالثًا: أن ينزلَ به في الوقتِ الَّذي أُمرَ بإنزالِهِ فيه، فلا يتأخَّر إذا أوحي إليه به إلَّا بإذنِ اللهِ.

فهذه الأوصافُ الثلاثةُ مِن مُقتضَى أمانةِ جِبريلَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وقَوْلهُ: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ خصَّ القلبَ؛ لأنه محَلّ الوعيِ، وفيه دليلٌ على عِنايةِ اللهِ

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالقُرآنِ، وعلى كمالِ حِفظ الرَّسُولِ له ﷺ؛ لأنَّ ما نزَلَ على القلبِ يَثْبُتُ ويَرْسَخُ، بخِلافِ ما سمِعتْه الأُذُنُ، فإنّ الأذنَ قد تُوصِل إلى القلبِ وقد لا تُوصِل، فقد يكون قلبُه غافلًا، ولكن هنا كَان على القلبِ.

وقَوْلُهُ: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ اللامُ هنا للتعليلِ وللعاقبةِ معًا، فهما متلازِمانِ، فإذا قلنا: للتعليلِ، صار مكلَّفًا بذلكَ، وإذا كَانتْ في العاقبةِ كَانتْ عاقبتُه أن يكونَ مُنْذِرًا، وإنْ لم يكنْ هناك تَكليف، ولكن الصَّحِيح أنها شاملةٌ للأمرينِ.

وقَوْلُهُ: ﴿مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ أي: الرُّسُل، كما قال الله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النِّساء:١٦٥].

وقَوْلُهُ: ﴿بِلِسَانٍ﴾ بلغةٍ، وأطلقَ اللِّسان على اللُّغةِ؛ لأنه محَلّ الكَلامِ الَّذي هو عنوانُ اللُّغةِ.

وقَوْلُهُ: ﴿عَرَبِيٍّ﴾ نِسبةً إلى العربِ؛ وذلك لأنَّ النَّبيّ ﷺ كَان عربيًّا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤].

وفي هذا إشارةٌ إلى أنه يَنْبَغي أن تكونَ اللُّغةُ العربيّة لغةَ جميعِ الخلقِ؛ لأن الشرْعَ الَّذي نزلَ بها شرعُ جميعِ الخلقِ، فكَان يَنْبَغي أنْ تكونَ اللُّغةُ العربيّة لغةَ جميعِ الخلقِ، خلافًا لمن يريدونَ أن يُذِيبُوها في عَصْرِنا الحاضرِ، بأن يطالِبوا بجعلِ اللُّغَة العامِّيَّة مكَانَ اللُّغةِ العربيّةِ في المكاتَباتِ والمراسَلات وغيرهما!

وأقبحُ من ذلك مَن يحاولونَ أن يتكلَّموا باللُّغةِ الأعجميّة، كما يوجد من بعضِ النَّاسِ الَّذينَ يَفخَرون بلغةِ الإنجليزِ وغيرهم، فتجدهم يَتَشَدَّقُونَ بالكَلام بها.

ثمّ إنّ قَوْلَهُ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ متعلّق بقَوْلِهِ: ﴿نَزَلَ بِهِ﴾.

وقَوْله: ﴿مُّبِينٍ﴾ بيّن، وفي قِراءَة بالتشديد: (نزّل)، بتشديد (نزل)، ونصب (الرُّوحَ)، فالفاعلُ الله: (نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينَ).

وفي اختلافِ القراءتينِ فائدةٌ، وهي أن الَّذي أمرهُ بالنزولِ هو اللهُ فنزلَ، فيكون جمعتَ بين فِعل جبريلَ الصادر عن أمر اللهِ، وبين الدلالةِ على أمرِ اللهِ له بذلك: (نزّلَ به).

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَإِنَّهُۥ﴾ ذِكر القُرآن المنزَّل على مُحمَّد ﷺ ﴿لَفِى زُبُرِ﴾ كُتُب ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كالتوراةِ والإنجيلِ]، المُفَسِّر جعلَ الضَّميرَ يعودُ على القُرآنِ، يَعْنِي: إنَّ ذكرَ القُرآنِ موْجودٌ في ﴿زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كُتُبهم، والمُرادُ وصفُ القُرآنِ؛ لأن النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وصف صفات التَّوْرَاة والإِنْجِيل بصفاته وصفات الكِتاب الَّذي نزَل به.

وقَوْلهُ: ﴿لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ظاهرُ الآيةِ الكريمة الْعُمومُ، وأن كل الكتبِ السابقةِ ذُكِرَ فيها القُرآنُ، وبشر إليه، ومنها: التوراة والإنجيل، فتكون الكاف هنا للتشبيهِ، وفي هذا دليلٌ واضحٌ على عِناية اللهِ تَعالَى بهذا القُرآنِ، وتَشريفه، وتَعظيمه، حيثُ ذُكِر في كلّ كتابٍ سَبَقَ.

وفيه أيضًا دليلٌ على أنَّه لو جاءَ هذا الكتابُ لَوَجَبَ على جميعِ مَن يَعْتَنِقُونَ الكتبَ السابقةَ أنْ يُؤْمِنُوا به.



الآيات (١٩٧- ٢٠٤)

• • ● • •

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الشعراء:١٩٧-٢٠٤].

• • ● • •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ﴾ لِكُفَّارِ مَكَّة ﴿ءَايَةً﴾ عَلَى ذَلِكَ ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا فإِنَّهمْ يُخْبِرُونَ بِذَلِكَ، وَ(يَكُنْ) بِالتَّحْتَانِيَّةِ وَنَصْبِ آيَة، وَبِالْفَوْقَانِيَّةِ وَرَفْعِ آيَة[1]، ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ جَمْع أَعْجَم، ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ كُفَّار مَكَّة ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ أَنَفَةً مِنِ اتِّبَاعه، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَيْ مِثْل إِدْخَالِنا التَّكْذِيب بِهِ بِقِرَاءَةِ الْأَعْجَمِيّ ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾ أَدْخَلْنَا التَّكْذِيب بِهِ ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كفّار مكّة بِقراءة النبيّ، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ لِنُؤْمِن فَيُقَال لَـهُمْ لا فقالوا متى هذا العذاب، قال تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾].

قَوْلُهُ: [﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ﴾ لِكُفَّار مكّة ﴿ءَايَةً﴾ على ذلك]، يَعْنِي: عَلامَة على أنه حقّ ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

---

(١) حجة القراءات (ص:٥٢١).

وقَوْلُهُ: ﴿ءَايَةً﴾ بالنصبِ خبَرَ ﴿يَكُن﴾ مقدَّمًا، و﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ اسمها مؤخَّر، يَعْنِي: ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ أي: عِلْمُهُ، من ﴿عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، فبنو إسرائيلَ هم بنو يَعْقُوبَ بنِ إسحاقَ، الَّذينَ تفرَّعوا منه، وهذا من الآياتِ البيِّنة على أنه مذكورٌ في الكتبِ السابقةِ وأنَّ عُلماء بني إسرائيلَ يَعْلَمُونه؛ لأنه لو لم يكنْ مذكورًا في كُتُبهم، ما علِموه، وإنَّما يَعلَمونه لأنه مذكورٌ في كُتُبِهِم.

وفي هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ المَرْجِعَ في مثل هذه الأمورِ إلى العُلَماءِ أهلِ العِلْم.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كعَبْدِ اللهِ بنِ سَلَامٍ وأصحابِه ممَّن آمنوا؛ فإنَّهم يُخْبِرون بذلك]، هذا ليس بلازِمٍ؛ لأن كونَهم يعلمونَ به فهم عالِـمونَ سواء أَخبروا أو لم يُخْبِروا، ولذلك القُرآنُ ما قال: (أولم يَكُنْ لهم آيَةٌ أنْ يُخْبِر به) بل قال: ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ ومجرَّد عِلْمِ هؤُلاءِ به هو آيةٌ وإنْ لم يُخْبِروا به.

ونقول: إنّ عبد الله بن سلَام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ومَن آمَنَ، هم من علماء بني إسرائيلَ، فعَلِموا وأَخبروا، وغيرُهم منَ العُلَماء الَّذينَ لم يُؤمِنوا علِموا ولكنَّهم لم يُخبِروا.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وبالفوقانيَّة ورَفْع (آيةٌ)]، وعليه يكون: ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ خبر (تكن)، و(كان) في القراءتينِ ناقصةٌ.

قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ هذا اللسانُ العربيّ، سواء بلسان العربِ أو بغيرِه: ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ ما آمنوا به، فالمَعْنى أنَّهم لم يُؤْمِنُوا سواء جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ وهو من صَميم العربِ، ويَعرفونه، أو جاء من رجل أعجميٍّ؛ ذلك لأنَّهم معانِدون، والمعاند -والعياذ بالله- لو جِيءَ بكلِّ آيةٍ ما آمَنَ؛ لأنه فرقٌ بين الإِنْسانِ الَّذي يَتَحَرَّى الحقَّ، والإِنْسانِ الَّذي يُعانِد الحقَّ.

فالمعانِدُ المُكابِر يَصْعُب عليه أنْ يَرجِع إلى الحقّ، والمَعْنى أنه لو نزّل اللهُ هذا القُرآنَ على بعض الأَعْجَمِينَ إنْ كَان بِلُغَتِهِم؛ فإِنَّهم لن يُؤْمِنوا به؛ لأَنَّهم لم يَفْهَمُوه، وهو بلغةِ العَجَمِ، وإنْ كَان باللُّغة العربية ما آمنوا أيضًا؛ أنفةً من أنْ يَتَّبِعُوا رجلًا أعجميًّا.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل إدخالنا التَّكذيبَ به بِقِراءَةِ الأعجميّ، ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾ أَدْخَلْنا التَّكذيبَ به ﴿فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كُفَّار مكَّة لِقِراءَة النَّبيّ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾]. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الإسلاك أو السَّلْك، والمُراد بالسلك: الإدخال، و(كذلك) مفعول مُطْلَق لـ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾، يَعْنِي: مثل ذلك، وهي تأتي دائمًا في القُرآن: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ﴾ وما أَشْبَهَهُما.

فيقولون: إنَّ الكافَ اسمٌ بمَعْنى (مثل)، وهي مضافةٌ إلى اسمِ الإشارةِ العائدِ على المصدرِ المفهومِ مِنَ الفعلِ.

وعليه فيكون إعراب الكاف: اسم بمَعْنى (مثل)، مفعولًا مُطْلَقًا، عاملها الفعلُ الَّذي بعدها. يَعْنِي: إن الله جَلَّوَعَلَا أدخلَ التَّكذيبَ في قلوبِ المجرمينَ، والمُرادُ بـالمجرمينَ ما هو أعمُّ من كفارِ مكَّة، خِلافًا لِما قالَ المُفَسِّر، فالمجرمُ كافرٌ، سواء كَان من أهلِ مكَّة أو من غيرها.

ولمّا دخلَ التَّكذيبُ في قُلُوبهم والاستكبارُ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ إلى آخره.

وليس في هذه الآيةِ حُجَّة لأهل الكُفْر والمَعْصِيَة، الَّذينَ قالُوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام:١٤٨]؛ لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بيّن في آيةٍ أُخْرى أنّ سببَ كُفرهم وشِرْكِهم هو أنّهم كَانوا لا يريدون الحقّ، فلمّا زَاغُوا أزاغَ اللهُ قلوبَهم، ولو كَانوا يُريدونَ الحقَّ لَشَرَحَ الله صدورَهم له، لكنّهم عِنْدَهُم -والعياذُ باللهِ-

أَنَفَةٌ وكِبْرِيَاءُ وغَطْرَسَةٌ، فلذلك حُرِموا منَ الوصول إلى الصَّوابِ.

قَوْلُهُ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بالقُرآنِ، وإذا قلنا: إن ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ عامّ فإنّ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بما نزل من عند الله.

وقَوْلهُ: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟﴾ للغاية، والمَعْنى: إنهم إذا رأَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ فقدْ يؤمنونَ، ولكن يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر:٨٥]، وقَوْلُهُ: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هذا هو الغالب على المكذِّبين المعانِدين أنّ اللهَ يُملي لهم فيُوغِل -والعياذُ باللهِ- في الكُفْر وفي الفِسْق وفي المَعْصِيَة، حتى إذا جاءهمُ العذاب أتاهم بَغتةً على غِرَّة، كما قال الرَّسُول ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**»(١)؛ لأن هؤُلاءِ لو أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أذاقَهُمُ البأسَ شيئًا فشيئًا لرُبَّما آمنوا ورَجعُوا، ولكنَّه -والعياذُ باللهِ- يُمْهِلُهم، حتى إذا وَصلُوا إلى قِمَّة الكُفْر والفِسْق أُخذوا.

وهذا شَيْءٌ مشاهَدٌ حتى في عصرنا الحاضرِ، فنَرَى بعضَ البلادِ لَـمَّا أوغلتْ في الكفرِ ووَصلتْ إلى غايتِهِ أُخِذَتْ والعياذُ باللهِ.

قال: ﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ قال المُفسِّر: [لِنُؤْمِن؟ فيُقال لهم: لا، قالُوا: متى هذا العذابُ؟ قال الله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾]، يَعْنِي أنَّه إذا أتاهم العذابُ بَغتةً يقولون: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾؟ وهذا الاسْتِفهامُ للتمنِّي، أي: لَيْتَنا نُنظَر، هذا هو الظاهِرُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ [هود:١٠٢]، رقم (٤٦٨٦)، ومسلم: كتاب البر والصلاة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٣).

والمُفَسِّر حَمَلَه على ظاهرِهِ؛ على أنه الاسْتِفهام الاستخباريّ، ولهذا قالَ: [فيُقال لـهم: لا]، يَعْنِي: لن تُنظَروا، ولكن إذا جَعلناه للتمنِّي -أنَّهم يَتَمَنَّوْنَ أن يُنْظَروا- لَـمَا احتاجَ إلى جَوابٍ.

قال الله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ الهمزةُ في مثلِ هذا التركيبِ إمّا أنّها داخلةٌ على جملةٍ مقدَّرة بحسَبِ السِّياق، أو أنّها داخلةٌ على الجُملة الموْجودة.

وقوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ هذا من باب التَّوبيخ والإنكار عليهم، يَعْنِي: أَيَسْتَعْجِلُون بعذابِ اللهِ وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قريبُ الأخذِ، فهو يُنْكِر عليهم هؤُلاءِ الَّذينَ يَستعجلون بعذابِ الله.

وكيفيَّة استعجالهم بالعذابِ، هل هو بالفعلِ أم بالقولِ؟

نقول: بالقولِ وبالفعلِ، أمّا القول فإنَّهم يقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس:٤٨]، وأمّا الفِعل فإنّ إيغالَهم بالكفرِ والمعاصي مُوجِبٌ بأنْ يُعاجَلوا بالعُقُوبة، فصار هذا الإنكارُ عليهم، سواء كَانوا يَستعجلون قولًا -كما قال المُفَسِّر، قالُوا: متى هذا العذاب؟- أو كَانوا يَستعجلون فعلًا، بأنْ يُوغِلوا ويَتَعَمَّقُوا في الكُفر والمعاصي؛ فإن ذلك منِ استعجالِ عُقوبةِ اللهِ.



الآيات (٢٠٥- ٢٠٧)

•••

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧].

•••

قالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ أَخبِرْنِي ﴿إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ مِنَ الْعَذَابِ، ﴿مَآ﴾ اسْتِفْهَامِيَّة بِمَعْنَى أَيّ شَيْء ﴿أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ فِي دَفْع الْعَذَاب أَوْ تَخْفِيفه، أَيْ لَمْ يُغْنِ].

قال المفسِّر: [﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ أَخبِرْنِي]، والخطابُ ليسَ للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بل لِكُلِّ مَن يَتَوَجَّهُ إليه الخِطاب.

قال: ﴿إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ قال المُفسِّر: [منَ العذابِ، ﴿مَآ﴾ استفهامية بمَعْنى أي شيْء ﴿أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ فِي دَفْع الْعَذَاب أَوْ تَخْفِيفه، أَيْ لَمْ يُغْنِ]، يقول الله تَعالَى: أَخْبِرْني أيُّها المخاطَب إنْ مَتَّعنا هؤُلاءِ سِنينَ وأَمهلناهم ولم نُعاجِلْهُمْ بالعُقوبةِ حتى بَلَغوا غايةَ المُتعة في هذه الدنيا ثم جاءهم ما كَانوا يُوعَدون ماذا يَنْفَعُهُمْ هذا التَّمْتِيع؟ فهو في الحَقِيقَة لا يَزيدهم إلّا حسرةً والعياذُ باللهِ، وإلَّا زيادة في العُقوبةِ في النارِ؛ لأنه كلَّما كَثُرَتِ المعاصي في الإِنْسان ازداد عُقوبةً.

وهذا مَثَلٌ في الحَقِيقَة يُطبَّق على كلِّ مَن قال لنا: إن هؤُلاءِ الكَفَرَة قد أنعمَ اللهُ

عليهم وفتحَ عليهم الدنيا، فالأمطارُ تأتيهم كلَّ وقتٍ، والأَرْضُ مُخْصَّبَة، فنقول له: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾؟!

ونقول: إنَّ هذا أشدّ في وَقْعِ العذابِ في قُلوبهم؛ لأن الإِنْسانَ الذي يُنَعَّم في رَغَدٍ مِنَ العَيْش بهناءٍ وطُمأنينة إذا أُخذَ فهو أشدّ منَ الَّذي يُؤخَذ على بَأْسِهِ، بل الذي في البأساءِ والضرَّاء قد يَرَى أن الموت أريحُ له، أمّا المأخوذُ -والعياذ بالله- على شِدَّة النِّعمة وقوَّتها فهو أشدّ.

وقد ذُكر عنِ ابنِ حَجَر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو قاضي القُضاة في مِصْر، أنَّه كان يَمشي بموكبه، وعلى يمينه ويَسَارِهِ النَّاسُ والخَدَمُ، فمرّ برجلٍ زَيَّات يَهُودِيّ كله وَسَخٌ مِنَ الزَّيتِ، فأوقفه الْيَهُوديّ وقال له: إن نبيّكم يقول: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**»(١)، وأنتَ مؤمنٌ وأنت في هذا النَّعيم، وأنا يهوديٌّ وأَحْيَا فيما ترى منَ الفقر والعذابِ؟! فقال له ابن حَجَر: نعم صَحِيح، لكن ما مُتِّعْتُ به مِنَ النِّعمة هو بالنِّسبة إلى نَعيم الآخرةِ سِجنٌ، وما أنتَ فيه مِنَ البَأْسَاءِ هو بالنِّسبةِ إلى عَذابِ الآخِرَةِ نَعيمٌ وجَنَّةٌ(٢).

فالحاصل: أن هؤُلاءِ إذا مُتِّعُوا طَويلًا في الدُّنيا ونعيمها ثم جاءهمُ العذابُ فإِنَّه لا يُغْنِي عنهم هذا المتاعُ شَيئا.

وقَوْلُهُ: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ لك أن تقولَ: إنَّ (ما) هنا نافيةٌ، ولك أن تقول: إنها استفهاميَّة بمَعْنى النفيِ، والأبلغُ أن تكون استفهاميةً بمَعْنى النفيِ؛ لأن الاسْتِفهامَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٥٦).

(٢) فيض القدير (٣/ ٥٤٦).

الَّذي بمَعْنى النفي يَتَضَمَّن النفيَ وزيادةً؛ إذ إنه مُشْرَبٌ مَعْنى التحدِّي.

وقَوْلهُ: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ يَعْنِي: يَتَحَدَّاهم أنْ يُغْنِيَ عنهم شيئًا، فإذا كَانت (ما) صالحةً للنفيِ والاسْتِفهامِ، حُمِلت على الاسْتِفهامِ أَولى وأبلغُ؛ لأنه يدلُّ معَ النفيِ على زيادةِ المَعْنى والتحدِّي.



الآيتان (٢٠٨، ٢٠٩)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الشعراء:٢٠٨-٢٠٩].

قالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ رُسُل تُنْذِر أَهْلَهَا، ﴿ذِكْرَىٰ﴾ عِظَة لَهُمْ ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فِي إِهْلَاكِهِمْ بَعْدَ إِنْذَارِهِمْ، وَنَزَلَ رَدًّا لِقَوْلِ المُشْرِكِينَ].

قَوْلُهُ: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ قال المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [رسل تنذر أهلها]، وقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ صفة لـ﴿قَرْيَةٍ﴾، يَعْنِي: ما أهلكناها إلا في هذا الحالِ، يَعْنِي: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾.

وهل المُراد أن الله تَعالَى يُنْذِر على ألسنةِ رسلِه؟ يَعْنِي: إلَّا ونحن لها مُنْذِرُونَ؟ أو أن: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ يَعْنِي: رسل تُنْذِر؟

يقول المُفَسِّر: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ يَعْنِي: رسل تُنْذِر. يَعْنِي: إلَّا ولها رُسُل تُنْذِرها، ولكنها مِنْ قِبل اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قَوْلُهُ: ﴿ذِكْرَىٰ﴾ قال المُفَسِّر: [عِظَة لهم]، يَعْنِي: إننا نُرسِل هؤُلاءِ المنذِرينَ لأجلِ الذِّكْرَى، يعنى: المَوْعِظَة لهؤُلاءِ.

قال المُفَسِّر: [﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ في إهلاكهم بعد إنذارهم]، وهذا صَحِيح، ويَحتمِل: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: مُهْلِكِينَ بدون إنذارٍ، والمَعْنى صَحِيح على هذا الوجهِ وعلى الوجهِ الَّذي ذكرَهُ المُفَسِّر؛ فاللهُ تَعالَى إذا أَهلكهم بعدَ إِنذارهم وقد عَصَوْا، فهو لم يَظْلِمْهُمْ، وكذلك لا يمكِن أنْ يُهْلِكَ مَن لا يُنْذَر؛ لأن ذلك ظُلْمٌ.

فوائد الآيتينِ الكريمتينِ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: أنَّ الشرائعَ لا تُلْزَم إلَّا بعدَ العِلْم، وأنه ما دامَ الإِنْسان غيرَ عالمٍ بالشرعِ؛ فإِنَّه لا يُكَلَّف به، ولهذا شواهِدُ:

منها: قِصَّة المُسِيءِ في صَلاتِه؛ فإن الرَّسُول ﷺ لم يُلْزِمْه بقَضاءِ ما فاتَه[1]؛ لأنه ما علِمَ.

ومنها: المرأةُ الَّتي كَانَتْ تُسْتَحَاضُ فلا تُصلِّي، فما أمرها النَّبيّ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلَامُ بالقَضاء[2].

ومنها: حديث عَدِيِّ بنِ حاتمٍ، حيثُ أَكَلَ بعدَ طُلوعِ الفجرِ[3].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب أمر النبي ﷺ الذي لا يتم ركوعه بالإعادة، رقم (٧٩٣)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب من قال إذا أقبلت الحيضة تدع الصلاة، رقم (٢٨٧)، والترمذي: أبواب الطهارة، باب في المستحاضة أنها تجمع بين الصلاتين بغسل واحد، رقم (١٢٨)، وابن ماجه: كتاب الطهارة، باب ما جاء في المستحاضة التي قد عدت أيام أقرائها، قبل أن يستمر بها الدم، رقم (٦٢٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، رقم (٤٥٠٩)، ومسلم: كتاب الصيام، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر، وأن له الأكل وغيره حتى يطلع الفجر، وبيان صفة الفجر الذي تتعلق به الأحكام من الدخول في الصوم، ودخول وقت صلاة الصبح وغير ذلك، رقم (١٠٩٠).

إلى غير ذلك أشياء كَثِيرَة من هذا، إلا أنه قد يُلْزَم الإِنْسانُ بالشيْء إذا كَان مُفَرِّطًا مُهْمِلًا، مثل لوِ انقدحَ في ذِهنه أو قيل له: إن هذا الشيْء واجبٌ، ولكنه قال -كما يقول العامَّة-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١]، لا تُفَتِّشْ، غدًا يقول لك: هذا واجبٌ ويُحْرِجُونَني، أو هو يفعل شيئًا وانقدحَ في ذِهنه أنه حرام، أو قيل له: إنه حرام، وقال: لا، أخافُ إنْ سألتُ العُلَماء أن يقولوا: هذا حرامٌ، فهذا لا يُعْذَر؛ لأنه ليسَ بغافلٍ، واللهُ تَعالَى يقول: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَـٰفِلُونَ﴾ [الأنعام:١٣١]، يَعْنِي: ما طرأَ على بالِهم شيْءٌ، ولا يَعْلَمُون شيئًا، وأما الإِنْسان الَّذي طرأَ على بالِهِ لكنه فرّطَ في ترْكِ السُّؤالِ، فهذا يَنْبَغي أن يُلْزَم.

فإن قيلَ: بعض العوامّ صَعْبٌ أن يَتَغَيّروا، فهل نُعْطِيهم العلمَ؟!

قلنا: أَعْطِه العِلْمَ، قُلْ له مثلا: إذا قمتَ للصلاةِ فكبّر، ثمّ اقْرَأْ فاتحةَ القُرآنِ، ثم ما تَيَسَّر منَ القُرآن، وعلِّمه ما يَلْزَمْه، فكون اللهِ يُنْعِم عليك بالعلمِ أشدّ تَبِعَةً منَ المالِ، فالعلمُ أشدُّ تبعةً؛ لأنه في الحَقِيقَةِ نشرٌ للرِّسالَةِ، وتبليغٌ لِشريعة اللهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: في قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾ إشارة إلى إمكان الظُّلْم، ولكنه مُستحيلٌ شَرعًا، لا لِذَاتِه؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قادرٌ على أنْ يعذِّب المطيعَ، وإنْ أطاعَ، فهذا ليس مُستحيلًا، ولكنّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى منزَّه عنه لكمالِ عدلِهِ.

وهذا فيه الردُّ على الجَهْمِيَّة، الَّذينَ يقولون: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَستحيل في حقِّه الظلم، يَستحيلُ لذاتِه، ومُحالٌ لذاتِه.

وعلى رأيِهم يَصير لا مَعْنى لقولِه تعالى في الحديث القُدُسِيّ: «يا عِبَادِي إِنِّي

حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي»[1]، فلا يصير فيه مدحٌ لأنَّ الظُّلْمَ -على مُقتضى قولِهِم- مُحالٌ لِذاتِهِ، والمحالُ لذاتِه لا يُمْدَحُ اللهُ به؛ إذِ المُحالُ به غير واقعٍ، ولا يكون لقولِهِ تَعالَى في الحديثِ القُدُسِيّ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي» معنًى.

فالصَّوابُ أنَّ الظُّلم من الأمور المُمْكِنة لكنَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى منزَّه عنه.



(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

الآيات (٢١٠- ٢١٢)

• • ◦ • •

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء:٢١٠-٢١٢].

• • ◦ • •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ بِالْقُرْآنِ ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي﴾ يَصْلُح ﴿لَهُمْ﴾ أَنْ يَنْزِلُوا بِهِ ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذَلِكَ، ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾ لِكَلَامِ المَلَائِكَة ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ بِالشُّهُبِ].

قد يكون ما قاله المُفَسِّر حقًّا من أنَّ هذا ردٌّ لقولِ المشركينَ، وقد يكونُ هذا من تكميلِ قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٣]، فقال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ أي: [بالقرآنِ ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي﴾ يصلح ﴿لَهُمْ﴾ أن ينزلوا به، ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك]، أي أن الشياطينُ ما تنزلتْ بالقُرآنِ، بخِلاف أقوالِ الكهّان، فإن الشياطينَ تَنَزَّلَتْ بها، أمّا القُرآنُ فما تنزلَّتْ به الشياطين.

ثم قال: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ﴾ يَعْنِي ما يَليق أبدًا أن يَنزِلوا به، ثم قال: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، وهذا تدرُّج، يَعْنِي ما يمكِن أن ينزِلوا بالقُرآنِ.

فهو أوَّلًا قال: إنَّهم ما نَزلوا، وكونهم ما نَزلوا ما يدلُّ على أنَّ هذا غيرُ لائقٍ بهم، ثم إنه غير مُمكِن في حَقِّهم. فهذا فيه ترتيبٌ:

أوَّلًا: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ نفيٌ لِتنزُّلِهم به، لكن لا يَنفي أن يكونَ مُمكِنًا في حقِّهم،

ولا أن يكون لائقًا في حقِّهم.

ثانيًا: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ فهذا يَعني أنه غيرُ لائقٍ أنْ يَنزِلوا به.

ثم ارتقَى إلى ما هو أعظمُ فقال: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أن ينزِلوا به؛ لأنَّهم عنِ السَّمْعِ لَمعزولُون، مَعْزُولون قَدَرًا وشَرْعًا.

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ القُرآنَ تَفِرُّ منه الشياطينُ، وأنه لا يمكِن أن تقْرَبَه، وقد أخبرَ النَّبيّ ﷺ في بعض الآيَاتِ أنَّها تَطْرُدُ الشياطينَ؛ كما في البَقَرَة[1] وفي آية الكُرْسِيّ[2] وما أشبهَ ذلك.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾ لِكَلامِ الملائكةِ ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ بالشُّهُب]، على قولِ المُفَسِّر يكونُ المُرادُ هنا بـالسَّمْع سَماع الملائكةِ بالوحيِ.

وهم مَعْزُولون عنه، لا يُمْكِن أن يَقْرَبوا منه، قال المُفَسِّر: [بالشهب]، يَعْنِي هذه الشهب الَّتي تَرْمِيهم تَطْرُدُهم عنِ استراقِ السمعِ، فلا يَسْتَطِيعون أنْ يَسْتَرِقُوا السَّمْعَ، ولا أن يأتوا به، رُبَّما يُدْرِك الكلِمة أحيانًا قبلَ أنْ يُدْرِكَه الشِّهاب فتنةً منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فيأخذ الكلمة ويُضيف إليها عشراتِ أو مئاتِ الكَلِماتِ من عنده، فإذا وافقَ واحدٌ بالمائةِ صَدَّقه النَّاسُ في التسع والتسعينَ.

وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ الإِنْسانَ كلَّما انقادَ للشيطانِ ابتعدَ عن فَهْم القُرآنِ، ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾؛ لأنَّهم شَياطِينُ، فمَن كَان شيطانًا -والشيطانُ مِن بني آدمَ هو الَّذي يَتَلَقَّى ما تأمرُه الشياطينُ به- فإنَّه يُعْزَل أيضًا عن فَهْم القُرآن.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، وجوازها في المسجد، رقم (٧٨٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة البقرة، رقم (٥٠١٠).

الآية (٢١٣)

❁ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٣].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ إنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ الَّذِي دَعَوْكَ إليه].

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخِطاب للرسولِ ﷺ، ولا يَلْزَم منَ النهيِ عنه إمكَانُ وُقُوعِه، كما أنَّ الله تَعالَى يأمرُ المُؤمِنينَ بالثَّبَات على الإيمانِ، ويَنهاهم عنِ الشِّرْكِ وهو لم يَقَعْ منهم.

والدُّعاءُ هنا يَشمَل دعاءَ المسألةِ ودعاءَ العِبادَة.

دعاء المسألة: مثل ما يقولَ لغيرِ الله: يا فلانُ أَعْطِني، يا فلان ارْزُقْنِي، وما أشبهَ ذلك، شخصٌ وقفَ عندَ قبرِ النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وقال: يا رَسُولَ اللهِ، ارزقني، يا رَسُول الله، هَيِّئْ لي زوجةً، يا رَسُول اللهِ، أَعْطِني ولدًا، فهذا شِرْكٌ أكبرُ مُخْرِجٌ عنِ المِلَّة.

دعاءُ العِبادَة: أنْ يقفَ عندَ قبرِ النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويعبُدُ النَّبيَّ، ويركَع له ويسجدُ له، وما أشبه هذا.

والنهيُ عنِ الدُّعاءِ معَ اللهِ إلى آخرَ شاملٌ للنوعينِ.

قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ الفاءُ للسببيَّة، ﴿فَتَكُونَ﴾ أي: إنْ دعوتَ معَ اللهِ إلهًا آخرَ ﴿مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾، ولم يَقُلْ: مُعَذَّبًا، أو: ستُعَذَّب؛ إشارةً إلى أنَّ المشركينَ الكفَّار كثيرونَ، والذي يدعو معَ الله إلهًا آخَرَ يكون منهم.



الآيات (٢١٤- ٢١٦)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:٢١٤-٢١٦].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ وَهُمْ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو المُطَّلِبِ، وَقَدْ أَنْذَرَهُمْ جِهَارًا، رَوَاهُ الْبُخَارِيّ[1] وَمُسْلِمٌ[2]، ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ أَلِنْ جَانِبَكَ ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المُوَحِّدِينَ، ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ عَشِيرَتُكَ ﴿فَقُلْ﴾ لَـهُمْ: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مِنْ عِبَادَة غَيْرِ اللهِ].

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ وهم جماعاتٌ من بني المطَّلِب، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وقد أَنْذَرَهُمْ جِهارًا، رواه البخاريُّ ومسلمٌ]، وهذا في أوّل الدعوة، أُمِر أنْ يُنْذِرَ عَشيرته الأقربينَ؛ لأنَّهم أحقُّ النَّاسِ بِبِرِّه، ولأنَّهم بِمُقْتَضَى القَرابة، لا بِمُقتضى الواقعِ، أقربُ النَّاسِ إلى الإيمانِ به، ولأنَّهم أيضًا بمقتضى القرابةِ هم أشدُّ النَّاسِ غَيْرَةً عليه، ولأنَّهم أيضًا بصِلة القرابةِ هم أعظمُ النَّاسِ حقًّا عليه.

فلذلك الإنْسان مسؤولٌ عن أهلِهِ أكثرَ مما هو مسؤولٌ عنِ الأجانبِ، ومسؤولٌ عنِ القُرْبَى أكثر مما هو مسؤولٌ عمَّن هو ممَّن ليس بينه وبينه قرابةٌ.

---

(١) كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، رقم (٤٧٧١).
(٢) كتاب الإيمان، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، رقم (٢٠٦).

وقَوْلُهُ: ﴿ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ اسمُ تفضيلٍ، فيَقْتَضِي أنه ما دام أنَّ الحُكْم مُعَلَّق بالأقرب، أنه كلَّما كَان أقربَ كَان أَولى وأحقَّ.

وقول المُفَسِّر: [هم بنو هاشم وبنو المطَّلِب]، هذا ليس بصَحِيحٍ؛ إذْ لَيسوا كلّهم منَ الأقربِ، على أنَّ مِنهم من هو من الأقربِ بلا شَكّ، ومنهم مَن أجابَ ومنهم مَن لم يُجِبْ، وقدِ امتنعَ عنِ الإجابةِ عمُّه أبو لَهَبٍ، وهو من أقربِ النَّاسِ إليه؛ لأن «عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ»(١)، وامتنعَ عن الإجابةِ عمُّه أبو طالبٍ أيضًا، وهو صِنو أبيه، لكنَّ عمَّه أبا طالِبٍ وَالاَهُ وناصَرَهُ، وعمه أبو لَهَبٍ عاداه وخَذَلَهُ، والعياذ بالله. وقد صار أمامَ الرَّسُولِ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ثلاثةُ أقسامٍ:

١- قِسْمٌ آمَنَ به.

٢- وقسم نصَره ولم يؤمنْ به.

٣- وقسم لم يؤمنْ به ولم يَنْصُرْه.

وهذا من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّهم لو نَاصَرُوه كلُّهم وآمنوا به، لقِيل: هذا رجلٌ يريدُ المُلْكَ والسِّيادة، ولهذا تَبِعَهُ أقاربُه، وهم متَّفِقون على هذه الخطَّة، ولكن من حِكمة الله أن الله تَعالَى قدّمهم هذا التقديمَ.

وفي هذا دليلٌ على أنَّه يجب على الإنْسانِ أنْ يُرْشِدَ ويَعِظَ الأقربَ منه فالأقرب، وهو مسئولٌ سُؤالًا مباشِرًا بالنِّسبةِ إلى أهلِهِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَلِنْ جانِبَك، ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الموحِّدين]، والإنذارُ لِلْعَشيرة، وخَفْضُ الجَناحِ للمؤمنِ، سواء كَان

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها، رقم (٩٨٣).

من عشيرتِهِ أو ليسَ من عشيرتِهِ.

ففي هذا دليلٌ على أنَّه يَجِبُ على الإنْسانِ ألَّا يَتَعاظَم على أحدٍ، لكن بالأخصّ للمؤمنِ، وأن يُلِينَ له جانبًا، لكن غير المؤمن لا يُلِين له جانبًا.

فإن قيل: كيف نقولُ: لا يُلِين للكافرِ جانبًا، بينما يقول الله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه:٤٤]؟

قلنا: الآيةُ يُرادُ بها جانِبُ الدَّعوة.

وقَوْلُهُ: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في هذا دليلٌ على أنَّ تَحقيقَ الإيمانِ إنَّما يكونُ في اتِّباع الرَّسُول ﷺ؛ لأنه لَـمَّا قالَ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ﴾، فهو إذَا أنذرَ إمَّا أنْ يُتَّبَعَ وإمَّا ألَّا يُتَّبَعَ.

قَوْلهُ: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ قال المُفَسِّر: [عَشِيرَتُك]، والأصحُّ هم أو غيْرُهم، قال: [﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مِن عِبادَة غيرِ اللهِ]، ولم يقلْ: «بريء منكم»؛ لأنه لو قال: «مِنكم» لكَان هذا أشدَّ صدمةً، ولاحتملَ أن تكون هذه براءةً شخصيَّةً، وأيضًا يَحْصُل منهم النفورُ عن العملِ، لكنه لما قال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ عرَفُوا أن السَّبَبَ في البراءة العملُ، ولربما يكون ذلك سببًا لِئَنْ يَرْتَدِعُوا عنه، ولأجلِ أنْ يَنالوا الوَلاءَ دُون البَرَاء.



الآيات (٢١٧- ٢٢٠)

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء:٢١٧-٢٢٠].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَتَوَكَّلْ﴾ بِالْوَاوِ وَالْفَاءِ[1] ﴿عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اللهِ، أَيْ: فَوِّضْ إِلَيْهِ جَمِيعَ أُمُورِكَ، ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ إِلَى الصَّلَاةِ، ﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾ فِي أَرْكَانِ الصَّلَاةِ قَائِمًا وَقَاعِدًا، وَرَاكِعًا وَسَاجِدًا، ﴿فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ المُصَلِّينَ، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾].

قَوْلُهُ: [﴿وَتَوَكَّلْ﴾ بالواو والفاء]، وهذه من المسائلِ النادرةِ في القراءاتِ؛ لأن الغالبَ في القِراءَةِ أنْ يكونَ الخِلاف في صفةِ الكلمةِ أو في الحرفِ، ليسَ في ذاته أو عينه، لكن هذا قد يأتي أحيانًا في ذاتِ الحرفِ، وأحيانًا أيضًا بإسقاطِ الحرفِ من عَدَمِهِ، في قولِه تَعالَى في سُورَة البقرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [البقرة:١١٥-١١٦]، في قِراءَة بإسقاط الواو: (قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ)[2]، وهذه من المسائلِ النادرةِ في القراءاتِ، فالقِراءَةُ قد تكونُ في نوعِ الحرفِ، وفي وُجودِ الحرفِ، وفي شكل الحرفِ، وأكثرُها في شَكْل الحرفِ وهَيْئَتِهِ؛ يُمَدّ أو لا يُمَدّ، يُفْتَح أو يُضَمّ.

---

(١) حجة القراءات (ص:٥٢٢).

(٢) حجة القراءات (ص:١١٠).

والتوكُّل: هو الاعتمادُ على اللهِ معَ الثِّقَةِ به في جَلْبِ المنافِعِ ودَفْعِ المضارّ.

قولُه رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الله، أي: فَوِّض إليه جميعَ أمورِكَ]، ولم يَقُلِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «على الله» بل قال: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ لأنَّ المقامَ يَقتضيه؛ يَقتضي عِزَّة في مقابلِ المكذِّبين له، ورحمةً في مقابلِ قيامِه بواجبِ الإنذارِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ إلى الصلاةِ]، بعضُهم يقولُ: حينَ تقومُ مِن مَنامِكَ، ولكن هذا المَعْنى الَّذي ذكرَه المُفَسِّر أعمُّ، وقيل: إنَّ المَعْنى: حينَ تقومُ في شُئُونِكَ منَ الإنذارِ وغيرِ الإنذارِ، يَعْنِي: يَرَاكَ حينَ تقومُ مُنْذِرًا، ويراكَ حين تقومُ مُصَلِّيًا، ويراك حين تقوم صَائمًا، وحين تقوم حَاجًّا، وفي جميعِ الأحوالِ، يَعْنِي: حِينَ تَقُومُ إلى عِبادَةِ اللهِ.

ويَرَاكَ أيضًا حين تَقَلُّبَكَ ﴿فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ قال المُفَسِّر: [المصلِّين]، أي: في جُمْلَتِهِم، وهذا المَعْنى الأخيرُ أعمُّ منَ الجميعِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ تَقصَّد الصلاةَ؛ لأنها أصلُ العباداتِ البدنيَّة.

وقَوْلهُ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ جملةٌ استئنافيَّةٌ؛ لِبَيَانِ أنه معَ رُؤْيَتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فهو أيضًا سميعٌ عليمٌ.

إذنِ اجتمعَتْ ثلاثُ صِفاتٍ: الرؤيةُ، والسمعُ، والعلمُ.



الآيات (٢٢١- ٢٢٣)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢١-٢٢٣].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ يا كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ بِحَذْفِ إِحْدَى التَّاءَيْنِ مِنَ الْأَصْلِ، ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كَذَّاب ﴿أَثِيمٍ﴾ فَاجِرٍ، مِثْل مُسَيْلِمَة وَغَيْرِه مِنَ الْكَهَنَةِ، ﴿يُلْقُونَ﴾ الشَّيَاطِينُ ﴿السَّمْعَ﴾ مَا سَمِعُوهُ مِنَ الْمَلَائِكَة إِلَى الْكَهَنَة ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ يَضُمُّونَ إِلَى الْمَسْمُوعِ كَذِبًا كَثِيرًا، وَكَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ حُجِبَتِ الشَّيَاطِينُ عَنِ السَّمَاءِ].

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ هذا كلُّه يدورُ حولَ قولِ الكفارِ: إن الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كَان كاهنًا، والكاهنُ مَن تنزَّل عليه الشياطينُ، وهذا القُرآنُ تنزيلُ ربِّ العالمينَ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ [الشعراء:٢١٠]، فبيّن اللهُ بعد ذلكَ بهذا الاسْتِفهامَ للتشويقِ، أو لإقامةِ الحجَّة والتحدِّي، يَعْنِي: إنّ الشياطين إنَّما تَنْزِلُ ليسَ على مثلِ الرَّسُولِ ﷺ الصادقِ الأمينِ، البعيد عن الفَحشاء، إنَّما تَتنزَّل ﴿عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾.

وإتيانُ الكَلامِ بمثلِ هذه الصيغةِ -استفهام ثم خَبَر- أبلغُ في رُسُوخه في القلب.

قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَفَّاكٍ﴾ كذَّاب ﴿أَثِيمٍ﴾]، و﴿أَفَّاكٍ﴾ هذه للنسبةِ والمُبالغةِ أيضًا، أي: كثير الإِفك، والإفكُ بمَعْنى الكذِب، والأثيمُ بمَعْنى الآثِمِ، أي: الجامع بينَ سُوءِ القولِ وسُوء العملِ.

وقول المُفَسِّر: [مثل مُسَيْلِمَة وغيرِه منَ الكَهَنَة]، هذا تمثيلٌ، أي مثل كذا.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يُلْقُونَ﴾ الشياطينُ، ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ ما سمِعوه منَ الملائكةِ إلى الكهنةِ، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾]، الضَّمير في ﴿يُلْقُونَ﴾ يعودُ على الشياطين، و﴿ٱلسَّمْعَ﴾ أي: المَسْمُوع، وهو مصدرٌ بمَعْنى اسمِ المفعولِ. يُلْقُونه على الكهنةِ، فيأخذون منَ السمعِ ما أخذوه، ولكنهم يَزيدون إلى هذا كذباتٍ كَثِيرَةً، ولهذا قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ قال المُفَسِّر: [يَضمُّون إلى المسموعِ كَذبًا كثيرًا، وكَان هذا قبلَ أنْ حُجِبَتِ الشياطينُ منَ السماءِ].

وكَانت الشياطينُ قبلَ بَعثةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تَستمِع إلى شيْءٍ منَ السماءِ، ولكنها حينَ البعثةِ صاروا لا يَستمِعون؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن:٩]، لا يَستَطِيعون، فلو قَعَدوا مقاعدَهم كما كانوا يَقعدُون أوَّلًا لِيَسْتَمِعوا أَتَتْهُمُ الشُّهُبُ.

وهل هذا انقطعَ بانقطاعِ الوحيِ؛ لأن الحكمَ يدورُ معَ عِلَّتِه، أم بَقِيَ؟

الظَّاهرُ -والله أعلمُ- انقطعَ بانقطاعِ الوحيِ؛ لأنه في ذلك الوقتِ مُنِعَتِ السماءُ مِنَ الشياطين، أما بعدَ ذلك فإِنَّها لا تُمنَع، ولكن قد تُمنَع أحيانًا بما نرى من الكثيرِ منَ الشهبِ.



الآيات (٢٢٤- ٢٢٦)

• • ● • •

۞ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٤-٢٢٦].

• • ● • •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ فِي شِعْرهِمْ فَيَقُولُونَ بِهِ وَيَرْوُونَهُ عَنْهُمْ فَهُمْ مَذْمُومُونَ، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَعْلَم ﴿أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ﴾ مِنْ أَوْدِيَة الْكَلَام وَفُنُونه ﴿يَهِيمُونَ﴾ يَمْضُونَ فَيُجَاوِزُونَ الحَدَّ مَدْحًا وَهِجَاءً، ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ فَعَلْنَا ﴿مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ يَكْذِبُونَ].

قال الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ مناسبةُ ذِكر هذا أنّ كفّار قُرَيْش عارَضوا النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأنه كاهِنٌ، وعارَضوه بأنه شاعرٌ، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور:٣٠]، فنفى الله تَعالَى أن يكونَ كاهنًا بما سبقَ، ثم قال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ أي: في شِعرهم، فيقومونَ به ويَرْوُونه عنهم، فهم مذمومونَ، سواء الشُّعراء أو الغُوَاة الَّذين يَتَّبِعُونَهم.

فإِنَّه لا يَتَّبعُ الشعرَ غالبًا إلا الغواةُ، فهو باطلٌ، وهذا القُرآنُ ليس كذلك، هذا القُرآنُ لا يتبعه إلا أهلُ الرُّشْدِ والسَّدادِ، فدَلَّ ذلك على أنه ليسَ بالشعرِ؛ لأن الغالبَ أن الشعرَ لا يَتَّبِعُه إلّا الغاوونَ.

والشعرُ المذمومُ هنا هو الذي لم يُؤْخَذ منَ الكتابِ والسنَّة؛ فإنْ أُخِذ من

الكتابِ والسنّة فإِنَّه يَتَّبِعُهُ الراشدُ، مثل بعض القصائدِ الَّتي نَظَمَها أهلُ العِلْم والإيمانِ، فهذا لا يُعْتَبَر شِعرًا يَتَّبِعُهُ الغاوونَ.

قال: [﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعلم، ﴿أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ﴾ من أوديةِ الكَلامِ والفنونِ، ﴿يَهِيمُونَ﴾ يمضون فيجاوِزون الحدّ مدحًا وهجاءً]، هذا صَحِيحٌ، فحالُ الشعراءِ: شاعرٌ يقولُ ما لا يَستَطِيعُ أنْ يَمْلِكَ نفسَه فيه؛ لأنه يبالغُ في المدحِ، ويبالغُ في الذمِّ؛ لأنه -بإذنِ اللهِ- كَأَنَّه يَتكَلَّم من غير شعورٍ، وإنْ كَان يُوصَف الشِّعرُ بأنه يأخذُ في الشُّعور، لكن الشَّاعِر يتكلَّم من غيرِ شُعورٍ.

والمُرادُ بالشعراءِ غيرُ الَّذينَ آمَنُوا وعمِلوا الصَّالِحات، ولهذا استثنى فيما بعدُ فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

وقول المُفَسِّر: [﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ فعلنا ﴿مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ يَكْذِبون]، فيه نظرٌ، لكن: ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ فيما إذا امْتَدَحُوا أو هَجَوْا، فيقولون: نحنُ نفعلُ كَذا وكَذا إذا كَانوا يريدونَ أنْ يَتَقَرَّبُوا إلى الشخصِ، ونحن نَخْدُمُكَ، ونحنُ نُواسيكَ بأَنْفُسِنا، ونَفديك بأهلنا، وما أشبهَ ذلك. لكنهم لا يَفعلون هذا؛ لأَنَّهم غُواةٌ، وغيرُ راشدينَ.

كذلك أيضًا: ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾، فيقولون في هِجَاءِ عَدُوِّهِم: نحن لا نَخشاهُ، ونحن سَنُيَتِّمُ أولادَهُ، ونحن سَنُرَمِّلُ نِساءَه، وما أشبهَ ذلك، وهم لا يَفعلون ذلك.

فيُمْكِن أنْ يَصِيرَ الشَّاعِرُ الَّذي يُغَيِّرُ الأُمَّة بِشِعْرِهِ في الخلفِ، فلا يكون في المقدِّمَةِ عندَ التقاءِ الصَّفَّيْنِ.



الآية (٢٢٧)

• • • •

قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧].

• • • •

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مِن الشُّعراء ﴿وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ لَمْ يَشْغَلهُمُ الشِّعْرُ عَنِ الذِّكْر ﴿وَٱنتَصَرُوا۟﴾ بِهَجْوِهِمُ الْكُفَّارَ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ بِهَجْوِ الْكُفَّارِ لَهُمْ فِي جُمْلَة الْمُؤْمِنِينَ فَلَيْسُوا مَذْمُومِينَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النِّساء:١٤٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤]، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ مِنَ الشُّعَراء وَغَيْرِهِمْ ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ﴾ مَرْجِع ﴿يَنقَلِبُونَ﴾ يَرْجِعُونَ بَعْد المَوْت].

قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ هذه أربعةُ أوصافٍ: الإيمان، والعملُ الصَّالحُ، وذِكر اللهِ كثيرًا، وهذا يشيرُ إلى أنَّ الشَّاعِر يَقِل ذِكرُه لله، فما امتلأَ قلبُه منَ الشعرِ إلّا بَعُد عنه ذِكرُ الله.

قال ابن القيِّم(١):

حُبُّ الكِتَابِ وحُبُّ أَلحَانِ الْغِنَا ... في قَلْبِ عَبْدٍ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ

(١) نونية ابن القيم الكافية الشافية، فصل في سماع أهل الجنة، ص٣٢٦، ط. مكتبة ابن تيمية.

والصِّفَة الرابعةُ: ﴿وَٱنتَصَرُوا۟﴾ يَعْنِي: لِأَنْفُسِهِم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى:٣٩]، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ إمَّا بهجاءِ الكفارِ لهم إذا كَان شاعرًا مقابلَ شاعرٍ، أو باعتداء الكفارِ عليهم أيضًا.

قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ منَ الشُّعراء وغيرهم، ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ﴾ مَرْجِع، ﴿يَنقَلِبُونَ﴾ يرجعون بعدَ الموتِ]. وهذه الجُملةُ فيها من التهديدِ ما لا يَخفى، يَعْنِي أن ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ سَيَعْلَمُونَ عن قُربٍ ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ﴾ يكونُ انقلابهم، وهو المَرْجِع إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهذا تهديدٌ بيِّن للظالمينَ.

والظُّلْم مَرْتَعٌ مُبْتَغيه وَخِيم، فالظلمُ من أقرب ما يكونُ في معاجلةِ العُقوبةِ، لا سِيَّما إنْ دعَا المظلومُ على ظَالِمِهِ؛ فإن الأمرَ يكونُ إليه سريعًا.

ثم إنّ الظُّلم نوعانِ:

أحدهما: ظُلم مُتَعَدٍّ للغيرِ.

الثَّاني: ظُلْمٌ للنفْسِ.

فإنْ كَان في مَعصيةِ اللهِ فهو ظُلْمٌ للنفسِ، وإنْ كَانَ فيه الاعتداءُ على الغَيْرِ، فهو ظُلْم للغيرِ، كما لو أخذَ مالَه أو أفسدَ عليه شأنَه؛ فإن هذا منَ الظُّلْم المتعدِّي، واللهُ أعلمُ.



فهرس الأحاديث والآثار

الحديث  الصفحة



فهرس الفوائد

الفائدة  الصفحة



فهرس آيات السورة

